



211

الصينيون المعاصرون

(الجزء الثاني)

● التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي

تأليف: وو بن

ترجمة: د. عبد العزيز حمدي

مراجعة: د. لي تشين تشونغ

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

211

الصينيون المعاصرون
(الجزء الثاني)

التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي

تأليف: وو بن

ترجمة: د. عبد العزيز حمدي

مراجعة: د. لي تشين تشونغ



المحتوى

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المحتوى

الباب الأول

«الانتقاليون»

تحديد مفهوم الصينيين المعاصرين

١ المكانة التاريخية: بين الماضي والمستقبل

قام القرن العشرون (ويقوم الآن) بإعادة رسم الصورة النموذجية للصينيين من خلال قوته النموذجية الضخمة، ويغير الصينيون أنفسهم بعمق بفضل الاستجابة للقرن العشرين وقبوله. إذن، الأسئلة الأكثر شمولا هي: إلى أي مدى تقبل الصينيون القرن العشرين؟ وما التغييرات التي طرأت (وسوف تطرأ) على الصينيين في عملية الاستجابة للقرن العشرين وقبوله؟ وما الجوانب المتباينة أو الاختلافات بين «الصينيين المعاصرين» و«الصينيين التقليديين»؟ وكما ذكرنا في الباب الأول من هذا الكتاب أن تحليل هذه الأسئلة وتفسيرها يحتاج أولا إلى البحث عن «حلقة» الصينيين المعاصرين في سلسلة تطور التاريخ الصيني وتحديد «المكانة التاريخية» لـ «الصينيين الحاليين».

إن «التحديث» هو الموضوع الرئيسي للصين في القرن العشرين، وحسب المفهوم الأصلي له، فالتحديث يعد بمنزلة عملية تقدم مجتمع ما قبل التحديث والمجتمع التقليدي نحو المجتمع الحديث. ويعد المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث شكلين

اجتماعيين تختلف طبيعتهما اختلافا كاملا. إن التحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث لا يعني التغيير في المجال والجانب الإنساني، ولا التطور الاجتماعي العام، بل هو التحول «الكامل» في الآلية الاجتماعية، وتغيير هيكل كل الجوانب والمجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها في حياة البشرية. إنه تغيير الوحدة الكلية، ومن ثم، تعد عملية التحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، وعملية التحديث بمنزلة مشروع تنظيمي معقد وواسع النطاق وضخم إلى حد كبير. ويحتاج إنجاز ذلك المشروع الضخم للتحول الاجتماعي إلى فترة طويلة جدا إلى جانبالجهود الشاقة والمضنية والمستمرة لعدة أجيال متتالية. وشكل المجتمع الصيني التقليدي آلية الحركة الاجتماعية والهيكل الاجتماعي اللذين يتسمان بالفاعلية القوية والكمال والاستقرار إلى حد كبير لأنهما اجتازا التاريخ الطويل الذي يمتد إلى آلاف السنين، وجعل ذلك التحول إلى التحديث الصيني أكثر مشقة وصعوبة. وإذا اعتبرنا أن عام 1840 هو نقطة انطلاق مسيرة التحول الاجتماعي الذي بدأته الصين، فقد مر قرن ونصف قرن حتى اليوم على ذلك التحول، وكل الجهود المضنية التي يبذلها الصينيون حتى الآن مازالت تكرس من أجل التقدم نحو هدف التحديث. وشهدت كل مجالات المجتمع الصيني التغييرات الكبيرة في عملية التحول إلى التحديث في قرن ونصف قرن. والاتجاه العام لتلك التغييرات هو التحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث. ولكن، مازال الصينيون حتى اليوم لم ينجزوا تكوين المجتمع الصيني الحديث بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وقياسا إلى أوضاع التطور التي تشهدها الصين في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الوقت الحاضر، فإن بلوغ هدف التحديث الكامل يحتاج إلى وقت محدد تقريبا. وفي ضوء تصور اللجنة المركزية الثالثةعشرة للحزب الشيوعي الصيني، فإن معدل نصيب الإنسان الصيني من القيمة الإجمالية للناتج القومي الإجمالي يصل إلى متوسط مستوى الدول المتطورة، وتكون حياة الشعب غنية ووفيرة نسبيا، ويتحقق التحديث بصورة أساسية، وذلك في أواسط القرن المقبل. وإذا تحقق هذا التصور بسهولة ويسر إلى حد ما، فإننا نستطيع القول آنذاك إنه تم إنجاز الانتقال والتغيير أو التحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث بصورة رئيسية، وتأسيس الهيكل

الكامل والوظيفة الشاملة لتشكيل المجتمع الحديث الذي يتمتع بمستوى مرتفع نسبيا من الوحدة الكلية.

إذن، حسب هذا التصور، تعد الفترة التي تمتد أكثر من مائتي عاما في سلسلة التاريخ الصيني الطويل من عام 1840 حتى أواسط القرن المقبل، بمنزلة «الفترة الانتقالية» من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث في الصين. ويعد القرن العشرون أهم مرحلة في تلك الفترة الانتقالية بسبب أن الانتقال الرئيسي والتغيير أو التحول سوف يتم إنجازه أو بدأ في القرن الحالي، ويقف «الصينيون المعاصرون» في أهم مرحلة خلال الفترة الانتقالية الطويلة بعد أن قام القرن العشرون بإعادة رسم صورتهم النموذجية. كما يقف «الصينيون» في «نقطة الانطلاق» التاريخية: إن المجتمع التقليدي هو ماضي الصينيين، وقد خرج الصينيون من الماضي إلى حد كبير، ولكن لم يخرجوا بصورة كاملة وشاملة. والمجتمع الحديث هو «مستقبل» الصينيين، واقترب الصينيون منه إلى حد كبير، ولكن لم يدخلوا فيه بصورة كاملة وشاملة أيضا. ويقوم الصينيون الآن بـ «الانتقال» والتقدم نحو المستقبل انطلاقا من الماضي.

ولكن، أطلقنا على العصر الحاضر لقب «عصر الانتقال» الذي يتمتع بمغزى النطاق المحدود. لأن التاريخ هو تدفق تيار الزمن بصورة مستمرة إلى الأبد، والتاريخ الاجتماعي في كل العصور يتحرك ويتطور ويتغير. وهذا النوع من التحرك والتطور والتغيير واسع النطاق وأبدي ومستمر، ولذا ليست كل الهياكل الاجتماعية هامدة ولا تتغير إطلاقا. وعلى سبيل المثال، المجتمع الصيني التقليدي، الذي أنشأ النظام العشائري في أسرة تشو واستمر حتى أسرة تشينغ، شهد فيه الإنتاج الاقتصادي، وتكوين الوعي، والآداب والفنون، وأسلوب الحياة وغيرها من الجوانب الأخرى والتطورات والتغييرات الكبرى. والآن يقول الصينيون إن استقرار المجتمع الصيني التقليدي وتشابه طبيعته وجموده ليس سوى ثقتهم الذاتية الخاملة تجاه ذلك العصر انطلاقا من نقطة الانطلاق التاريخية التي يقفون عندها اليوم. وبالمثل سيكون المجتمع الحديث الذي يكرس الصينيون جهودهم لتحقيقه هو المجتمع المتحرك والمتطور والمتغير بصورة مستمرة، ويعتبره الصينيون هدفا تسعى إليه جهودهم المضنية. وفي الواقع، إن ذلك المجتمع هو تصميم

الصينيين الذاتي تجاه المستقبل انطلاقا من نقطة الانطلاق التاريخية التي يقفون عندها اليوم. وعندما يحقق الصينيون أهداف تلك التصميمات التي قاموا بإعدادها مسبقا سيكون هناك أيضا الأهداف الأكثر تحديدا ورفعة التي تدفع الصينيين إلى التقدم باستمرار. وكما ذكر كوهن P.A. Cohen: «أنه يجب فهم التحديث باعتباره عملية دراسة الأوضاع الحديثة. ومن المستحيل تحقيق الأوضاع الحديثة تحقيقا كاملا إلى الأبد. وفي الواقع، لا توجد أوضاع التحديث النهائية، ولا يوجد سوى العملية المستمرة التي تتناسب مع كل أنواع التحديث والتقاليد»[1]. ولذا، وانطلاقا من مسيرة التاريخ الطويلة وطبيعتها، فإن العصور المحددة ليست متجمدة تماما، بل تمتلك طبيعة الانتقال من «الماضي» إلى «المستقبل». وحياة الناس في كل العصور المحددة تمر بحالة «الانتقال»، ولذلك يشهد التاريخ الاجتماعي التطور والتقدم.

ولكن، يتسم تقييم الصينيين لـ «عصر الانتقال» بالأهمية أيضا، وهناك شكلان في التطور التاريخي الاجتماعي-مثل تطور كل الأشياء-هما: «التغيير الكيفي» و«التغيير الكمي»، ولذلك نستطيع الحكم على التاريخ الاجتماعي وتقدمه. ولم يصل المجتمع التقليدي في تطوره الذي استمر آلاف السنين إلى مستوى يحدد التغييرات التي شهدتها الخصائص الرئيسية لهذا المجتمع، ولذا يستطيع الصينيون التأكد من جوهر خصائص ذلك المجتمع من خلال وجهة النظر التي لا تتغير إلى حد ما. إن عصرنة المجتمع شكل اجتماعي يختلف في طبيعته وتكوينه عن المجتمع التقليدي. ويذكر الصينيون الآن «الانتقال» إشارة إلى عملية التغيير الكيفي التي شهدها التكوين الاجتماعي، إنه الانتقال والتغيير أو التحول من طبيعة تكوين اجتماعي ما إلى طبيعة تكوين اجتماعي آخر. وبالنسبة لتطور التاريخ الاجتماعي، فربما تعد «القفزة الكبرى في التغيير الكيفي» عملية انتقالية طويلة الأمد (مثل قولنا فترة «التغييرات الاجتماعية الكبرى»). إن «التغيير الكيفي» في تلك العملية الانتقالية يحقق في النهاية التحول من شكل أصلي إلى شكل أصلي آخر من خلال «التغيير الكمي» التدريجي.

ومن ثم، نستطيع القول في ثقة إنه يعد نوعا من «عصر الانتقال»، والبيئة الاجتماعية التي يعيشون فيها، والتي تتخذ شكل «المجتمع الصيني

الحديث» تعد بمنزلة «نموذج المجتمع الانتقالي» الذي يقع بين المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث ولا ينتمي لهما.

كما أن «نموذج المجتمع الانتقالي» هو في حد ذاته شكل اجتماعي، ومرحلة حتمية وضرورية في العملية الطويلة لتطور تاريخ المجتمع البشري، كما أنه شكل اجتماعي خاص حيث تتسم كل الجوانب داخله بطبيعة «الانتقال». وفي عبارة أخرى، إن ذلك الشكل الاجتماعي يختلف عن المجتمع التقليدي وعصرنة المجتمع في المستقبل، حيث إنه نظام اجتماعي ذو مستوى مرتفع نسبيا من الوحدة الكلية، ويتمتع بهيكل العلاقات الاجتماعية المستقرة، وتأييد الناس وموافقتهم على نطاق واسع. إن «نموذج المجتمع الانتقالي» قائم بين المجتمع التقليدي وعصرنة المجتمع، ومن ثم يوجد نوعان من الخصائص الاجتماعية، ونوعان من العناصر في هيكل العلاقات الاجتماعية والنظام الاجتماعي والجوانب الأخرى الخاصة بذلك النموذج الاجتماعي. ولكن، بسبب طبيعة «انتقال» ذلك النموذج الاجتماعي، أظهرت تلك العوامل والخصائص الصفات المميزة للانتقال والتطور، ولم يظهر النموذج الكامل لعناصر المجتمع التقليدي أو عناصر المجتمع الحديث. وتعرضت الأشياء القديمة والتقليدية للهجوم والتحطيم، ولكنها لم تندثر، وظهرت الأشياء الجديدة والحديثة، ولكن لم يتم إنجازها. إن تلك الأشياء قائمة في بيئة حياة الصينيين، وفي الوقت ذاته، تلعب كل منها دورها الوظيفي الذاتي، ولكن يؤثر كل منهما في الآخر ويتفاعلان معا. ولذا، ظهرت في الوقت نفسه بعض «التغييرات المتنوعة» التي لا تنتمي للأشياء التقليدية القديمة أو الأشياء الجديدة الحديثة.

ولذلك، يعد «المجتمع الانتقالي» نوعا من «الهيكل الاجتماعي الثنائي»، أو نقول إن «نموذج المجتمع الانتقالي» يتصف بخصائص «التركيب الثنائي». وفي ضوء أحوال الصينيين الحالية، يظهر «التركيب الثنائي» بصورة رئيسية في الجوانب المتعددة التالية:

١ - ثنائية الهيكل الاقتصادي

وذلك يعني تعايش اقتصاد الزراعة التقليدية واقتصاد الصناعة والتجارة الحديثة. إن الصين ترتبط بقضية التحديث الجوهرية، وتعتبر الزراعة

الركيزة الأساسية للتكوين الاقتصادي. إن مرحلة التحديث الأولية في الصين هي مرحلة تأسيس أقسام الصناعة الحديثة بصورة مبدئية في ظل عدم إجراء تعديل رئيسي على الأقسام الزراعية التقليدية، ومن ثم تكونت ظاهرة تعايش أقسام الاقتصاد التقليدي والاقتصاد الحديث معا، وتسبب ذلك في التشكيل التاريخي للهيكل الثنائي في المدن والأرياف. وفي عام 1985، كانت القيمة الإجمالية للإنتاج الزراعي في الصين تمثل 33٪ من قيمة الإنتاج القومي الإجمالي، والصناعة تمثل 47٪، وكانت القوى العاملة الزراعية تمثل 62,5٪ من العدد الإجمالي للقوى العاملة. وفي الوقت نفسه، مازال التحول إلى الهيكل العصري للاقتصاد الزراعي في الصين لم يتحقق بصورة كاملة، وظلت بعض المجالات والجوانب الأخرى تلتزم بأسلوب الإنتاج التقليدي، ولذلك ظهر وضع تعايش العلوم والتكنولوجيا الحديثة مع وسائل الإنتاج المتخلفة في المجتمع الصيني.

2- ثنائية هيكل التجمعات السكانية

يوجد في تشكيل الهيكل العام للتجمعات السكانية في الصين شكلان طبيعتهما مختلفة في حياة الناس، هما: «تجمعات المدن، وتجمعات الأرياف». ويعد الاختلاف بين المدن والأرياف بمنزلة الاختلاف بين أحدث الإدارات وأكثر الإدارات تقليدية في المجتمع. والآن مازال 80٪ من سكان الصين يقطنون الأرياف، وبسبب أن عملية «مدّيَنة الريف» في الصين بدأت متأخرة والمسيرة بطيئة جدا، وعند عقد مقارنة بين أسلوب الحياة الحديثة لسكان المدن وأسلوب الحياة في الأرياف، نقول بصفة عامة إن أعدادا غفيرة من سكان الأرياف مازال أسلوب حياتهم تقليديا، ومازالت علاقات هيكل المجتمع التقليدي في الأرياف تتمتع بالأساس واسع النطاق، وعلى الرغم من أن أسلوب الحياة التقليدية وهيكل العلاقات الاجتماعية التقليدية تعرضا للتغيير الكبير، فإنهما يختلفان شكلا ومضمونا عن أسلوب الحياة وهيكل العلاقات الاجتماعية في المجتمع الصيني التقليدي. وتوجد المدن المتقدمة نسبيا والأرياف المتخلفة نسبيا، وأصبح انقسام المدن والأرياف بمنزلة الكائنين الحيين المستقلين نسبيا في المجتمع كله، ومن ناحية أخرى تتسم التجمعات السكانية ذاتها في الأرياف والمدن بخصائص الثنائية أيضا.

3- ثنائية التنظيم الاجتماعي

إن التنظيم الاجتماعي يجسد التكوين المزدوج من الطبقة السطحية والطبقة العميقة، ويتسم بالشكل التنظيمي الحديث من ناحية، ويوجد في تنظيم أنشطة الأعمال الواقعية العناصر المتعددة التي تختلف عن مبادى* التنظيم الحديث من ناحية أخرى، ومن ثم، تسبب ذلك في إحداث الفوضى داخل وظيفة التنظيم الاجتماعي.

4- ثنائية هيكل السلطة

وتعني إقامة النظام السياسي الديمقراطي وتكوين آلية إدارة المجتمع الحديث وآلية السيطرة من ناحية، وعدم اندثار أشكال السياسة التقليدية تماما من ناحية أخرى، وكان نظام السلطة الجماعية المركزي على درجة عالية من «الأحادية» مما جعل السلطة السياسية تتسم بالتركيز المفرط، وتفتقر إلى التقسيم المعقول والتوازن الفعال.

وتظهر أبرز «ثنائية هيكل» المجتمع الصيني الحديث في الحقيقة الأساسية لـ «نموذج المجتمع الانتقالي» والتي تقع بين المكانة التاريخية للمجتمع التقليدي والمجتمع الحديث، وفي الوقت نفسه، تلعب عناصر «الماضي» و«المستقبل» دورها الوظيفي. كما يوجد بين «الماضي» و«المستقبل» نوع من «قوة الشد» المستمرة. ويلعب الهيكل التقليدي والهيكل الحديث دورهما الوظيفي الذاتي بقوة، ولكن اتجاهاتهما الرئيسية متناقضة ومتباعدة، ولكنهما يتفاعلان معا. ولذا، من المؤكد أن تتولد عن تعايش هذين الهيكلين ذوي الطبيعة المختلفة وتشابكهما سلسلة من التضاربات والتناقضات والعلاقات المتوترة. وتسبب ذلك في تعقيد الحياة الاجتماعية والوضع اللانظامي إلى حد ما، وتحمل المشاكل الاجتماعية المتنوعة في طياتها الخصائص الهيكلية، ولكن، في صدام عناصر الهيكلين ذات الطبيعة المختلفة، تندثر بعض العناصر القديمة وتظهر العناصر الجديدة حيث تقهر الأشياء الجديدة الأشياء القديمة تدريجيا، وتحل عناصر عصرنة المجتمع محل عناصر المجتمع التقليدي رويدا رويدا، وتدفع حركة التناقض الاجتماعي إلى الأمام. كما تدفع المجتمع في اتجاه التغيير والتحول إلى التحديث.

إن «نموذج المجتمع الانتقالي» هو هدف التحديث النهائي. ويتحول تكوين

«نموذج المجتمع الانتقالي» إلى المجتمع الحديث الذي يتحلى بالطبيعةالجديدة تماما والتكوين الكامل عند تحقيق هذا الهدف. ولذا، ما يطلق عليه «الانتقال» هو حركة في اتجاه هدف التحديث والتطور والتقدم. وينصاع الاتجاه الأساسي لـ «نموذج المجتمع الانتقالي» وموضوع الثقافة الرئيسي لهذا الهدف. ولكن، تحديد الناس لماهية الهدف النهائي شيء، والوسيلة التي يختارونها، والطريق الذي يجتازونه شيء آخر. ويظهر دائما في عملية الانتقال نحو هدف التحديث النكسات والأخطاء والسير على الطرق الملتوية وغيرها من الأحوال الأخرى. وشكلت بعض الأخطاء التي يصعب تجنبها أو يمكن تجنبها، العديد من مشاكل اليوم التي يتحتم ظهورها أو يجب ألا تظهر. ويعتقد الناس أنهم يبذلون الآن الجهود المضنية في الاتجاه نحو هذا الهدف، ولكن ابتعدوا عنه فيما بعد. وفي الوقت ذاته، يتولد عادة عن كل خطط السعي وراء الهدف العظيم العديد من العواقب التي لا تتوقع. إن تحقيق هدف التحديث هو تقدم عظيم للبشرية، ولكن يتولد في عملية التحديث أيضا العديد من الظواهر المصاحبة والسلبية التي لا نأمل في حدوثها. وتظهر بصورة مشتركة الظواهر التي يجب أو لا يجوز أن تظهر، بالإضافة إلى التعايش المشترك للظواهر التي يجب أو لا يجوز أن توجد، وبالضبط كما أشار ماركس على النحو التالي:

«في عصرنا هذا يبدو أن كل شيء يشتمل على الوجه السلبي الذاتي. ونرى الماكينات ذات الأيدي العاملة البشرية القليلة التي جعلت العمل يتمتع بالقوة السحرية الأكثر نجاحا، ولكن سببت المجاعات والإرهاق المفرط. إن ينابيع الثروة التي اكتشفت حديثا أصبحت مصادر للفقر من جراء القدرة السحرية التي لا يمكن تأملها. ويبدو انتصار التكنولوجيا أنه الثمن المقابل للانحطاط الأخلاقي، ومع تعاظم سيطرة البشرية على الطبيعة، يبدو الإنسان أكثر عبودية للآخرين أو للسلوك الذاتي الدنيء، بل حتى الإشراق الباهر للعلوم يبدو أنه يستطيع فقط أن يتلألأ في الخلفية المعتمة والمتخلفة والغبية. وتبدو نتيجة كل اكتشافاتنا وتقدمنا كأنها جعلت القوة المادية تتمتع بالحياة الحكيمة، وأصبحت حياة الإنسان القوةالمادية البليدة. إن المجابهة بين الصناعة والعلوم الحديثة، وبين الفقر والانحطاط الحديث هي حقائق موجودة ومن السهل رؤيتها، ولا يمكن تجاهلها ولا داعي لمجادلتها»[2].

وأحرز الصينيون في عملية التقدم نحو التحديث الإنجازات الهائلة في بعض المجالات، وربما يدفعون الثمن غاليا ومؤلما في بعض المجالات الأخرى. وعلى سبيل المثال، ظهرت مشكلة البيئة التي تواجهها البشرية في الوقت الحاضر، ومشكلة الطاقة والسكان وغيرها من المشاكل الأخرى في مسيرة التصنيع والتحديث. وعلى سبيل المثال مرة أخرى، يعد الفقدان الثقافي والفوضى الاجتماعية والأزمات النفسية وغيرها من المشاكل الأخرى، التي ظهرت في مسيرة التحديث بمنزلة الصعوبات والعقبات الضخمة التي تواجهها البشرية. ولذلك، عملية التحديث ليست الأزهار المتنوعة الرائعة والطريق المشرق، بل إنها عملية تغص بالصعوبات والعقبات، بل حتى مؤلمة إلى حد كبير أحيانا . إن الانتقال إلى التحديث لا يحتاج إلى التغلب التدريجي على العقبات والتحديات القديمة والناجمة عن تحول عناصر المجتمع التقليدي إلى التحديث فحسب، بل يحتاج أيضا إلى بذل الجهود المضنية للتغلب على العناصر السلبية وغير الفعالة الناجمة عن عملية التحديث نفسها . كما أن العناصر القديمة والتقليدية تتخذ عادة من العناصر السلبية وغير الفعالة الناجمة عن عملية التحديث نفسها هدفا لها وتعزز قوة مقاومتها للتحديث. إن ذلك كله يعزز «قوة الشد» بين «الماضي» و«المستقبل»، ويجعل «الانتقال» إلى «نموذج المجتمع الانتقالي» أكثر مشقة وصعوبة والتواءً وتعقيدا . كما يجعل دفع الصينيين لمسيرة التحديث إلى الأمام يحتاج إلى أقصى الجهود المضنية. كما شكل ذلك كله خلفية الحياة التي في غاية التعقيد ويعيش فيها الصينيون الآن بين «عصر الانتقال» و«نموذج الانتقال الثقافي»، ويمارس الصينيون ذلك «الانتقال الكبير» الشاق في الوقت الحاضر.

الهوامش

(1) اقتباس من مقال «تقاليد الأدب الصيني الحديث وخصائصه» بقلم لي تشونغ ينغ، انظر مجلة «العلوم الاجتماعية في الصين» العدد الأول، عام 1988، ص55.

(2) «المختارات الكاملة لماركس وإنجلز»، المجلد 2، ص 191-192 [بالصينية].

2 الهيكل الثنائي للثقافة الصينية الحديثة

يقول لويس هنري مورغان Lewis Henry Morgan: «إن كل مرحلة في تطور البشرية تشتمل على الثقافة المختلفة وتمثل أسلوبا محددا في الحياة»[1]. والمجتمع الصيني الحديث بوصفه مرحلة خاصة في عملية تطور التاريخ الصيني، فقد قررت طبيعة انتقال ذلك المجتمع وثنائيته منح الأنشطة الحياتية لدى الصينيين مزايا الثقافة الصينية الحديثة من مغزى القيم والدعم الفكري، ويعد تكوين الثقافة الصينية الحديثة بمنزلة «نموذج الانتقال الثقافي» الذي يتناسب مع «عصر الانتقال» و«نموذج المجتمع الانتقالي».

إن الثقافة الصينية الحديثة هي «نموذج الانتقال الثقافي». وفي عبارة أخرى، وقياسا إلى الوحدة الكلية، فإن الثقافة الصينية الحديثة مازالت قابعة في عملية الانتقال والتغيير أو التحول من هيكل الثقافة التقليدية إلى هيكل الثقافة الحديثة، وتقع بين النموذج الثقافي «التقليدي» و«التحديث». ويتسم تكوين «نموذج الانتقال الثقافي» بالعوامل التقليدية العميقة من ناحية، وعوامل التحديث المناسبة من

ناحية أخرى. ولذلك يتسم تكوين ذلك النموذج الثقافي بنوعين من الخصائص الثقافية، ويشكل الهيكل الثقافي الثنائي. وما يطلق عليه «الهيكل الثقافي الثنائي» يقصد به أن ذلك الهيكل الثقافي يتحلى بخصائص هيكل نموذج الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة في آن واحد، أو نقول يتعايش نوعان من عناصر النموذج الثقافي، ونوعان من النموذج الثقافي معا. ولذا، يبدو الناس كأنهم يعيشون داخل نوعين من الثقافة، وفي الوقت نفسه يتأثرون بتعلم نموذجين من الثقافة وسيطرتهما وتفاعلهما.

ويعد نموذج الثقافة التقليدية ونموذج الثقافة الحديثة نوعين من الثقافة تختلف طبيعتاهما اختلافا كاملا، ومصدرهما هو الأساس الاقتصادي والاجتماعي المتباين، ويعتمد وجودهما في الحياة على المراحل المخالفة لتطور القوة الإنتاجية الاجتماعية وعلاقات الإنتاج، ولديهما وجهة النظر المتباينة إلى القيم، ونظام المعاني، والاتجاه التاريخي، ويضطلعان بالوظائف المختلفة. ويدل التحديث في حد ذاته على الهجوم على الثقافة التقليدية وتحطيمها ونقدها. إن عملية التحديث هي عملية انهيار نظام الثقافة التقليدية وإقامة نظام الثقافة الحديثة. وفي الوقت نفسه، يجسد نظام الثقافة التقليدية بالغريزة رفضه للتحول إلى التحديث ومقاومته أيضا. ومن ثم، عندما ينسق التاريخ بين نوعين من الثقافة تختلف طبيعتاهما، فمن المؤكد أن يظهر بينهما الصدام القوي والعنيف والتناقض والتضارب. وفي عبارة أخرى، إن تكوين الهيكل الثنائي للثقافة الصينية الحديثة يتشكل من تكوين قطبين متعارضين: أحدهما الثقافة التقليدية، الآخر الثقافة الحديثة، ويوجد بين القطبين الكثير من الحلقات المتوسطة أو التكوين الانتقالي. ويحدث في التكوين الثقافي للقطبين المتعارضين الصدام والمقاومة باستمرار. وفي الوقت ذاته، يجمد كل منهما الآخر، ولذا تشكل بينهما نوع من توازن قوة الشد التي انتقل تأثيرها إلى قوة الدفع الداخلية الخاصةبالتحول إلى التطور الثقافي. إنه اجتياز الثقافة بنفسها التعديل المستمر والتجديد وتحقيق التطور في حركة القطبين المتعارضين.

ولذلك، تجسد الظواهر الثقافية في «نموذج المجتمع الانتقالي» في الصين الحديثة المقاومة العنيفة للتناقضات من جراء خصائص الهيكل الثنائي للتكوين الثقافي. أو نقول إن المجتمع الصيني الحديث يغص

بالتناقضات الثقافية، وأن مقاومة تلك التناقضات الثقافية وإزالتها وتحولها تدفع تطور الثقافة الصينية إلى الأمام، ويغير تكوين الثقافة التقليدية إلى تكوين الثقافة الحديثة[2]. ونقول بصفة عامة أن التناقضات الرئيسية الثقافية الخمسة الكبرى في الصين هي:

1- تناقض توارث الثقافة وإبداعها

في الواقع، يوجد هذا التناقض داخل التناقضات الأخرى التي يشهدها التكوين الثقافي، إنه تناقض من جوهر الثقافة نفسها. إن الشروط الأساسية لوجود الثقافة هي إمكان توارثها أو استمرارها، بمعنى وجود الصلات المتعددة الجوانب بين المستويات (المراحل) المختلفة للتطور الثقافي. وتحتفظ تلك الصلات ببعض عناصر التوارث الثقافي وتستخدمها عبر الأجيال المتعاقبة داخل عملية التغيير الثقافي، ويضمن استمرار الثقافة الاعتماد المتبادل والتكامل في مسيرة الثقافة العالمية. ولكن، من ناحية أخرى، تكمن حياة الثقافة في إبداعها. ولا يوجد تطور دون إبداع. إن كل العصور العظيمة للثقافة هي عصور الإبداع. ويدل الإبداع على نقد الثقافة التقليدية وتجاوزها ونبذ الطالح وتأييد الصالح منها.

كما يدل على توقف (انهيار) التوارث الثقافي إلى حد ما. إن ذلك التناقض عكس التعارض الثنائي للهيكل الثقافي العميق: فمن زاوية الزمن المشترك، يوجد دائما التعارض بين حركة التقدم نحو المركز (يشير إلى مركز التقاليد القومية) وحركة الابتعاد عن ذلك المركز (يمتد ويتسع نطاق تلك الحركة في الخارج انطلاقا من ذلك المركز). ومع تقادم الزمن، يظهر التعارض الثنائي بين القوة الخاملة للتقاليد المتراكمة والقوة الحيوية الحالية التي تقاوم التقاليد وتسعى للتطور.

2- التناقض بين الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة

لقد تحدثنا كثيرا حول ذلك التناقض، وفي الواقع، إنه تناقض ينبع من خصائص الثقافة نفسها، وأصبح ملموسا ومحسوسا في المجتمع الصيني الحديث، ويعد ذلك التناقض بمنزلة التناقض الرئيسي في الثقافة الصينية الحديثة. وتنتشر كل ظواهر التناقضات الثقافية حوله أو تشتق منه.

3-التناقض بين الثقافة الداخلية والثقافة الخارجية (الثقافة الغربية بصفة أساسية)

بدأت حركة التحديث الصيني عندما استجابت لهجوم الثقافة الغربية، وبمجرد أن بدأ التناقض بين الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة، تشابك تناقض الثقافة الصينية والثقافة الغربية وصدامهما معا. ويعد معالجة هذا التناقض والتعامل معه وإيجاد الحلول له بمنزلة المشكلة الكبرى التي تواجهها حركة التحديث الصيني من البداية حتى النهاية. وعكس هذا التناقض جوانب الصدام بين انتشار الثقافة ومضمونها وقوميتها وتدويلها، بالإضافة إلى الصدام بين المعرفة العميقة بالثقافة الصينية ومعرفة العالم وغيرها من الجوانب الأخرى.

4-التناقض بين التطابق الثقافي والتنوع الثقافي

يوجد داخل أي شكل اجتماعي المتطلبات الثقافية المتطابقة ولذا يؤسس الآلية الكلية الثقافية والأساس المشترك الذي يربط بين الناس وبين تفاهمهم وتبادلهم، ولكن في الثقافة الصينية التقليدية كان السعي وراء الوحدة يمثل الهدف الأعظم، وخاصة تأكيد مؤازرة السلطة الشرعية، والتقاليد الكونفوشيوسية، و«التوصل إلى التفاهم المشترك» و«الإرادة الموحدة». ولكن، من ناحية أخرى، جسد البحث عن التنوع والثراء حماسة الناس لإبداع الحياة الجديدة. كما جسد القوة الدافعة اللانهائية والثراء الداخلي للحياة، ولا تكمن أهمية التنوع الثقافي في إغناء حياة الصينيين فحسب، بل في تقديم مصادر تجديد المجتمع والتوافق مع التغييرات أيضا. ويبرز التناقض بين تطابق الثقافة وتنوعها بجلاء في التحول إلى التحديث. وحسب وجهة النظر الماركسية: إن التنوع ظاهرة أساسية يستطيع الناس الإحساس بها ورؤيتها في كل مكان. أما الوحدة الكلية فتظهر البحث عن الجوهر المشترك في خلفية التنوع وتجسد حماسة الناس الميتافيزيقية. ولذا، لا يعد التناقض بين التطابق والتنوع الثقافي قطبين بسيطين متعارضين إطلاقا.

5-التناقض بين اتجاه القيم الثقافية واتجاه الممارسة

يظهر في «نموذج المجتمع الانتقالي» الهيكل الثقافي الثنائي في صورة

قطبين متعارضين بصورة معقدة، ناهيك عن تفاعلهما وتأثيرهما وتغلغلهما المتبادل، ولذا يتسمان بإمكان التحول إلى الاتجاه المعاكس. وعلى هذا النحو، يجعل هذان القطبان المتعارضان الجهود المضنية الذاتية التي يبذلها الصينيون وتكرس للتحديث (اتجاه القيم) تتسرب داخل عناصر الثقافة التقليدية، أو يستغلان الفهم السيىء لهيكل الثقافة التقليدية واتجاه تعديل تلك الثقافة، ولذلك يبتعدان ويتحولان عن الاتجاه الأساسي في عملية الممارسة وينجم عنهما الشكل الحديث والمضمون التقليدي. ومن ناحية أخرى أن الصدام بين تناقض اتجاه معارضة التقاليد لدى الناس واتجاه حماية التقاليد الكامن في شعورهم يعزز إمكان التباعد بين اتجاه القيم واتجاه الممارسة.

إن خصائص الهيكل الثنائي لتكوين الثقافة الصينية الحديثة شكلت مقاومة التناقض الثقافي وتضاربه. إن ذلك التضارب الثقافي يظهر مقاومة الثقافة التقليدية للتحول إلى التحديث. أو نقول إن عناصر الثقافة التقليدية، ولاسيما مفاهيم القيم التقليدية والأحوال النفسية الثقافية وأسلوب التفكير وغيرها من العناصر الأخرى في الهيكل الفكري للناس وإدراكهم أصبحت قوة الإعاقة لمسيرة التحديث الصيني من ناحية. كما تظهر عناصر الثقافة التقليدية مقاومة تلك الثقافة وصدامها العنيف مع مسيرة التحديث، وتتغلغل مفاهيم ومعاني قيم الثقافة الحديثة تدريجيا داخل حياة الناس اليومية، إنها المعاني والمفاهيم التي فهمها الناس وتقبلوها من ناحية أخرى. ومازالت تظهر مقاومة ذلك التناقض الثقافي وتضاربه في الحياة الصينية الاجتماعية الحديثة في صورة عنيفة جدا . ومن ثم، تشكلت بعض ملامح هيكل الثقافة الصينية الحديثة التي تختلف عن ملامح الهياكل الثقافية الأخرى (الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة)، وهناك علاقة تربط بين تلك الملامح و«الهيكل الثقافي الثنائي». ونقول بصورة محددة إن الملامح الرئيسية لـ «نموذج الانتقال» الثقافي الذي يتصف بالهيكل الثنائي توجد في الجوانب المتعددة التالية:

١- إن طبيعة «الهيكل الثنائي» للثقافة الصينية الحديثة تجسد «الطبيعة المختلفة» للظاهرة الثقافية بصورة جلية، بمعنى أن النظام الثقافي الاجتماعي فقد الانسجام الموحد السابق، ويظهر حالة تداخل الأشياء واختلاطها.

وفي الوقت نفسه، تلعب العوامل الثقافية ذات الطبيعة المتباينة دورها الوظيفي، وكتب لو شيون في عشية حركة «4 مايو» 1919 الوصف التالي:

«كان الوضع في المجتمع الصيني عبارة عن اختزال عشرات القرون في لحظة: من السراج إلى المصباح الكهربي، من العربة إلى الطائرة، من الحربة والبندقية إلى المدفع الآلي، من عدم السماح بمناقشة المبادى* القانونية، إلى حماية الدستور، من أفكار أكلة لحوم البشر إلى الإنسانية، ومن تقديس الجثث والسجود للثعابين إلى التثقيف الفني ليحل محل الأديان، ويوجد ذلك كله في آن واحد بشكل تتلامس فيه الأكتاف وتتلاصق الظهور»[3].

إن كلمات لو شيون تشير بجلاء إلى الأزمنة المتباينة التي جسدها الاختلاف الخارجي في المجتمع الصيني آنذاك. والأحوال الحالية أكثر تعقيدا عن الأحوال وقتئذ، وعلى الرغم من تعرض مفاهيم قيم الثقافة التقليدية ومعانيها للهجوم الشديد والنقد في الحياة الاجتماعية الصينية الحديثة، فإنها لم تندثر من أذهان الناس اندثارا كاملا، ومازالت تلعب دورها إلى حد ما. وفي الوقت نفسه، تتأسس مفاهيم قيم الثقافة الحديثة ومعانيها الجديدة في الوقت الحاضر التي يفهمها الناس ويثقون فيها بصورة تدريجية، ولكن الدور الذي تلعبه في «مستوى محدد» أيضا، ولم يظفر بالتأييد الشامل من قبل جميع أفراد المجتمع وموافقتهم في كل المجالات والجوانب. وعلى صعيد العلاقات الإنسانية، مازال أسلوب التبادل الإنساني في نطاق محدد أو يحتفظ بالتغييرات الشكلية، وقد ظهر أسلوب التبادل الإنساني الجديد، ومازالت مفاهيم المبادىء الأخلاقية الجديدة لم تؤسس بصورة كاملة، كما لم تنهره مفاهيم المبادىء الأخلاقية التقليدية انهيارا كاملا أيضا. لقد مال نموذج الأسرة التقليدية الكبيرة إلى المغيب، وشهدت وظيفة هيكلها التغييرات ولم تكتمل ملامح نموذج الأسرة الحديثة. ومازال هناك المقلدون الذين يسعون وراء الشخصية المثالية التي قامت الثقافة التقليدية بإعدادها، كما يعبدون الشخصية المثالية التي تجسد المثل العليا للقيم الثقافية الحديثة ويمجدونها أيضا. ولم يتم التخلص من مفاهيم الأفكار السياسية الإقطاعية بصورة كاملة، وتتكون مفاهيم السياسة الديمقراطية وغيرها من المفاهيم الأخرى في الوقت الحاضر. لقد ظهرت خصائص الثقافة الصينية الحديثة ذات الطبيعة المتباينة من خلال أشكال

التعددية البارزة، مما جعل الناس لديهم نوعان أو عدة أنواع من نماذج السلوك ومقاييس القيم. وتجعل هذه الأحوال الأفراد يشعرون بالحيرة أو لا يعرفون أي طريق يسلكون، ويفتقرون إلى مشاعر التأييد، كما سببت الفوضى في نظام الحياة وفقدان توازن الوظيفة الثقافية.

2- تظهر طبيعة «الهيكل الثنائي» للثقافة الصينية الحديثة في شكلها، بمعنى أن الناس يسعون على نطاق واسع وراء الأشياء الظاهرية والسطحية، أما المغزى الداخلي والعميق فلم يعترف به المجتمع ولم يفهمه ولم يبحث عنه، ولم تحقق الصفات المميزة للثقافة التقليدية والثقافة الحديثة دورها الكامل الذي يجب أن تقوم به في الجانب الوظيفي. ويفتقر الناس إلى المفاهيم المشتركة بسبب الطبيعة المختلفة للثقافة الاجتماعية، ولذلك يعجز كل إصلاح عن الحصول على الفهم العميق والتنفيذ الكامل من ناحية المضمون. وعلى الصعيد السياسي، يفتقر الناس أيضا إلى مشاعر المشاركة القوية على نطاق واسع. وعلى سبيل المثال، يعتبر حق الانتخاب واجبا، ولا ينظر إليه باعتباره حقا مقدسا ليعبر المواطنون عن آرائهم. وفي مجال المعرفة، يبحث الناس عادة عن المؤهل الدراسي والشهادات والألقاب الرسمية والشهرة، ولا يهتمون بالمعرفة الأصلية والكفاءة العالية، ويسعون وراء الزخرفة الشكلية. ولذلك لا تهتم جوائز المسابقات الكبرى والحكم بالمقارنة وحفلات التدشين والمؤتمرات الإعلامية والإذاعية وغيرها من الممارسات العامة بالقيم والمعاني الثقافية العميقة.

3- كما تظهر طبيعة «الهيكل الثنائي» لتكوين الثقافة الصينية الحديثة في «التطابق الجزئي» للوظيفة الثقافية، بمعنى تعايش الخصائص المميزة الثقافية الجديدة والقديمة في الظاهرة الثقافية الواحدة. وفي المجتمع التقليدي تسود الوظيفة الدرجة العالية، فالأسرة ليست وحدة اقتصادية وحياتية فحسب، بل وحدة للتسلية وممارسة الأديان والأنشطة السياسية أيضا. ومن خصائص المجتمع الحديث الوظيفة التخصصية وكسب الامتيازات. وفي مسيرة التحديث تتضاءل وظيفة الأسرة، وتظهر بعض التنظيمات الاجتماعية المتخصصة التي تمارس جزءا من السلطة والوظيفة التي تنتمي إلى الأسرة في الأصل. وفي الوقت نفسه، تفتح تلك التنظيمات الطريق أمام بعض المجالات الجديدة أيضا. ولكن، هذه التنظيمات أو الأجهزة

لا تعتمد على نفسها اعتمادا كاملا ولا تتحلى بكسب الامتيازات الوظيفية. وعادة تتغلغل بعض عناصر الثقافة التقليدية في هذه الأشكال الجديدة، مما يجعل مهمة تلك الأشكال تتعرض للتجمد المتبادل وتعجز عن إبراز دورها الكامل للعيان. ولا يقوم المصنع بالإنتاج بصورة كاملة، بل «يدير المجتمع» أيضا. ولا يستطيع التاجر ممارسة التجارة بصورة شاملة حسب قوانين الاقتصاد التجاري. كما لا يستطيع الموظف الحكومي استخدام الوسائل الإدارية للإشراف على الأقسام والتنظيمات التابعة له بصورة كاملة أيضا.

4- كما تظهر طبيعة «الهيكل الثنائي» لتكوين الثقافة الصينية الحديثة في عدم توازن تطور الثقافة[4]. إن عدم التوازن هو الاتجاه المعتاد في تطوير الثقافة. ولكن، ظهور عدم التوازن في «نموذج انتقال» التكوين الثقافي يكون في نطاق أكبر وأكثر بروزا. ويظهر ذلك عدم التوازن في العديد من الجوانب: أولا، في الأدوات الثقافية والنظام الثقافي والفكر الثقافي، بالإضافة إلى عدم التوازن بين الجوانب الثقافية المتباينة، وعندما استجاب الصينيون لهجوم الثقافة الغربية، فإنهم تقبلوا -في المقام الأول- الأدوات الثقافية وقاموا بإصلاحها، ثم تقبلوا النظام الثقافي، وأخيرا قاموا بتحسين الفكر الثقافي (الأفكار والمفاهيم) وتعديله. إن الترتيب داخل مثل تلك العملية التاريخية قرر عدم التوازن بين الثقافات المتباينة. وفي الوقت نفسه، كان إصلاح الأدوات الثقافية سهلا نسبيا، أما إصلاح النظام الثقافي فكان صعبا نسبيا. ويواجه تغيير الفكر الثقافي، وخاصة التعمق في الهيكل النفسي الثقافي العميق لدى الناس، المقاومة العنيفة والإعاقة. ثانيا، عدم التوازن بين المناطق الثقافية المتباينة. إن تعارض الهيكل الثنائي للمدن والأرياف الموجود في الصين حاليا، جعل الاختلاف بين ثقافة المدن وثقافة الأرياف أكثر بروزا. بالإضافة إلى أن عدم التوازن بين المدن والأرياف أدى إلى تجسيد سلسلة من مظاهر عدم التوازن بين المناطق الساحلية والداخلية، والشمال والجنوب، والمناطق الداخلية والمناطق الحدودية، ومناطق تمركز قومية الهان ومناطق تمركز الأقليات القومية. ثالثا، عدم التوازن الثقافي الناجم عن الفئات الاجتماعية. ويعد تشعب هيكل المستويات الاجتماعية أحد جوانب مسيرة التحديث، وتتسم الفئات الاجتماعية المختلفة بأسلوب

الحياة المختلف والثقافة الثانوية والتطور بينهم ليس متوازنا، بالإضافة إلى عدم التوازن بين «العرف الكبير» و«العرف الصغير» في الثقافة، وعدم التوازن بين التطور الثقافي والتطور الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، وغيرها. ومن أبرز أشكال عدم توازن التطور الثقافي التفاوت في التقدم إلى حد ما، ولذا برزت ظاهرة «التفاوت المستقر في الثقافة» وكما ذكر لينين: «أن كل عصر،سواء أكان في الماضي أم في المستقبل، يتمتع بالحركة الذاتية الجزئية التي تتقدم حينا وتتقهقر حينا آخر، وتوجد به كل الاتجاهات التي تنفصل عن الحركة والسرعة العامة لتلك الحركة الذاتية الجزئية[5].

إن عدم التوازن في الثقافة خفض مستوى الوحدة الكلية لنظام الثقافة الاجتماعية، وعلى الرغم من أن عدم التوازن لم يحطم الوظيفة الاجتماعية للتكوين الثقافي كله، ولكنه ربما تسبب في تقهقر التطور الثقافي إلى حد ما، أو قيد مسيرة الانتقال إلى التكوين الثقافي الحديث.

5- كما تظهر طبيعة «الهيكل الثنائي» لتكوين الثقافة الصينية الحديثة في اللانظامية. إن مستوى الوحدة الكلية المرتفع نسبيا، والعلاقات الهيكلية والوظائف تجسد الأوضاع المنتظمة في التكوين الثقافي الذي يتحلى بالطبيعة المتشابهة العالية (مثل نظام الثقافة الصينية التقليدية). ولكن في «نموذج انتقال» التكوين الثقافي، وبسبب هيكله الثنائي واختلاف طبيعته وعدم توازنه، لا يمكن إدماجه في الهيكل الموحد حيث تكون العلاقات الهيكلية مضطربة، وتعاني الوظائف من عدم التوازن، وآلية التعديل الثقافي الاجتماعي غير كاملة، ويتم تطبيق معيار القيم المزدوجة، ونماذج السلوك المزدوج، وتظهر حالة الفوضى في الثقافة، إن مسيرة التحديث حطمت نظام هيكل الثقافة التقليدية، وقامت بإعادة بناء نظام هيكل الثقافة الحديثة. ولكن «إعادة بناء» ذلك النظام يعد عملية معقدة جدا وتحتاج إلى فترة طويلة نسبيا. إن عملية إعادة البناء في حد ذاتها هي عملية التقدم نحو الأوضاع المنتظمة انطلاقا من الأوضاع الفوضوية.

ومجمل القول، إن صفات «الهيكل الثنائي» في تكوين الثقافة الصينية الحديثة تظهر في الطبيعة المختلفة، والشكلية، والتطابق الجزئي، وعدم التوازن واللانظامية وغيرها من الجوانب الأخرى التي حددت الخصائص الرئيسية لتكوين الثقافة الصينية الحديثة. وتغلغلت كل التناقضات

والتعارضات ذات الطبيعة الثقافية المختلفة في كل جوانب الحياة الاجتماعية، وسببت الاضطراب الكبير وعدم التوازن في تكوين مفاهيم الناس والسيكولوجية الاجتماعية. إن مثل «نموذج الانتقال» ذاك، الذي يتحلى بالتكوين الثقافي ذي «الهيكل الثنائي»، يظهر طبيعة الحركة والتطورات بصورة جلية. كما يظهر ملامح التغييرات بصورة مطردة. إن كل شيء يتغير ويتعدل ويؤسس من جديد، كما يمر بالتغيير والانتقال والتحول، ولا يوجد شيء يمكن القول إنه مستقر بصورة مطلقة واتخذ الشكل النهائي.

الهوامش

(1) لويس هنري مورغان، «المجتمع في العصور القديمة» الجزء الأؤل، مطبعة الكتب التجارية، طبعة عام 1983، ص9.

(2) أعتقد أن السبب الرئيسي لتطور الثقافة يكمن في حركة التناقض الداخلي لتكوين الثقافة نفسها. ويتشابه التناقض الثقافي مع تناقض الأشياء الأخرى، وينصاع للقوانين العامة لحركة التناقض. إن مذهب التناقض في الماركسية الديالكتيكية يقدم لنا خيوط التوجيه لتحليل الثقافة الصينية الحديثة، ويعد تحليل التناقض الثقافي بمنزلة مسألة حاسمة للتمكن من اتجاه تطور الثقافة الصينية الحديثة، وسوف نجري مناقشة تفصيلية حول هذه المسألة في كتاب تناقض الثقافة الصينية الحديثة».

(3) «مختارات لو شيون»، المجلد الأول، دار الأدب الشعبي للنشر، طبعة عام 1981، ص344.

(4) إن عدم توازن التطور الثقافي ظاهرة واسعة النطاق. وأشار ماركس إلى أن: «فترة الازدهار المحدود للفنون والآداب لا يمكن أن تكون مقياسا للتطور الاجتماعي العام إطلاقا»، وفي مجال الفنون والآداب نفسها توجد بعض الأشكال الأدبية والفنية ذات الأهمية الكبرى والتي لا يمكن تحقيقها إلا في المرحلة غير المزدهرة لتطور الفنون والآداب». إن بعض الاتجاهات داخل مجال الفنون والآداب تظهر بفضل تأثير النماذج المختلفة للفنون والآداب،، كما تظهر من جراء «العلاقة التي تربط كل مجالات الفنون والآداب بالتطور الاجتماعي العام» («المختارات الكاملة لماركس وإنجلز» المجلد 12، ص 760 ـ 761). كما أشار إنجلز في تحليل أحوال ألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر إلى أنه: «كان ذلك العصر شائنا في الجانب السياسي والاجتماعي، ولكنه كان عظيما في جانب الأدب الألماني». («المختارات الكاملة لماركس وإنجلز» المجلد 2، ص 634 ـ بالصينية).

(5) «مختارات لينين»، المجلد 21، ص123 [بالصينية].

3 تغير الأحوال الثقافية وإعادة تشكيل الشخصية الصينية

يدل التحول من المجتمع الصيني التقليدي ونظام الثقافة التقليدية إلى «نموذج الانتقال» الاجتماعي و«الهيكل الثنائي» للتكوين الثقافي في العصر الحديث على التغييرات المهمة في أحوال حياة الصينيين.

إن الإنسان هو نتاج الثقافة الاجتماعية إلى حد كبير، وتحدد الظروف وضع أنشطة الناس ومقياس دورهم على «مسرح» الحياة. لقد نشأت ملامح شخصية «الصينيين التقليديين»، وسلوكهم النفسي واتجاههم في ظل أوضاع الثقافة الصينية التقليدية التي رسمت الصورة النموذجية لـ «هيكل الشخصية الرئيسي» أو «الطبيعة الاجتماعية» للأمة الصينية من خلال وسائل «التعميم» أو «تكييف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية»، كما جسدت تلك الملامح قيم تكوين الثقافة التقليدية ومغزاها ومعيارها. وتشكلت مفاهيم القيم لدى الإنسان الصيني بعد أن اجتاز إدراك الثقافة التقليدية وقبولها، وتتطور شخصيته الذاتية وتكتمل حسب تصميم وجهة النظر إلى القيم والاختيار. إن ما

تقبله الصينيون التقليديون هو تصميم الثقافة الأولى للإنسان الصيني، واختاروا نموذج سلوكهم وسيكولوجيتهم حسب المعايير التي حددتها تلك الثقافة، ولذا يسايرون «أحوال» الثقافة التقليدية.

وحطمت حركة التحديث هذه «الأحوال»، ومال نظام الثقافة التقليدية إلى المغيب وانهار في ظل هجوم حركة التحديث، ولم يعد الاتجاه الرئيسي الثقافي أو الثقافة الرائدة في المجتمع. والناس الذين يعيشون داخل ذلك النظام هم «نموذج الانتقال»، ويتحلون بالتكوين الثقافي الاجتماعي الذي يتسم بطبيعة «الهيكل الثنائي». ومن المؤكد أن تغيير مثل تلك «الأحوال» يتطلب أن يقوم الناس بالتغييرات الملائمة في خصائص الشخصية، والسلوك النفسي، ومفاهيم القيم وغيرها من الجوانب الأخرى. وتتطلب البيئة الثقافية ذات العصور المختلفة والأحوال المتباينة رسم الشخصية القومية المختلفة، وأشار إلكس إنجلز إلى أنه:

«في البيئة التي تشهد بعض تلك التغييرات نراقب عادة استقرار الصفات المميزة للإنسان في البيئة المستقرة. ومن المؤكد أن تطرأ التغييرات العنيفة على تلك الصفات نتيجة الاستجابة لمتغيرات البيئة. وربما تتغير بيئة الإنسان في أي مرحلة من مراحل عمره، ولا يقتصر ذلك التغيير على مرحلة الطفولة أو مرحلة الشباب. ويؤكد ذلك أنه إذا تغيرت البيئة في مرحلة بلوغ الإنسان، فإن صفاته تتسم بإمكان التغيير مع تغيرات البيئة»[1].

وهناك الكثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع الذين أجروا دراسات حول أوضاع التغيير الذي تشهده الشخصية القومية نتيجة تغير الظروف الثقافية (التحول الثقافي). وأشار العالم الأمريكي واكمان Wakeman إلى أن الإنجليز اشتهروا في العالم بالسلوك القومي المهذب. وفي الواقع، إنهم تغيروا فجأة بعد عام 1850. وقبل ذلك كانوا مثل باقي الأوروبيين في العصور الوسطى، أمة فظة قاسية تعشق القتال والتحرش. إن سبب تغيير تلك الشخصية القومية كان من تأثير القوة والازدهار التدريجي للإنجليز في عدة قرون. ومن ثم، أدركوا فجأة أنهم يحتاجون إلى تغيير شكل قوميتهم الأصلية. إنه تغيير الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية الخاصة بهم، مما أدى إلى تغيير الشخصية القومية والسيكولوجية القومية لديهم. وقام عالم الاجتماع النفسي إريش فرومن Erich Fromn بتحليل تغييرات الشخصية

الاجتماعية في مراحل تطور الرأسمالية المختلفة. ويرى أن الظروف التاريخية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحمل في طياتها اتجاه «التخرين الاحتكاري» لدى الناس، وتظهر الجوانب الإيجابية لهذا الاتجاه في الاهتمام بالحقائق، والتحفظ، والحذر واليقظة، والإصرار والجلد، وحسن التنظيم، والدقة المتناهية مثل نسيج الحرير. أما الجوانب السلبية فتظهر في: البخل، والارتياب، والفتور، والقلق والاضطراب العميق، والاعتداد بالنفس، والغوص في الأوهام، والطمع الذي لا يعرف الشبع وغيرها. ويعتقد فرومن أن الأحوال شهدت تغييرا كبيرا منذ تطور الرأسمالية حتى القرن العشرين. وفي هذه المرحلة حل اتجاه «السوق» محل اتجاه «التخزين الاحتكاري». وما يطلق عليه اتجاه «السوق» يشير إلى أن الناس يعتبرون أنفسهم سلعا للعرض والبيع، وتستند وجهة نظرهم الذاتية إلى القيم على البيع الذاتي لتلك السلع، وهل يستطيعون الحصول على أكبر قدر من الثروة، وهل هم ناجحون في النهاية أو لا. كما يعتقد فرومن أن تلك الشخصية جسدت الملامح العصرية للرأسمالية في القرن العشرين.

ويوضح ذلك أن الناس يواجهون مشكلة «إعادة تشكيل الشخصية» في ظل أوضاع التحول الثقافي واسع النطاق، وما يعرف بـ «إعادة تشكيل الشخصية» هو عملية تغيير الشخصية التي تتعرض لعدم التوازن ويتفكك هيكلها نتيجة التغييرات التي تطرأ على ظروف الحياة وتصبح شخصية منسجمة تستطيع التوافق مع البيئة الثقافية الجديدة. ويتقبل الناس في هذه العملية اتجاه التحول الثقافي وهدفه ويدركونهما ويتأكدون منهما، ويؤيدون النموذج والمقياس الجديدين ويوافقون عليهما، ويعدلون مفاهيم القيم الذاتية، بل حتى يعيدون النظر ويغيرون أسلوب تفكيرهم وحياتهم ونموذج سلوكهم، وينبذون بعض الأساليب والعادات ونموذج السلوك القديم، ويجعلون سلوكهم النفسي واتجاه شخصيتهم يتوافق مع البيئة الثقافية الجديدة ويتناسب معها.

واجتاز الصينيون المعاصرون تغيير الأوضاع الثقافية التقليدية إلى الأوضاع الثقافية لـ «نموذج الانتقال» ذوي الهيكل الثنائي. إن «نموذج الانتقال» الثقافي في جوهره هو عملية التحول والتغيير من الثقافة التقليدية إلى الثقافة الحديثة. ومن ثم، يعد تغيير الصينيين بمنزلة اتجاه التحول من

«التقليديين» إلى «المعاصرين» بصورة أساسية. ولكن، عملية «الانتقال» في حد ذاتها أصبحت «الأوضاع» الحالية للصينيين. وفي عبارة أخرى، وعلى الرغم من أن تشكيل الثقافة الصينية الحديثة يتصف بالطبيعة الانتقالية ذات «الهيكل الثنائي»، وجسد ملامح الصفات المتباينة والتنوع وعدم التوازن، لكنه يعتبر تشكيلا ثقافيا موحدا ويكون الخلفية الكاملة لحياة الناس. وتعتبر التعددية والصفات الثقافية المتباينة والهيكل الثنائي والانتقالية بمنزلة «عالم حياة الناس» و«الخلفية الثقافية» اللذين يتعايشان معا. ويعد ذلك بمنزلة الظروف البيئية ومسرح أنشطة حياة الصينيين. إن توافق الهيكل السيكولوجي للناس ونموذج سلوكهم مع الثقافة الاجتماعية يتطلب مسايرة مثل ذلك الانتقال الثقافي. إن نشأة الناس وتطورهم يجب أن يتم في البيئة الثقافية لذلك الانتقال. ومن ناحية أخرى، إن التحول الثقافي إلى التحديث هو عملية تاريخية تحتاج إلى وقت طويل جدا، كما يحتاج التغيير والانتقال من الثقافة الاجتماعية التقليدية إلى الثقافة الاجتماعية الحديثة إلى وقت طويل جدا، واجتياز الطرق الطويلة، بل حتى يحتاج إلى عدة أجيال. لقد مر قرن ونصف قرن على التحول إلى التحديث الصيني وذلك اعتبارا من حرب الأفيون عام 1840. ونرى الصينيين مازالوا قابعين في عملية «الانتقال» و«التحول» حتى اليوم. وحسب تقديرنا الذي طرحناه آنفا، تحتاج مرحلة الانتقال في الصين إلى نحو مائتي عاما. إذن، الإنسان الصيني الذي يولد في هذه المرحلة يواجه منذ البداية البيئة الثقافية لذلك الانتقال، كما يواجه مثل «عالم الحياة» الذي يتسم بالصفات المتباينة والتعددية. ويعد كل ما يتقبله من «التعميم» و«تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية» بمنزلة «التعميم» و«تكييف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية» اللذين قامت تلك البيئة الثقافية بمنحهما له. ولذا تحمل ملامح شخصيته واتجاهاته الصفات الواضحة لذلك التكوين الثقافي. وعلى الرغم من أن التكوين الثقافي الصيني الحديث، الذي يعتبر خلفية حياة الصينيين المعاصرين، يتحلى بـ «الهيكل الثنائي» و«الانتقالية» و«الصفات المتباينة» و«التعددية»، فإنه يضطلع بوظيفة المقاييس التي ترسم الصورة النموذجية للإنسان الصيني، وتشكل «الشخصية الاجتماعية» للصينيين المعاصرين، وذلك من خلال الشكل الخاص الذاتي لذلك التكوين الثقافي ومضمونه.

وتعد البيئة الثقافية بوصفها خلفية حياة الصينيين المعاصرين نوعا من «نموذج الانتقال» الثقافي. وفي تلك الظروف الثقافية لم تحقق الثقافة التقليدية أو الثقافة الحديثة الوحدة الكاملة للحياة الاجتماعية، ولذا ظهرت أوضاع وجود المظاهر الثقافية المتعددة. إن مثل تلك الأحوال كان لها تأثير خاص في الصينيين. ومما لا شك فيه أن الثقافة التقليدية مازالت تؤثر في الصينيين تأثيرا كبيرا حتى الآن. وقد تغلغلت وتراكمت مبادى* قيمها الرئيسية وفكرها الثقافي في الهيكل النفسي العميق لدى الصينيين، وأصبح ذلك نوعا من «اللاشعور الجماعي» الذي مازال يحدد مستوى الصينيين ويقيدهم ويؤثر فيهم. كما يوجد الكثير من مخلفات الثقافة التقليدية في الآداب والفنون، ومتطلبات الحياة، والعادات الشعبية والمشاعر الغرامية وغيرها من الجوانب الأخرى التي تمنح الصينيين الانطباع الجيد الذي يؤثر في سلوكهم أو في تفكيرهم بطريقة غير مباشرة. ولكن، لا نستطيع أن نبالغ في تقييم أثر الثقافة التقليدية في الصينيين. وإلا فلا نستطيع تفسير المغزى المهم للتحول إلى التحديث في أكثر من مائة سنة وقيام القرن العشرين بإعادة رسم صورتهم النموذجية. وفي هذا الخصوص، توجد نقطتان تحتاجان إلى توضيح: النقطة الأولى هي: لقد تفتتت أوصال صرح نظام الثقافة التقليدية وانهار بعد أن تعرض لهجوم حركة التحديث، ولم يعد يتبوأ المكانة الرئيسية. وفي مرحلة «4 مايو» 1919، وبعد عام 1949، تعرضت الثقافة الصينية التقليدية التي كانت تتمحور على المذهب الكونفوشيوسي للنقد الهدام والتطهير لمرات عديدة على المستوى الاجتماعي المفتوح لدى الصينيين. وما تبقى في الحياة الواقعية ليس الملامح الأصلية لصرح نظام الثقافة التقليدية، بل مجرد البقايا المتبقية من الطوب والقرميد المفتت بعد انهيار ذلك الصرح. والنقطة الثانية هي: أنه بعد «الإطاحة بدار كونفوشيوس» في مرحلة «4 مايو» 1919، ظهرت عدة أجيال لم تتقبل تعلم الثقافة التقليدية في النظام التربوي بصورة كاملة، وهناك الكثيرون الذين يعد فهمهم للثقافة التقليدية مجرد معرفة سطحية وضحلة، بل حتى إنه «العمى الثقافي التقليدي». وتوضح جوانب هاتين النقطتين أن الثقافة التقليدية في الحياة الاجتماعية الواقعية الصينية لم تضطلع بالوظيفة الثقافية العادية والكاملة كما كان في الماضي، وتشهد سلسلة من التشوهات

الشكلية والتحريفات في ظل قمع الهيكل الثقافي السطحي، وتلعب دورها بصورة كامنة ومكبوتة. وعلى هذا النحو، تعرض الصينيون التقليديون والصينيون المعاصرون لتأثيرات الثقافة التقليدية وقيودها التي تختلف صفاتها ومستوياتها اختلافا كاملا، وأصبحت الثقافة التقليدية بالنسبة لهم تتسم بالمغزى المختلف تماما.

ومن ناحية أخرى، وانطلاقا من منظور الثقافة الحديثة، فإن أهداف قيم الثقافة الحديثة تحدد الاتجاه الرئيسي للصينيين المعاصرين بلا شك. لقد قامت المسيرة التاريخية للتحول إلى التحديث بنشر فكرها الثقافي ومفاهيم قيمها على نطاق واسع والتي يتقبلها الناس ويؤيدونها ويوافقون عليها رويدا رويدا. وبدأ الصينيون المعاصرون تعديل تكوين مفاهيمهم وأسلوب حياتهم ونموذج سلوكهم حسب هدف القيم والتصميم الثقافي الذي حدده التحديث. ولكن، تحدد الثقافة الحديثة، باعتبارها التكوين الثقافي المستقبلي، اتجاه الناس إلى حد ما. ومازال كل شيء في عملية التكوين ويبحث الناس عنه ويستكشفونه. وفي الظروف المحددة كيف يكون الحكم على التفكير والأنشطة والأشياء بأنها «عصرية» على وجه التحقيق، فإن ذلك مازال مبهما. بالإضافة إلى أن قبول الناس للثقافة الحديثة والموافقةعليها وتأييدها مازال سطحيا في أكثر الأحيان، إنه القبول والتأييد والموافقة داخل الهيكل الثقافي السطحي، أما الفهم العميق لمحتوى فكر تلك الثقافة ومغزى قيمها مازال في نطاق ضيق في الوقت الحاضر، ويحتاج إلى فترة طويلة جدا. ولذلك، لا نستطيع أن نبالغ في تقييم أهمية الثقافة الحديثة في نشأة الصينيين المعاصرين وإعدادهم. وفي عملية التحول إلى التحديث يفهم الصينيون التحديث ويتقبلونه بصورة تدريجية من الضحالة إلى العمق، ومن المظهر السطحي إلى المظهر العميق.

وعلى هذا النحو، إن تأثيرات الظروف الاجتماعية والثقافية في الصين الحديثة مميزة جدا. وحددت تلك الظروف أوضاع أنشطة الناس، ولكن فيما يبدو أن تلك الأنشطة ليست واضحة، وتستند إلى «مغزى القيم». ولكن ذلك النوع من «مغزى القيم» مازال مبهما أيضا. ويستطيع الناس في ضوء «الهيكل الثنائي» اختيار مقياس قيمهم الذاتية التي تستطيع أن تظفر بـ «التأييد الثقافي» بصورة محددة، ولكنها ليست كاملة أيضا. وقدمت مثل

تلك الأحوال «الإمكانية» الكبيرة للتطور الذاتي والمحدد لدى الصينيين. وتعد «مقاومة» الناس لتلك الإمكانية أو «استجابتهم» أو «قبولهم» لها بمنزلة نوع من الاختيار الممكن. وبعض الأفراد يؤيدون النموذج الثقافي الحديث والجديد ويوافقون عليه بوعي، ويظهرون البحث الجاد عن قيم الثقافة الجديدة، ويعد ذلك نوعا من الاختيار. كما أن هناك بعض الأفراد الذين يؤيدون نموذج الثقافة التقليدية القديمة ويوافقون عليه بوعي، ويظهرون الحنين والعودة إلى قيم الثقافة القديمة، ويعد ذلك نوعا آخر من الاختيار. وبعض الأفراد لديهم الحنين إلى الثقافة التقليدية، ويسعون بصورة جادة وراء الثقافة الحديثة أيضاً، ولذلك يتقبلون الأشياء الثقافية الحديثة في بعض الجوانب، ويتزمتون بالأشياء التقليدية في بعض الجوانب الأخرى، ويجسدون الشخصية المزدوجة. ويعد ذلك اختيارا ثالثا أيضا. ومن ثم، يظهر التنوع وعدم التوازن في ملامح الشخصية الاجتماعية للصينيين المعاصرين.

وفي حركة التحديث الصيني، قدمت أوضاع الحياة التي شهدت التغيير المقاييس الجديدة والمتطلبات الجديدة للصينيين، كما قدمت المضمون الجديد والمغزى الجديد لأنشطة الصينيين في الحياة. وفي الوقت نفسه، غيرت تلك الأوضاع أسلوب التعلم الثقافي أو شكله لدى الصينيين. إن إمكان التعلم هو أهم صفات البشرية. وحقق الصينيون في التحول إلى التحديث إمكان التغيير الذي يمكنهم من قبول تعلم البيئة الثقافية الجديدة وقبول المقاييس والمفاهيم التي قدمتها تلك البيئة وقامت الثقافة الاجتماعية بتعليم البشر ورسمت صورتهم النموذجية من خلال اجتياز طريق «التعميم» أو «تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية». ويعد «التعميم» و«تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية» بمنزلة مفهومين يشيران إلى انتشار الثقافة الاجتماعية داخل الإنسان والالتزام بمسألة الاستمرار المؤثر لتلك الثقافة. ولكن يستخدم مفهوم «تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية» على نطاق واسع نسبيا وقدم فرومن التعريف التالي لتكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية: «إن تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية يرشد أفراد المجتمع إلى إنجاز الأعمال الضرورية التي يأملون منها أن تؤدي إلى الاستمرار الاجتماعي العادي». كما أن تكيف الحاجات وفقا للأوضاع

الاجتماعية هو: «الوسيلة التي تستطيع أن تجعل المجتمع والثقافة يستمران»[2].

ويعد تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية بمنزلة عملية تحول الإنسان الطبيعي إلى الإنسان الاجتماعي الذي يستطيع أن يتوافق مع الثقافة الاجتماعية المحددة، ويشارك في الأنشطة الاجتماعية، ويقوم بدور السلوك المحدد. إن مفهوم «تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية» يساعد على تفسير كيفية تعليم الناس الاشتراك في أسلوب الأنشطة الاجتماعية، وكيف يجعل المجتمع أفراده يساهمون في العمل الاجتماعي الجيد لتلك الأنشطة. ومن ثم يكون هدف تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية هو جعل مجموعة معينة من أفراد المجتمع تتوصل فيما بينها إلى نوع ما من التوافق، بمعنى أن تتخذ تلك المجموعة -حسب المقاييس المتشابهة- الوسائل التي تحقق التوافق الاجتماعي في أثناء سعيها وراء أهدافها الذاتية وتحقق هدف التكيف الاجتماعي، ويضطلع تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية بمهمتين هما: الأولى، أن تجعل الإنسان يعرف الآمال التي يعقدها المجتمع أو مجموعة من الأفراد عليه، وتحدد بعض معايير السلوك. أما المهمة الثانية، فتجعل الإنسان يتسم بالشروط التي تحقق تلك الآمال بصورة تدريجية، ويعتمد على معايير سلوك المجتمع أو المجموعة بصورة واعية لتوجيه سلوكه الذاتي وتقييده. ويتقبل الإنسان في المجتمع مقاييسه الثقافية لأنه تلقى التعليم ونشأ وسط تلك المقاييس، وتعتقد عالمة الاجتماع النفسي الروسية أندريفا Andreyiva أن تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية هو عملية ذات جانبين. يشمل الجانب الأول لتلك العملية استيعاب الإنسان الخبرة الاجتماعية الثقافية من خلال انضمامه إلى البيئة الاجتماعية الثقافية ونظام العلاقات الاجتماعية. أما الجانب الآخر فيتضمن تجسيد نظام العلاقات الاجتماعية بصورة إيجابية من خلال الأنشطة الإيجابية للإنسان واندماجه الإيجابي في البيئة الاجتماعية الثقافية. وفي عبارة أخرى، أن الإنسان لا يستوعب الخبرة الاجتماعية الثقافية فحسب، بل يغير تلك الخبرة وتصبح قيمه الذاتية ووجهة نظره ورأيه. إن محور عملية تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية هو عملية قيام الإنسان بـ«التعميم الداخلي» للثقافة الاجتماعية.

إن الثقافة الاجتماعية تفرض نفوذها على الإنسان وتمارس «تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية» من خلال العديد من الوسائل التي تشتمل على الأسرة والمدرسة والتجمعات السكانية والمجموعات البشرية التي تنتمي إلى جيل واحد، والجماعات المهنية ووسائل النشر الجماهيرية وغيرها. وفي المجتمع الصيني التقليدي تضطلع الأسرة بالوظيفة الكبرى في «تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية». وبسبب أن الأسرة هي الساحة الرئيسية لأنشطة الصينيين التقليديين، ولذلك يقوم الإنسان الصيني بدراسة الثقافة الاجتماعية داخل نطاق الأسرة بصورة أساسية. وفي التحول إلى التحديث شهدت وسائل تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية وتكوينها لدى الصينيين تغييرات مهمة نتيجة الضعف الذي أصاب وظائف الأسرة. ولعبت المدرسة والتجمعات البشرية التي تنتمي إلى جيل واحد والجماعات المهنية ووسائل النشر الجماهيرية دورا تتزايد أهميته أكثر فأكثر، ولاسيما تنوع وتطور وسائل النشر الجماهيرية التي تستخدم الأجهزة التكنولوجية المتقدمة لعب دورا مهما إلى حد كبير في حياة الصينيين. ومجمل القول، أن في مرحلة الانتقال من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، ومع تغييرات الهيكل الاجتماعي والظروف الثقافية، شهدت ممارسة تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية لدى الصينيين الكثير من التغييرات المحددة التي تشتمل على تحول طرق تكييف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية من الأحادية إلى التنوع، وتغيير أوضاعه من الانغلاق إلى الانفتاح، ومضمونه من البساطة إلى التعقيد. وقامت تلك التغييرات بتعديل أسلوب قبول الصينيين لتعلم الثقافة الاجتماعية، وأثرت أيضا في قبولهم لمضمون الثقافة الاجتماعية ومغزاها.

لقد شهد الصينيون سلسلة من التغييرات في التحول إلى التحديث الصيني. ونقول بصفة عامة، إن هذه التغييرات تتناسب مع البيئة الثقافية الاجتماعية في الصين الحديثة (بالطبع هناك بعض الأحوال التي لا تتناسب ولا تتوافق معها). إن الشخصية الاجتماعية للصينيين المعاصرين تتوافق مع «نموذج الانتقال» الثقافي الاجتماعي. وتتطابق تحولات الصينيين المعاصرين مع اتجاه تحولات الثقافة الاجتماعية. إن عملية التحديث هي عملية دراسة الناس للثقافة أيضا. والناس في هذه العملية يدركون نموذج

تحديث الثقافة ويتقبلونه تدريجيا، ويعتبرون المثل العليا للقيم الثقافية الحديثة أساس أنشطتهم ومركز قوتهم. وفي عبارة أخرى، ينتقل الصينيون من «التقليديين» إلى «المعاصرين» في الوقت الحاضر. وقد قطع «الصينيون» شوطا طويلا في مسيرة ذلك الانتقال، ولكن مازالوا يواجهون الطريق الطويل نفسه. إن الصينيين هم «الانتقاليون» الذين يسيرون على طريق «الانتقال» الكبير.

الهوامش

(1) إلكس إنكلز، «تحديث الإنسان»، دار الشعب للنشر في سيتشوان، طبعة عام 1985، ص105.
(2) فرومن، «علم تحليل فكر الشخصية ودورها في التفاهم الثقافي»، انظر هوانغ يوي فو «الإنسان والمجتمع ـ مسألة تكيف الحاجات وفقا للأوضاع الاجتماعية في أمريكا»، دار الشعب للنشر في مقاطعة لياو لينغ، طبعة عام 1986، ص 5.

4 «الانتقاليون»: تحديد مفهوم الصينيين المعاصرين

نستطيع إيجاز صفات «هيكل الشخصية الرئيسي» أو «الشخصية الاجتماعية» لدى الصينيين المعاصرين في مفهوم «الانتقاليين» الذين يتوافقون مع «نموذج» انتقال الثقافة الصينية الحديثة. وما يسمى بـ «الانتقاليين» يشير إلى الذين يعيشون في مرحلة التطور الاجتماعي بين المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث، ولديهم خليط من الصفات القديمة والجديدة ونظام القيم المزدوجة. ويعني ذلك أنهم ليسوا «تقليديين» أو «معاصرين» بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنهم في الوقت نفسه يتحلون ببعض الصفات الثقافية النفسية وخصائص شخصية التقليديين والمعاصرين.

والتحديث في أي دولة يمر بمشكلة الانتقال والتحول من المجتمع التقليدي والثقافة التقليدية إلى المجتمع الحديث والثقافة الحديثة. ولذا يظهر فيها «الانتقاليون» أيضا. وفي عملية التحديث يتسم «الانتقاليون» بنموذج الشخصية ذوي الانتشار الواسع، ويختلف الموضوع المحدد لـ «الانتقاليين» في الأمم والشعوب المختلفة. وهناك الكثيرون الذين

أجروا دراسات حول مسألة «الانتقال» في دراسة نظرية التحديث. على سبيل المثال، صنف عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي ليسمان Davey Leesman الاختلافات بين نماذج الشخصيات ذات التكوين الاجتماعي المختلف إلى ثلاثة أنواع هي: «الاتجاه التقليدي» و«الاتجاه الداخلي» و«الاتجاه الآخر». ومعيار سلوك الإنسان في «الاتجاه التقليدي» العادات الشعبية التقليدية، وفي «الاتجاه الآخر» مستوى الجماعة التي تنتمي إلى جيل واحد، والشخصية ذات «الاتجاه الداخلي» تنبثق من داخل التقاليد تدريجيا ولا ترى ضرورة ملحة أن تفكر في هجران القديم كلما رأت جديدا عندما تتصل بالجماعات الأخرى. وتعد هذه الشخصية بمنزلة «الانتقالي». والجوانب الإيجابية في سيكولوجية «الانتقالي» هي المشاعر المتغيرة إزاء الأشياء الجديدة، أما الجوانب السلبية تتجلى في مشاعر المقاومة لتلك الأشياء. وأشار عالم الاجتماع لرمز Daniel Lerner إلى أن تحديث المجتمع هو مسألة «سيكولوجية»، وتغيير صفات الشخصية هي الخطوة الأولى للتحديث. وبدأ الإنسان في المجتمع التقليدي تحت تأثير الثقافة الأجنبية في الاتصال بالأفكار الجديدة، والمفاهيم الجديدة، وأسلوب الحياة الجديدة، وبدأت آفاقه الفكرية في الاتساع. كما بدأ يكن الارتياب وعدم الثقة في الأشياء الأصلية، بل حتى يحاول التخلص من التطلعات والمتطلبات بكل قوة. ثم نجم عن ذلك نوعان من البشر: «العمدة» و«البقال». ويشير النوع الأول إلى «التقليديين» المحافظين، والنوع الثاني يشير إلى البشر الذين لم يصبحوا «تقليديين»، بل هم «الانتقاليون». ويكتظ «الانتقاليون» بالأوهام والخيالات والبحث عن الغرائب، ولكن يتعرضون عادة لـ «ظروف القيم الصعبة»، لأن من المؤكد في مسيرة التقدم نحو التحديث يواجهون الاختيارات وتأييد الصالح ونبذ الطالح. لقد تلاشى «الماضي» العظيم و«الأمس» المشرق، ويعد ذلك أمرا لا يطاق في الجانب السيكولوجي والمشاعر والأحاسيس لديهم. ولكن اضطروا إلى دفع الثمن من أجل «المستقبل» و«الغد». وعلى هذا النحو، يشعر «الانتقاليون» عادة بالحزن والكآبة والهم، وتظهر خصائصهم التناقض والانشقاق، ولكن يمثلون اتجاه التطور أيضا، وأشار دانيل إلى أنه:

«يكمن الاختلاف بين الانتقالي والتقليدي في اتجاههما، وفي اختلاف تكوين سلوكهما الكامن، إن اتجاه الانتقالي يحث على تبادل المشاعر، ويستطيع

أن يرى الأشياء التي لا يراها الآخرون، ويعيش في عالم الحياة الذي يعجز التقليديون عن المشاركة فيه»[1].

وفي مرحلة انتقال المجتمع الصيني الحديث، يعد «الانتقالي» نموذجا للشخصية ذائعة الانتشار نسبيا. ومن أبرز خصائص ذلك النوع من «الانتقالي» التقدم بخطوات واسعة نحو الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة (أو «آلهيكل الثنائي» للثقافة) من تلقاء ذاته، ويتقبل بدرجات مختلفة وجهة النظر إلى القيم والمفاهيم في هاتين الثقافتين، وتخلصت إحدى قدميه من «التقاليد» توا، بينما تطأ القدم الأخرى «التحديث» حالا، وهناك العديد من الروابط والأسباب التي تربط الانتقالي بالثقافة التقليدية الذي يتحلى بالاشتياق اللانهائي الممزوج من الحنين والاحترام للثقافة الحديثة. وبسبب أن الثقافة الصينية الحديثة ترتبط ارتباطا وثيقا بالصدام بين الثقافة الصينية والثقافة الغربية، لذلك يتسم الصينيون «الانتقاليون» بالخصائص الثقافية لـ «الحدوديين». ويحتفظ «الانتقالي» داخل ذاته ببعض أفكار الثقافة الصينية وموضوعاتها و«الميراث الثقافي». ولذلك هو «صيني» إلى الأدب وتقبل في الوقت نفسه الطبيعة الخاصة لعناصر «التدويل»، وعلى هذا النحو، خطى «الانتقالي» الصيني بنفسه خطوات واسعة نحو الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة، وقفز من تلقاء نفسه وثبا نحو الثقافة الصينية والثقافة الغربية. ولذلك تعكس أعماق نفسه التناقض الثقافي المتباين والمقاومة والتضارب الموجود داخلها، ويطبق «الانتقالي» مقاييس «القيم المزدوجة»، والالتزام بدوره الذي يضطلع به داخل الثقافتين يحدث الانشقاق والتعارض، بل إن «الانتقالي» ذاته يتحول ويؤدي دور الانشقاق والتضارب. ويشعر «الانتقالي» عادة بذلك النوع من الانشقاق والتعارض. إن الاتجاه داخل نظام القيم الجديدة يجعل «الانتقالي» يشعر عادة بأنه تجاوز تأثيرات العصر وآلامه، أما الحنين إلى نظام القيم القديمة فيعد في حد ذاته النبع الروحي الذي يشكل المقاومة التي تزيل الهيكل الثنائي. وعندما تلتقي القوة الجديدة والقديمة وجها لوجه، ربما يشعر «الانتقالي» بالقلق والحيرة والاضطراب النفسي، ولا يعرف أي الطرق يسلك، أو ربما يفقد الثقة في القيم الثنائية في الوقت نفسه، ويشعر بالافتقار إلى السند والتبعية والانتماء، ويتسبب ذلك في فقدان التوازن النفسي لديه.

ومن الخصائص الأخرى المهمة لـ «الانتقالي» أنه يتسم بملامح شخصية «التقليديين» و«المعاصرين». ويعد ذلك نوعا من الصفات المزدوجة، وفي مرحلة التحول إلى التحديث، حافظ الصينيون على بعض مزايا وخصائص «التقليديين» من ناحية، وعززوا مميزات «المعاصرين» من ناحية أخرى. كما يعتقد العالم التايواني يانغ قوي تشي أنه نتيجةتحول المجتمع الصيني فمن المؤكد أن تبرز للعيان ظاهرة التناقض التي تتناسب مع «سمات النفوذ والسلطة» في الاقتصاد الزراعي التقليدي وتتوافق مع «مميزات التمتع بالحقوق المتساوية» داخل الهيكل الاقتصادي والاجتماعي الحديث[2]. وفي حركة التحديث، شكل الصينيون العديد من خصائص الشخصية الجديدة من ناحية، وظلوا يحتفظون بالكثير من خصائص الشخصية القديمة من ناحية أخرى. وذلك يعني أن الناس يتحلون بخصائص الشخصيتين القديمة والجديدة في آن واحد، ولذلك يظهر في الحياة اليومية العادية ظاهرة التناقضات المتعددة في سلوك الناس. وعلى هذا النحو، يصبح «الانتقالي» نوعا من البشر لا ينتمي إلى الشخصية القديمة أو الجديدة. وقياسا إلى وجهة نظر الثقافة التقليدية، لا يعتبر ذلك الانتقالي «تقليديا» لأنه ابتعد عن تطلعات الثقافة التقليدية، وقياسا إلى وجه نظر الثقافة الحديثة، لا يعتبر «عصريا» أيضا. وذلك لأنه مازال لديه الكثير من خصائص «التقليديين» السيكولوجية وطريقة سلوكهم. ولكن «الشخصية المزدوجة» لدى الانتقالي ربما تندمج في هاتين الثقافتين، ويصبح الانتقالي إنسانا يتمتع بقوة الإبداع، وربما يصبح جوهر الاستقبال الثنائي للثقافتين، ويعزز الربط والاندماج بينهما بصورة أكبر ويصبح مالك هاتين الثقافتين أيضا.

إن الصفة الرئيسية لـ «الانتقالي» تعد نوعا من نماذج الانتقال للشخصية، ورمزا لتحول الشخصية الاجتماعية. ويمكن أن يكشف «الانتقالي» النقاب عن بعض معلومات انتقال الصينيين وتحولهم من «التقليديين» إلى «المعاصرين». أو نقول إن «الانتقالي» يظهر ملامح الشخصية واتجاهها، ويجسد عملية التحول إلى تحديث الثقافة التي جعلت الصينيين يشهدون التحولات، كما يجسد الانتقالي أيضا التحول من «التقليديين» إلى «المعاصرين». ويعد ذلك «التحول» و«الانتقال» بمنزلة الاتجاه المتشابه لـ «التحول» و«الانتقال» من الثقافة الاجتماعية التقليدية إلى الثقافة الاجتماعية

الحديثة.

وحسب التلخيصات التي جاءت في دراسات الباحثين، فإن عملية التحول إلى تحديث الثقافة جعلت الصينيين يشهدون التحولات في بعض الجوانب التالية التي تعكس ما نعتبره اتجاهات تطور الصينيين الانتقاليين:

1- اتجاه الضعف التدريجي في الاهتمام بانطباعات الآخرين السيئة أو الجيدة، واتجاه القوة التدريجية في احترام الإحساس الذاتي والرأي الذاتي.

2- اتجاه الضعف التدريجي في التردد والتواضع وطاعة الآخرين، واتجاه القوة التدريجية في المبادرة الذاتية والاستقلال والسيطرة على الآخرين.

3- الضعف التدريجي في أسلوب السلطة (الحفاظ الشديد على العادات والتقاليد، القبول الأعمى للسلطة، الإيمان بالقضاء والقدر، حب التمييز بين الصالح والطالح، الافتقار إلى قوة التخيل، والخضوع للسلطة ونفوذها، سهولة اتخاذ موقف العداء من الآخرين والشك فيهم)، والقوة التدريجية في طريقة التمتع بالحقوق المتساوية المناوئة لأسلوب السلطة.

4- الضعف التدريجي في الأفكار التي ترى أن العوامل الخارجية (مثل القضاء والقدر، الفرص المواتية، الوشائج الاجتماعية، تنظيم السلطة ونفوذها) هي التي تقرر سعادة الإنسان وتعاسته في الحياة. والقوة التدريجية للأفكار التي ترى أن العوامل الداخلية (مثل القدرة الذاتية، الجهود المضنية وغيرها من الأحوال الذاتية) هي التي تقرر سعادة الإنسان وتعاسته في الحياة أيضا.

5- شهدت العلاقة بين الإنسان والطبيعة الضعف التدريجي في مفهوم الاعتقاد بأن «الإنسان يجب عليه الانصياع للطبيعة»، والقوة التدريجية في مفهوم الاعتقاد بأن «الإنسان يجب عليه السيطرة على الطبيعة».

6- شهدت العلاقة بين البشر الصينيين الضعف التدريجي في مستوي العلاقات الإنسانية من حيث الاهتمام بمميزات الطبقات الاجتماعية، والقوة التدريجية في تأكيد علاقات الأفراد الذين ينتمون إلى جيل واحد والعامل الذاتي.

7- شهد مفهوم الزمن النقص التدريجي في الاهتمام بالماضي، والزيادة التدريجية في الاهتمام بالحاضر والمستقبل.

8- شهدت قيم الحياة النقص التدريجي في الاهتمام بالتفكير الباطني

والتهذيب الذاتي، والزيادة التدريجية في الاهتمام بالإنجازات والأنشطة، كما زادت الاحتياجات النفسية لإحراز الإنجازات.

9- لم تعد الاعتقادات الذاتية المتباينة وآراء الآخرين ومفاهيم قيمهم تحتفظ بالأفكار المسبقة التي تصطبغ بنكهة المشاعر والعواطف، بل تتحلى بالتسامح والتساهل أو الاحترام.

10- الزيادة التدريجية في إمكان تغيير السلوك الفكري وتوافقه، وزيادة حب الإصلاح والأشياء الغربية بصورة تدريجية.

11- الضعف التدريجي في طبيعة كبت التراجع والخجل والظنون، والحذر والحساسية المفرطة، والقوة التدريجية في مميزات المرونة والحيوية، والإيجابية وذلاقة اللسان، والصراحة والطبيعة الإنسانية.

12- الزيادة الكبيرة في اتجاه لوم الآخرين والأشياء بعد التعرض للمصائب، والقوة التدريجية في اتجاه تأكيد منع حدوث الكوارث[2].

وندرك من خلال تلك الخصائص أن مسيرة التحديث التي استمرت أكثر من مائة سنة قد جعلت الهيكل النفسي للصينيين واتجاه شخصيتهم يشهد تغييرات كبيرة جدا. وألقت عملية التحول الصيني إلى تحديث الثقافة الضوء على جانب التحول في الشخصية الصينية ورسخت موضعها ومسقطها في العالم الفكري لأفراد المجتمع. كما تراكمت الإنجازات التاريخية للتحول إلى تحديث الثقافة داخل هيكلهم النفسي بصورة عميقة.

وجسدت دلائل التحول الواضحة لدى الصينيين المذكورة آنفا، ميول واتجاهات التقدم التدريجي في تطور الصينيين المعاصرين الذين نعتبرهم بمنزلة «الانتقاليين». وفي المقام الأول تحظى مكانة الإنسان الصيني وكرامته بالاهتمام المتزايد في ضوء تأثيرات التحديث، ويتمتع مفهوم الاهتمام بالإنسان واحترامه والذات الإنسانية أو الفكر الإنساني بالاتجاه القوي يوما بعد يوم. ويعني ذلك الاهتمام بقيم الإنسان الصيني، واحترام رغباته الكامنة وسعادته باستمرار. ثانيا، في جانب وجهة النظر إلى القيم، انتقل الصينيون من الاتجاه الاجتماعي إلى الاتجاه الذاتي تدريجيا، وأبدوا الاهتمام الضئيل النسبي إزاء تأكيد التقاليد على القيود الاجتماعية وأسلوب حياة التحكم الذاتي رويدا رويدا. كما اهتموا بتأكيد القيم والكرامة الذاتية، والإخلاص للمشاعر الذاتية، والعناية بالحقيقة الذاتية. ثالثا، كان من نتيجة

تعميق التحول إلى التحديث، تعزيز القدرة الملائمة للتحول، وتنشيط قوة التأثير والتحمل النفسي إزاء التغييرات التي تشهدها أوضاع الحياة الاجتماعية، والتأكد من ممارسة التعديل السيكولوجي بوعي، والتوافق مع اتجاه التغييرات.

إن اتجاه ونزعة التقدم التدريجي في تطوير «الانتقالي» تتناسب مع اتجاه التقدم التدريجي في تطوير الثقافة الاجتماعية. وتكمن خصائص «الانتقالي» الأساسية في صفاته «الانتقالية». إن «الانتقالي» يجمع بين خصائص شخصية «التقليديين» وشخصية «آلمعاصرين». ولكن خصائص هاتين الشخصيتين ليست متشابهة، وتتعايشان في سلام وانسجام، وتجتازان حالة التقدم والانحطاط معا، بمعنى أن خصائص شخصية «التقليديين» تضعف تدريجيا، وتنشط خصائص شخصية «المعاصرين» بالتدريج. وما يسمى بـ «الانتقال» هو عملية تحول «التقليديين» إلى المعاصرين. وقياسا إلى زاوية التقدم الثقافي، أن «الانتقالي» هو الذي يتقبل الثقافة الحديثة أيضا، ويأخذ بزمام المبادرة الذاتية في إجراء التجارب داخل العملية التاريخية لتحول الثقافة إلى التحديث. ولذا، ربما يصبح الانتقالي الوسيلة الأساسية للوحدة الثقافية الجديدة، والقوة الدافعة لتحديث الثقافة الاجتماعية. وكما ذكر دانيل إذا أصبح عدد كبير من البشر داخل مجتمع ما ينتمون إلى مجتمع «الانتقاليين»، فإن ذلك المجتمع يبدأ في التغيير من «التقاليد» إلى «العصرنة». وسوف يتحول الصينيون من «الانتقاليين» إلى «المعاصرين» نتيجة تعميق التحول إلى تحديث الثقافة الصينية واجتياز الثقافة الاجتماعية الصينية المرحلة الانتقالية والتحول من التكوين التقليدي إلى التكوين الحديث.

وقد ذكرت آنفا، أن التحديث الصيني وتغيير الثقافة الاجتماعية الصينية من التكوين التقليدي إلى التكوين الحديث يحتاجان إلى اجتياز الفترة الانتقالية الطويلة جدا، وإلى عدة أجيال. وتتسم تلك الأجيال بخصائص شخصية «الانتقاليين»، وفي الوقت نفسه، تظهر نزعة الانتقال من «التقاليد» إلى «العصرنة» بين الأجيال المتعاقبة. ويعني ذلك أن الجيل اللاحق يتميز عن الجيل السابق بأن لديه الكثير جدا من صفات شخصية «المعاصرين» والقليل جدا من صفات شخصية «التقليديين». ولذا يجسد الجيل اللاحق

الاختلاف بين الأجيال وتطورها. إن التناقض والتضارب بين الأجيال في جوهره يشكل عادة الصدام الذي يظهر في عملية انتقال الثقافة والشخصية. ولكن، لا يتمتع «الانتقالي» بـ «الشخصية المزدوجة» التي تجمع بين خصائص شخصية «التقليديين» وشخصية «المعاصرين» فحسب، بل إنه «إنسان» يمتلك الهيكل الكامل والمغزى الشامل وذلك لأنه يعتبر نوعا من النموذج الخاص للشخصية. وتظهر مثل تلك الخصائص الثنائية لدى الإنسان الانتقالي القائم بذاته ويعيش في المرحلة الانتقالية، وفي الوقت ذاته، يتسم مثل ذلك «الانتقالي» ببعض الصفات السيكولوجية والميول الشخصية التي تختلف عن «التقليديين» و«المعاصرين» أيضا. كما يعبر عن خصائصه الذاتية في جانب السيكولوجية الاجتماعية، ووجهة النظر إلى القيم، وطريقة التفكير، وأسلوب الأعمال وغيرها من الجوانب الأخرى. وذلك يجعل «الانتقالي» بمنزلة المرحلة التي تتسم بالمغزى المستقل في تطور الصينيين. وخلاصة القول، إن شخصية «الانتقالي» هي شخصية ذاتية تمتلك المغزى الكامل أيضا. إن الشخصيات الانتقالية هي الشكل الظاهري المختلف للوحدة الاجتماعية الكلية، ويتحلى الانتقالي بالقدرة على التوافق مع تلك الوحدة داخل نطاق هيكل الشخصيات المتشابهة، ولذلك يستطيع أن يتلاءم مع تغييرات الحياة الاجتماعية ويحقق الكمال الذاتي والتطور.

إن موضوعات الأبواب الستة التالية من هذا الكتاب تقدم تحليلا مفصلا ومناقشة لخصائص شخصية الصينيين، «الانتقاليين» في الجوانب المختلفة.

الهوامش

(1) اقتباس من «الأرض المتشردة ـ مسيرة التحديث الصيني في المائة سنة الأخيرة»، تأليف: لي آنمينغ،دار الشعب للنشر في خونان، طبعة عام 1988، ص 118.

(2) انظر يانغ قوي تشي، «ظاهرة تناقض شخصية الصينيين وسلوكهم في مسيرة التصنيع» [بالصينية].

(3) انظر المصدر رقم (1)، ص 150-151.

الباب الثاني

الروح المتشردة

لدى الصينيين المعاصرين

5 الهجرة الثقافية في الصين الحديثة

إن حركة التحديث جعلت الصين القديمة وتشهد، وإلى الآن، التغييرات الهائلة، وتتسم التغييرات الصينية في تحولات التحديث التي استمرت أكثر من مائة سنة، بالخصائص البارزة التالية:

أولا: تغيير الوحدة الكلية والهيكل. ويعني ذلك أن التغييرات التي مرت بها الصين في تحولات التحديث ليست جزئية ووحيدة الجانب، بل إنها شاملة وتتضمن الهيكل الاقتصادي، والنظام السياسي، والتنظيم الاجتماعي والأيديولوجية، وامتد تأثير تلك التغييرات إلى طريقة حياة الناس وأسلوب تفكيرهم وسلوكهم ومفاهيم قيمهم وغيرها من المجالات الأخرى. وفيما يبدو أن كل مجالات أنشطة البشرية تشهد التغيير الهائل.

ثانيا: إن تلك التغييرات سريعة جدا، ويعد ذلك من خصائص الدول المتأخرة في التطور، بمعنى أن تلك التغييرات تواجه في الوقت ذاته المشاكل المختلفة التي تعرضت لها الدول التي مارست التحديث في وقت مبكر نسبيا خلال الفترة

التاريخية الطويلة جدا. ويأمل الصينيون في فترة ليست طويلة أن يقطعوا مسيرة تلك الدول التي استمرت عدة مئات من السنين. ولذلك، تظهر تحولات التحديث في الصين حالة التغييرات العنيفة. إن آلاف التغييرات الاجتماعية في طرفة عين جعلت الناس يشعرون بالتشوش الذهني، ولذا يمكن أن يتأثروا بالتقلبات الاجتماعية المطردة في كل مكان.

ثالثا: إن تحولات التحديث الصيني جسدت المراحل التي شهدت الوثبات السريعة، وكأن الناس يعيشون فوق مسرح الدوران الذي يشهد التغييرات المسرحية بين وقت وآخر، ومازال الناس لا يدركون الوضع الثقافي فوق ذلك المسرح إدراكا كاملا، ولذلك يواجهون المسرح الجديد والأوضاع الجديدة مرة أخرى.

وظهرت خصائص التغييرات الصينية الحديثة بصورة بارزة وجلية في إصلاح وانفتاح عشر السنوات الأخير وأكثر بوجه خاص. وقبل ذلك، اجتاز الصينيون منذ فترة قصيرة فوضى «الثورة الثقافية» العارمة التي استمرت عشر سنوات، ولا مراء في أن «الثورة الثقافية» كارثة كبرى سببت التحطيم الكبير للتحديث الصيني. ويشعر السواد الأعظم من الصينيين، الذين يتوقون دائما إلى ممارسة البناء في البيئة السلمية، بالدهشة والذعر وعدم فهم الأوضاع والتوافق معها من جراء الافتقار إلى الاستعداد الفكري لظهور شيطان «الثورة الثقافية». ولكن، استمرت «الثورة الثقافية» بصورة محدودة مع بعض أفكار التوجيه والسياسة الاجتماعية التي ظهرت منذ عام 1957، ولا يشعر الناس بالغرابة تجاه ذلك بصفة خاصة، وعلى الرغم من أن الأنشطة الخاصة، وطريقة الحياة، وأسلوب التفكير، ومفاهيم القيم التي تشكلت أثناء «الثورة الثقافية» أظهرت الوجه «الثوري» المتطرف، ولكن يشتمل موضوعها الفكري على العودة إلى التقاليد إلى حد ما. ومن ثم حصلت على الموافقة والتأييد داخل هيكل الناس النفسي العميق. ولذلك، تورط عدد كبير من الأفراد في «الثورة الثقافية» واشتركوا فيها حسب إدراكهم. وشكلت «الثورة الثقافية» مسرح حياة الصينيين آنذاك، ولا توجد مشاعر التنافر والانفصال بين الفرد والخلفية داخل ذلك المسرح. ولكن، على كل حال، سببت تلك الثورة التحطيم المأساوي الهائل لبناء الصين وتطورها، والكارثة الكبرى للثقافة الصينية التي لم يسبق لها مثيل، والجرح النفسي

بالغ الألم للصينيين الذين يصممون على المضي قدما في التحديث. ولذلك، من البديهي أن تتعرض تلك الثورة للنقد الكامل، ويرتبط الإصلاح والانفتاح بالنقد الشامل لـ «الثورة الثقافية»ن الذي يجعل الإصلاح والانفتاح يسيران بخطوات قوية، ويدفع تقدم حركة التحديث الصيني إلى الأمام.

ويعد النقد الشامل لـ «الثورة الثقافية» وتطبيق الإصلاح والانفتاح تغييرا كبيرا في مسرح حياة الصينيين للمرة الثانية. إن الإصلاح والانفتاح تغيير «هائل» وشامل في المجتمع الصيني، وفي الإصلاح والانفتاح يضطلع النظام الاقتصادي، والنظام السياسي، والتنظيم الاجتماعي في المجتمع بالإصلاح العميق، وتشهد طريقة حياة الناس وأسلوب أنشطتهم الإصلاح الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ. كما يشهد الفكر الثقافي ومفاهيم القيم وأسلوب التفكير التجربة القاسية وإعادة البناء أيضا. وقد رأينا التغييرات الهائلة في الحياة الاجتماعية الصينية بعد مرور أكثر من عشر سنوات من الإصلاح والانفتاح. وفي فترة قصيرة جدا، خرج الصينيون من «الثورة الثقافية» بسرعة، ويمارسون الإصلاح الاجتماعي واسع النطاق على هذا النحو، ويعد ذلك في حد ذاته معجزة.

إن الإصلاح والانفتاح شكلا مسرح الحياة الجديدة والبيئة الثقافية للصينيين المعاصرين. والأشياء التي شاهدها الذين خرجوا من «الثورة الثقافية» وواجهوها هي الأشياء الجديدة والغريبة داخل مسرح الحياة الجديدة والبيئة الثقافية. إن الصينيين لا يألفون ولا يدركون، بل حتى لا يعرفون نظام المسؤولية التعاقدي للإنتاج المشترك، ونظام إدارة السيطرة على النوعية، ونظام الأسهم وقانون الإفلاس، والاقتصاد التجاري وآلية السوق، ونظرية الدوران الدولي الكبير وإستراتيجية التنمية الساحلية، والمناطق الاقتصادية الخاصة والمؤسسات المشتركة، والآلات الحاسبة الإلكترونية، والتليفزيونات الملونة، والفيديو، وصالات الرقص والغناء الليلية، وامتحانات توفيل (TOFEL) الأمريكية، وجان بول سارتر وفريدريك نيتشه، والتحليل النفسي والاتجاه الأيديولوجي الثالث، وأوزاوا سيجي Ozawa Seiji[1]، ومارادونا وغير ذلك كثير ومتنوع، وخاصة الجيل الذي نشأ في ظل «الثورة الثقافية»، كان «تكيف حاجاته حسب الأوضاع الاجتماعية» وتعليمه وتكوين معرفته لا تتناسب تماما مع البيئة الجديدة والمسرح الجديد. ويبدو هذا

الجيل وكأنه مجموعة من «المهاجرين» الذين «قُذف» بهم في عالم غريب، وتعوزهم معرفة البيئة الجديدة، وتركوا العالم المألوف لديهم خلف ظهورهم ودخلوا في عالم غريب.

ولذلك، يعد الصينيون المعاصرون نوعا من «المهاجرين ثقافيا»[2]. وكما يعد «المهاجرون الثقافيون» في الصين الحديثة نوعا من الانتقال على الصعيد الزمني بصفة أساسية، إنه الانتقال من عصر ما والدخول في عصر جديد. ولكن، دخل هؤلاء المهاجرون الثقافيون العصر الجديد بالأجهزة الثقافية التي قدمها العصر السابق لهم، ولا تتناسب الأجهزة الثقافية الأولية مع البيئة الثقافية الجديدة إطلاقا، والمعارف والقيم التي درسها هؤلاء المهاجرون في العصر الجديد والبيئة الجديدة تحظى بشيء من الإعجاب، ولا يمكن أن تفسر التغييرات الهائلة في الحياة الواقعية. ويواجه هؤلاء المهاجرون الكثير من الأحوال الجديدة الغريبة، والأشياء الجديدة، والمشاكل الجديدة. ولا تستطيع الأجهزة الثقافية الأولية أن تقدم النموذج الثقافي الجاهز والملائم، والقدرة الثقافية النموذجية الجاهزة. كما لا تستطيع وجهة النظر إلى القيم في الثقافة الأولية أن تمنح الناس «المؤازرة الثقافية» القوية والدعم الفكري. وفي إيجاز، إن الأشياء المألوفة لديهم أكل عليها الدهر وشرب، والأشياء التي يواجهونها لا يعرفونها معرفة جيدة، وقد أصبح أسلوب عاداتهم غير مناسب، ومازالوا لم يتعودوا على الأسلوب الجديد للأوضاع الجديدة الملائمة، ويقومون بدراسة مسرح الحياة الجديدة، وأسلوب الأنشطة الجديدة، ودور المعايير الجديدة، ونظام القيم الجديدة والتكيف معها من جديد. ولكن تحتاج هذه الدراسة والتكيف إلى وقت طويل جدا، ولا سيما أن العوامل الثقافية الأصلية التي جاءوا بها نجم عنها دور إعاقة تلك الدراسة والتكيف، وجعلت التوافق الكامل في جانب السيكولوجية الثقافية أكثر صعوبة ومعاناة.

وهناك حالة خاصة لمشكلة «المهاجرين الثقافيين» في الصين الحديثة أيضا. وذكرنا آنفا أن حركة التحديث اجتازت مرحلة الانتقال الطويلة جدا، ويتسم الصينيون الذين عاشوا فيها بالخصائص العامة لـ «الانتقاليين». وتختلف صفات وخصائص «الانتقاليين» اختلافا كبيرا عن «التقليديين»، ولذا لا يتماشى الانتقاليون مع إمكان العودة الكاملة إلى المجتمع التقليدي

الذي لا يتلاءمون معه بصورة تامة، ومن ناحية أخرى، مازال هناك بون شاسع بين صفات وخصائص «الانتقاليين» و«المعاصرين»، ولذلك، بالمثل لا يتماشى «الانتقاليون» مع إمكان الدخول في مجتمع المثل العليا الحديثة توا، بل إنهم حتى يشعرون نحوه بالغرابة بصورة أكبر. ومنح المجتمع الحديث، باعتباره المثل العليا الثقافية للصينيين، الحياة الواقعية للتطلعات بعيدة المدى. ولكن، لا يستطيع أن يقدم للصينيين الذين عاشوا في العصر الحديث النموذج الثقافي المحدد الذي يتلاءم مع أحوال الحياة الواقعية، ويجسد كل شيء في المجتمع «الانتقالي» الحالي لدى الصينيين أوضاع التطور والحركة بسبب طبيعة الخصائص التي يتسم بها «الانتقال». ويشهد مسرح الحياة، الذي تلاءم معه الناس منذ وقت قصير، التغييرات الجديدة مرة أخرى ويحتاج الناس إلى إعادة التكيف معها من جديد.

ولذلك، تنتاب الصينيين المعاصرين «المشاعر العميقة للمشرد بلا مأوى» ولا يجدون في أي مكان «الوطن»[3] الأخير الذي يستقرون فيه ويقدم لهم المرسى في خضم الحياة.

ولا يتسم «المهاجرون الثقافيون» في الصين الحديثة بالانتقال الزمني المذكور آنفا فحسب، بل يتصفون بعدم التكيف الناجم عن الانتقال المكاني أيضا. ويعد ذلك بمنزلة المعنى الأصلي لكلمة «المهاجرين»، ويظهر عدم التكيف الناجم عن الانتقال المكاني في الأحوال التالية بصفة أساسية:

أولا: في عملية مدّيَنة الريف: حيث انتقل سكان الريف إلى المدينة (مثل فرق المقاولات، والخادمات الصغيرات، والنجارين الصغار، والأسواق الزراعية التجارية وغيرها) ويتقبل المزارعون عملية التكيف مع متطلبات أسلوب الحياة في المدينة.

ثانيا: تقسيم الفئات الاجتماعية والتنقل فيما بينها: يحتاج الناس إلى عملية تكيف عند التحول من فئة إلى فئة أخرى.

ثالثا: في المناطق الاقتصادية الخاصة، ومناطق التصدير والتصنيع، وأجهزة التجارة الخارجية، والمؤسسات المشتركة وغيرها: يحتاج الصينيون إلى عملية تكيف ودمج للعناصر الثقافية (مثل أسلوب الإدارة والإشراف، ونموذج السلوك، ومفاهيم القيم وغيرها) التي جلبها الأجانب. إن عمليات التكيف المذكورة آنفا كلها تدريجية، وتنتقل من عدم التوافق والتعود إلى

التكيف والتآلف رويدا رويدا. ويتولد عادة لدى الناس في عملية التكيف مشاعر وأحاسيس «الضيف الغريب في الأرض الغريبة» ويعد ذلك بمنزلة «مشاعر المهاجرين الثقافيين».

وتعد «مشاعر المهاجرين الثقافيين» نوعا من «مشاعر المشرد بلا مأوى» الذي يفتقر إلى «الاستقرار»، كما أنها تعد بمنزلة «مشاعر التشرد الفكري» التي ناءت عن الأساس الثقافي، ويتسم «التقليديون» في المجتمع الصيني التقليدي بمشاعر الاستقرار الإيجابية تجاه الثقافة التقليدية، وتستطيع الثقافة التقليدية أن تمنحهم «التأييد الثقافي» والركيزة الفكرية في نهاية المطاف، والثقافة التقليدية هي «الأسرة» الروحية التي يمكن أن يثق فيها التقليديون ويعتمدوا عليها، ولكن «الانتقاليين» في الحياة الاجتماعية الحديثة لا يمكنهم الحصول على مثل «مشاعر الاستقرار». وكما أشار عالم الاجتماع الأمريكي دانيل بيل Daniel Bell على هذا النحو:

«لم يعد الزمن والمكان يشكلان الإحداثيات التي يمكن أن يعتمد عليها المعاصرون بصورة مطمئنة، وكان أجدادنا الأوائل يتمتعون بالمقر الديني الدائم الذي منحهم الأساس الفكري، وذلك بصرف النظر عن سعيهم المتردد عن الاستقرار بعيدا عن ذلك المقر، والإنسان الذي يحطم ذلك الأساس لا يكون إلا متشردا ثقافيا بلا مأوى. إذن تكمن المشكلة في هل تستطيع الثقافة الحصول على قوة التجميع من جديد، إنها قوة التجميع التي تتسم بقوة التماسك والخبرة، وليست قوة التجميع ذات الشكليات لا أكثر»(4).

إن «الهجرة الثقافية» ظاهرة سيكولوجية اجتماعية بصفة أساسية، والسيكولوجية الاجتماعية هي فهم الإنسان وتأثيره المباشر في ممارسة أنشطته الاجتماعية الذاتية وارتباطه بالمجتمع وإصلاحه للبيئة الاجتماعية القائمة، وذلك بوصفه الركيزة الأساسية لممارسة الأنشطة الاجتماعية. كما تعد السيكولوجية الاجتماعية المرحلة الأولية التي تظهر فيها معرفة الإنسان بذاته ومشاعره وإرادته في عملية الممارسة الاجتماعية. إن الأحوال النفسية التي تسود في فترة ما وتتبوأ المكانة الرئيسية هي نتاج الأوضاع الثقافية لذلك العصر، وفي الوقت نفسه، تتغلغل تلك الأحوال في جميع المجالات الثقافية وتجعلها تظهر خصائص العصر في كل الأمكنة، وتعتبر السيكولوجية الاجتماعية الأساس الاقتصادي ووسيط العلاقة بين

البناء الفوقي وتكوين الإدراك، وتتسم بالتأثير المباشر في الثقافة بصورة أكبر، وعلى الرغم من أن الناس قد لا يستطيعون إدراك السيكولوجية الاجتماعية إدراكا صحيحا والتمكن منها ووصفها، وعلى الرغم من أن تلك السيكولوجية تتجاوز حدود المشاعر الذاتية وتظهر في منطقة اللاشعور واسعة النطاق، فإنها من المؤكد تعبر القنوات المتعددة وتتخلل كل أنواع الأنشطة الثقافية التي يمارسها الناس، وذلك من خلال التأثير في سلوكهم أو تفكيرهم بصورة خفية، وتشكل القوة المهيمنة الكامنة لأهدافهم وإرادتهم. ولذلك، ترتبط التغييرات في السيكولوجية الاجتماعية ارتباطا وثيقا بتحولات الحياة في المجتمع كله، ويمكن أن تتأثر معلومات تغيير العصر بصورة مباشرة بتطورات الأحوال النفسية الاجتماعية وتحولاتها.

وتتسم «الهجرة الثقافية» بالخصائص الأساسية التالية بوصفها نوعا من الأحوال النفسية الاجتماعية:

أولا: عكست الهجرة الثقافية ظاهرة «التخلف السيكولوجي» في تحولات التحديث الصيني، وكما ذكرنا آنفا أن تغييرات المجتمع الصيني واسعة النطاق ومترامية الأطراف، وسريعة ومطردة، وتبدو التغييرات الهائلة التي طرأت على الكثير من المجالات كأنها حدثت في آن واحد من ناحية، ومن ناحية أخرى، يفتقر الصينيون إلى الاستعداد النفسي والمعرفي الكافي تجاه تلك التغييرات المطردة وواسعة النطاق. ويشعر الناس عادة بالحيرة إزاء التغييرات الحالية، ويحتاجون إلى فترة يستطيعون خلالها فهم واستيعاب طبيعة التغييرات الاجتماعية الهائلة ومضمون ثقافتها. وجسد ذلك «النقص السيكولوجي المتجمد» إحدى التناقضات العميقة في الثقافة الصينية الحديثة: إن دفع مسيرة الإصلاح والتحديث إلى الأمام تحتم أولا تبديل السيكولوجية الثقافية لدى الناس، وتعزيز المزايا النفسية الاجتماعية وقوة قبول التغييرات الاجتماعية الهائلة. كما أن تبديل المزايا النفسية الثقافية وتعزيزها لدى الناس تحتم-في المقام الأول-تغيير البيئة الثقافية الاجتماعية. وعندما تظهر أمام الناس هاتان العمليتان، من خلال الأسلوب المتزامن ومع تقادم الزمن، يسببان التضارب النفسي والثقافي الحاد لديهم.

ثانيا: عكست ظاهرة «الهجرة الثقافية» تغيير السيكولوجية الاجتماعية من الهدوء إلى الاضطراب، وفي المجتمع التقليدي، ظهرت سيكولوجية

الصينيين الاجتماعية الهادئة والمستقرة. إن البيئة الاجتماعية المستقرة، ودور المعايير الثابت، ومكانة الفئات الاجتماعية جعلت الناس قانعين بالواقع ويتصفون بالانطواء والانسجام والهدوء. وفي فترة التحولات الاجتماعية الكبرى، قدمت التغييرات في مضمون الحياة والتنقل الاجتماعي للناس إمكان القيام بتغيير مكانتهم الاجتماعية وأحوالهم الحياتية، مما جعل سيكولوجية الصينيين تبدأ في التحول من الهدوء إلى الاضطراب. وذلك يعني التحول من القناعة بالواقع إلى عدم الرضى بصورة أكبر، وتتحصر الاتكالية في نطاق محدود جدا، وتصبح القوة الإبداعية أكثر ثراء. ويوضح ذلك أن الإصلاح شحذ وعي الناس الأساسي وروحهم الإبداعية. ولكن، يجب على العوامل السيكولوجية الاجتماعية المضطربة أن تكون في أقصى درجات الهدوء من خلال تحقيق التوجيه والسيكولوجية المستقرة الجديدة، وإلا فمن السهل أن تشكل عوامل فقد السيطرة على المجتمع.

ثالثا: عكست ظاهرة «الهجرة الثقافية» تحول السيكولوجية الاجتماعية من الحفاظ على الاستقرار إلى الحساسية، الشديدة. وتتدفق في تحولات التحديث التغييرات المطردة في الحياة الاجتماعية، والأحوال الجديدة المتعددة، والمظاهر الجديدة أمام الأفراد بصورة مطردة. وتكتظ مشاعر الناس بالدهشة والحيرة وحب الاستطلاع تجاه بعض التغييرات الجديدة. وفي الوقت نفسه، يتكيفون مع التغييرات العادية تدريجيا، ويستطيعون التقاط معلومات التغيير الاجتماعي بمهارة، ولذا يعززون قدرة التكيف السيكولوجي مع الأحوال الجديدة. ولكن، ينجم عن السيكولوجية الاجتماعية المفرطة في الحساسية التأثير العاطفي الأعمى والنفسية المضطربة، كما تسبب تلك السيكولوجية فقدان التوازن النفسي لدى الجماهير، وتعزز عوامل تقويض الاستقرار في المجتمع. ولذلك، يجب توجيه السيكولوجية الاجتماعية ذات الحساسية الشديدة بصورة أكبر، وجعلها تصل إلى أعلى مستوى من الاستقرار النفسي.

وفي الوقت الحاضر، تعد «الهجرة الثقافية» ظاهرة سيكولوجية موجودة على نطاق واسع في الصين. ويبين ذلك أن السيكولوجية الاجتماعية في الصين، مثل تغييرات البيئة الاجتماعية الثقافية، تجتاز الآن فترة الإحلال والتجديد والتحول. وفي تلك الفترة، تزداد قوة قمع السيكولوجية الاجتماعية،

وفي الوقت نفسه يقوم الناس بتعزيز مزاياهم الثقافية ويحققون الانتقال والتحول الشامل إلى «الإنسان العصري».

الهوامش

(1) أوزاوا سيجي: قائد الفرقة الموسيقية الغربية - الكلاسيكية في اليابان [المترجم].

(2) كانت عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية مارجريت ميد Margaret Mead أول من طرحت مفهوم «المهاجرون الثقافيون». وتعتقد مارجريت أن «الفجوة الذهنية بين الأجيال» ظاهرة عالمية موجودة على نطاق واسع، وليست تقتصر على الولايات المتحدة. وأشارت إلى أن أفراد الجيل القديم في عالم اليوم هم من المهاجرين، وهجرتهم ليست مكانية، بل هي زمنية، ولا يعرفون عالم مابعد الحرب معرفة كاملة، إنهم مثل الغرباء تماما، ويشعر الشباب بأنه لا يوجد في عالم اليوم شخص بالغ يستطيع أن يقول لهم كيف يسيرون الخطوة القادمة.

(3) تجسد كل دولة في التحول إلى التحديث مثل تلك الظاهرة. وعلى سبيل المثال، حسب ما ذكره نهرو رئيس وزراء الهند الأسبق مشيرا إلى نفسه: «لقد أصبحت خليطا من الشرق والغرب، وأشعر في كل مكان -أيا كان- بأنه غير مناسب، وليس مسقط رأسي... وأنا في الغرب أجنبي، ولا أستطيع الانتماء إلى الغرب، ولكن في وطني يوجد لدي إحساس المشرد أحيانا».

(4) دانيل بيل، «تناقض الثقافة الرأسمالية» مكتبة سان ليانغ، طبعة عام 1989، ص168.

٦ الانحراف الثقافي وفقدان توازن الأحوال النفسية

يعد «الانحراف الثقافي» من المشاكل السيكولوجية العامة التي يواجهها الصينيون المعاصرون.

إن «الانحراف الثقافي» لدى الصينيين المعاصرين متعدد الجوانب، وفي المقام الأول، يحمل ذلك الانحراف في طياته العوامل الثقافية القديمة التي دخلت البيئة الثقافية الجديدة وظهور الانحراف الثقافي الحديث، ومع تحولات التحديث في الصين، انتقل الناس من البيئة الثقافية للمجتمع التقليدي واندمجوا في البيئة الثقافية للمجتمع الحديث، ومن البيئة الثقافية المستقرة الأحادية ذات الطبيعة المتشابهة إلى الدخول في البيئة الثقافية المضطربة ذات التعددية والطبيعة المتباينة، ومن البيئة الثقافية المألوفة لديهم إلى البيئة الثقافية الغربية. ولكن، عندما يمر الناس بتغييرات الحياة على هذا النحو، لا تكون نفوسهم خاوية، بل يوجد داخلها مفاهيم القيم وأسلوب التفكير وطريقة السلوك التي منحتها الثقافة التقليدية لهم، بالإضافة إلى الميراث الثقافي» للعوامل الثقافية

التقليدية. ويتناقض ذلك كله مع البيئة الثقافية الحديثة وينأى عنها، ولذا يشعر الناس في البيئة الثقافية الجديدة بعدم التكيف والتنسيق والانسجام. كما أنهم يعيشون في «آلهيكل الثنائي» للبيئة الثقافية، ويجسدون الانحراف الثقافي داخل ذلك الهيكل، وقام انتقال الثقافة الصينية الحديثة و«الهيكل الثنائي» بدمج كل العناصر الثقافية الصينية والغربية ذات الطبيعة المختلفة التقليدية والحديثة، وجسد ذلك التعارض الثنائي وتشابك التناقضات. ويبدو ازدواج القيم والفكر الثقافي كأنه يمتلك أساس الوجود ومبرراته. ولا شك في أن ذلك عزز مجال اختيار المبادرة الذاتية و«مستوى الحرية». ولكن، جعل الناس يشعرون بالاضطراب وفقدان الأساس الفكري، ولا يعرفون أي طريق يسلكون، ولذلك عندما ينضم الإنسان الصيني إلى المجال والحظيرة الثقافية الجديدة يفقد عادة وحدته مع الجماعة الثقافية التي ينتمي إليها، ولا يتكيف مع الاندماج في البيئة الثقافية الجديدة، ويتولد غالبا لديه مشاعر الضياع ومشاعر الغريب وقوة الضغط النفسي العميق.

ولذلك، يعد «الانحراف الثقافي» نوعا من الظواهر السيكولوجية المهمة لدى «الانتقالي» وجوهر موضوع «الهجرة الثقافية». كما أن «الانحراف الثقافي» ظاهرة نفسية مصاحبة لعملية تحولات التحديث الصيني، أو يمكننا القول إن ذلك النوع من «الانحراف الثقافي» يعد في حد ذاته حلقة ضرورية لانتقال الثقافة الصينية من التقاليد إلى التحديث، وانتقال الصينيين من «التقليديين» إلى «المعاصرين».

إن «الانحراف الثقافي» ظاهرة نفسية منتشرة على نطاق واسع داخل الحياة الاجتماعية الواقعية الصينية، وتتسم بالتأثير العميق في تحولات التحديث وتطور الثقافة الصينية المعاصرة، ونقول بدقة، إن ذلك التأثير يظهر بصفة أساسية في الجوانب المتعددة التالية:

١- السيكولوجية الثقافية التقليدية المتخلفة التي أعاقت وعرقلت أو بددت مسيرة التحديث الموضوعية، وأصبحت العائق النفسي لتطوير المجتمع. وفي تغييرات التحديث مازال يوجد بين أفراد المجتمع بعض الأشياء التي لا تتناسب مع تطوير المجتمع على نطاق واسع، وتعرقل ظاهرة التطور النفسي الاجتماعي، وذلك من جراء تباطؤ السيكولوجية الاجتماعية. ونظرا لأن تحولات التحديث الصيني تتميز بالملامح السريعة جدا، ولذا تتسم تلك

التحولات بالعديد من العوامل التاريخية التي لم يقم العلم بمعالجتها، ولم تجر تلك التحولات التطهير الأيديولوجي الجاد وواسع النطاق للتراكمات النفسية العميقة للثقافة التقليدية، مما جعل مشكلة العقبات النفسية تظهر في صورة أكثر بروزا. وفي مسيرة التحديث يوجد لدى الصينيين نوعان من العقبات النفسية بصفة أساسية هما: التكوين الأولي للعقبات النفسية، والتغيير المجسم الذي يشهده ذلك التكوين. ويشير التكوين الأولي للعقبات النفسية إلى الاتجاهات النفسية التقليدية المتخلفة عند الصينيين، ويشتمل بصورة أساسية على: الاتجاه النفسي المنغلق الذي يتسم بالمركزية الذاتية، والاتجاه النفسي المستقر دون ثمة تغيي، والاتجاه النفسي الذي يقرر ميول أو عناصر السلوك الاجتماعي استناداً إلى الماضي، ويقدس القديم ويشغف به ويحترم الميراث الطولي ويزدري بالتبادل العرضي وغيرها. ونتج عن تلك الاتجاهات النفسية لذلك التكوين الاولى أهم ثلاث وجهات نظر مختلفة هي : المفهوم العالمي لـ «التمييز بين الصين والدول الأجنبية»، ومفهوم القيم والتمييز بين «القيم المعنوية والأرباح المادية»، ومفهوم الوسط المنصف للتعامل مع الناس. أما التغيير المجسم الذي يشده التكوين الاولى للعقابات النفسية أو التكوين المنشق لتلك العقابات يشير إلى طريقة لتبلور الجديد للاتجاهات النفسية التقليدية المختلفة في ظل الأوضاع الحديثة. والتي تتضمن بصورة أساسية الاتجاه النفسي من الثقة الذاتية الضعيفة جدا حيث لا يعرف الفرد أي الطرق يسلك، والاتجاه النفسي من العقبات النفسية القديمة والجديدة، ويجدد نفسه مرورا بالعقبات القديمة بالإضافة إلى الاتجاهات الأخرى. وقد نجم عن تلك الاتجاهات النفسية داخل مثل ذلك التكوين المشتق للعقبات النفسية بعض المفاهيم المتخلفة الجديدة مثل: مفهوم التلهف على تحقيق نتائج منظورة، أو النفسية التي ترى أن التحديث بسيط جدا، وتأمل في إنجازه بضربة واحدة أو مفعمة بالحظ، وتأمل في ظهور «معجزة» وتدفع الصين إلى التحديث بين عشية وضحاها، أو مفهوم التقليد الأعمى، حيث الأمل في تقليد نماذج التحديث الأجنبية الجاهزة، وعدم الرغبة في القيام باستكشاف طريق التحديث الصيني الشاق. إن تلك الاتجاهات النفسية المتخلفة والمفاهيم الثقافية تبتعد عن اتجاه التحديث، ولعبت دور الإعاقة الخطيرة بالنسبة لمسيرة التحديث الموضوعية، وعرقلت اتجاه

التحديث، بل حتى ربما حطمت مكاسب التحديث التي تم تحقيقها.

2- يفتقر أفراد المجتمع إلى الاستعداد النفسي الكافي والقدرة على التفاعل مع التغييرات الاجتماعية، وقوة تحملهم الاجتماعية للإصلاح وتحولات التحديث ضعيفة نسبيا. ولذا نجم عن ذلك القوة القمعية المنتشرة على نطاق واسع ومشاعر القلق في إصلاح الأنشطة الاجتماعية الحديثة، كما تولد عن قوة التحمل النفسي الاجتماعي ظاهرة سيكولوجية اجتماعية لدى مجموعة من البشر، وسلسلة من النظام الشامل للقدرة النفسية التي تشتمل على:

أ- قدرة الإدراك. وتعني مستوى معرفة التغييرات الاجتماعية، وبصفة عامة، كلما كانت هناك قدرة على فهم الأشياء، كانمن السهل تقبلها، وبالنسبة لقوة إدراك التغييرات الاجتماعية، كلما قويت تلك المجموعة تعاظمت قدرتها النفسية والاجتماعية.

ب- القدرة على التصدي، هي قوة الضغط التي يواجهها الإنسان، وتسبب الأحوال النفسية من اضطراب المشاعر والأحاسيس لديه ويعيش في حالة نفسية غير مستقرة يشعر فيها بالقلق والهم. وتشير قوة التصدي داخل قوة التحمل النفسي والاجتماعي إلى قدرة السيطرة لدى تلك المجموعة عند مواجهتها الأحوال غير المتوقعة.

جـ- القدرة على التحمل، وتشير إلى النطاق الذي تستطيع فيه تلك المجموعة أن تتحمل قوة الضغط داخل التغييرات الاجتماعية.

د- قدرة التوازن، وتشير إلى قدرة التوازن الشاملة لدى الناس في مجال التعارف والمشاعر أو العواطف والتفاعل وغيرها من المجالات الأخرى[1].

وهناك علاقة بين مستوى قوة التحمل النفسي والاجتماعي والعديد من العوامل التي تتضمن الصفات النفسية الثقافية والقومية، ومستوى الإنتاج المادي، وعناصر التراكمات النفسية في الثقافة التقليدية، وشفافية العملية الاجتماعية ومستوى المشاركة الجماعية وغيرها من العوامل الأخرى. ويفتقر الصينيون إلى التوافق النفسي الكافي والاستعداد الفكري إزاء التحولات الاجتماعية بسبب ظاهرة «الانحراف الثقافي» داخل تغييرات التحديث. كما أن الاهتمام بالانسجام في الثقافة التقليدية وتراكم عوامل الاستقرار في الهيكل النفسي العميق جعل الناس لا يتعودون على تغييرات البيئة

الاجتماعية ولا يتوافقون معها. ولذا، قوة التحمل النفسي والاجتماعي ضعيفة نسبيا. ولا سيما أن الإصلاح والانفتاح في عشر السنوات الأخيرة، وأكثر، جعلا التحولات الاجتمياعية تنتشر في النطاق الأكثر عمقا واتساعا، ولا تتناسب طريقة أعمال الناس المعتادة ونموذج تفاعلهم مع البيئة الجديدة والتغييرات الجديدة. وأدى ذلك إلى ظهور قوة الضغط النفسي العامة حيث التعرض للمصائب والصدمات التي نجم عن عقباتها الداخلية والخارجية عدم التوازن في الجانب النفسي الذي يظهر في الأحوال المزاجية من التوتر والقلق والشعور بالحزن والهم والكآبة وغيرها. إن الشعور بقوة الضغط النفسي وتلك الأحوال المزاجية تسبب عادة إعاقة تعميق الإصلاح والآلية الكامنة للتحديث، وتعزز قوة المقاومة غير المعقولة لتحولات التحديث، كما تسبب فقدان السيطرة على السيكولوجية الاجتماعية، وتؤثر في دفع هدف الإصلاح والتحديث إلى الأمام، والسياسة الاجتماعية[2].

3- يجتاز الصينيون في مسيرة التحديث تعديل «الانحراف الثقافي» بوعي، ويجعلون السيكولوجية الاجتماعية تشهد بعض التغييرات الإيجابية في اتجاه التحديث. ولكن، في الوقت نفسه تولد الاغتراب أو الضياع النفسي لديهم إلى حد ما بسبب التعديل غير المناسب. ومن ثم أدى ذلك إلى الاختلال النفسي العميق. وفي المقام الأول، إن السيكولوجية الاجتماعية هي المسيرة التاريخية الأساسية والموضوعية ورد فعل الممارسة الاجتماعية. لقد اجتاز التحديث الصيني مسيرة أكثر من مائة عام ويغير ملامح المجتمع إلى حد كبير، وفي الوقت نفسه، يغير أيضا الصينيين ونفسيتهم الاجتماعية. وعند عقد مقارنة بين الصينيين التقليديين» والصينيين المعاصرين، نجد أن الصينيين المعاصرين يتسمون بالتغييرات الهائلة والتعمق في مجال المفاهيم الثقافية وقوة التحمل النفسي والاجتماعي وأسلوب التصدي وطريقة التفاعل وغيرها من المجالات الأخرى. وفي عبارة أخرى، وقياسا إلى اتجاه التطور، فإن السيكولوجية الاجتماعية للصينيين تتقدم في الوقت الحاضر نحو اتجاه تحولات التحديث المتلائم معها والذي يشهد التغييرات[3]. والآن تشهد الظاهرة النفسية لـ «الانحراف الثقافي» التعديل التدريجي، ويتكيف الناس مع البيئة الثقافية الجديدة ودور السلوك الجديد بصورة تدريجية. ولكن، بسبب التعديل غير الملائم تشكلت بعض مظاهر الاغتراب

النفسي أيضا. وما يطلق عليه الاغتراب النفسي يعد نوعا من مشاعر الانفصال بين ذات الإنسان والدور الاجتماعي الذي يضطلع به، وبين الذات والأحوال الموضوعية، ويبدو الإنسان وكأنه «قُذف» به في عالم غريب تماما ويتعرض لسيطرة وهيمنة قوة لا يمكن معرفتها. كما يبدو وكأنه «فقد» ذاته، وتتولد لديه الحيرة والتشوش الذهني إزاء مشكلة «من أنا. إن الاغتراب النفسي ظاهرة عامة في سيرة التحديث، وتعد من النتائج النفسية الاجتماعية المترتبة على تطور الصناعات الكبرى والعلوم والتكنولوجيا والثقافة. وتظهر هذه المشكلة في الدول الغربية المتطورة في صورة أكثر وضوحا، وبالتالي تبدأ الأزمة النفسية الاجتماعية الخطيرة. وقدم عالم الاجتماع الأمريكي سيمان Siman ستة أنواع من أشكال الاغتراب النفسي الاجتماعي في مسيرة التحديث هي:

1- الافتقار إلى القوة والخيار، بمعنى شعور الإنسان أنه ليست لديه القوة للإشراف على الأوضاع.

2- الارتباك والحيرة، بمعنى الشعور بعدم فهم البشر الأحداث الاجتماعية وإدراكها وتخيلها.

3- الانحراف عن الطريق القويم، ويعني ضرورة استخدام الوسائل الاجتماعية المنبوذة لتحقيق الأهداف الذاتية.

4- الانغلاق الثقافي، وإنكار المجتمع أو قيم المجموعة الاجتماعية المعترف بها.

5- الانغلاق الذاتي. والمشاركة في الأنشطة التي لا يمكن أن تجعل الإنسان يشعر بالرضى ويعتبرها بمنزلة «الحتمية الخارجية».

6- العزلة الاجتماعية، وتعني شعور الذات برفض المحيطين بها والابتعاد عنهم. وتعد أحوال الاغتراب النفسي هذه بمنزلة بعض الأحوال النفسية غير العادية والسليمة، ولكن احتمال ظهورها كبير جدا في التحولات الاجتماعية من جراء التوافق غير السليم. وربما تسبب ظاهرة «الهجرة الثقافية» و«الانحراف الثقافي» في الحياة الاجتماعية الصينية الحديثة مثل ذلك الاغتراب النفسي. ونرى أن مثل ظاهرة الاغتراب النفسي هي النتيجة السلبية للتحديث، ولكن لا يمكن تجنبها. وفي الواقع، أنها موجودة في حياة الصينيين الواقعية بدرجات مختلفة، ونستطيع التنبؤ بأنه مع

تعميق مسيرة التحديث الصيني والتصنيع ومدْيَنة الريف وتطور العلوم والتكنولوجيا والثقافة إلى أعلى مستوى، فإن الهيكل الاجتماعي الصيني ينتقل من هيكل الدول النامية إلى هيكل التحديث في الدول المتطورة، ويتغلغل مبدأ التصنيع والفكر الثقافي في كل مجالات الحياة الاجتماعية بصورة كاملة. وهناك احتمال كبير أن تظهر مثل ظاهرة الاغتراب النفسي في صورة أكثر خطورة وعمقا وتعقيدا.

ولكن، هناك حالة أخرى للاغتراب النفسي الاجتماعي لدى الصينيين المعاصرين، وهي التكوين السيكولوجي المتغير الناجم عن «الانحراف الثقافي». وتشوهت بعض أشكال الاتجاهات النفسية الثقافية التقليدية التي تتصف بالمغزى الإيجابي الأصلي وأصبحت عوامل سلبية. كما تشوهت بعض أشكال الاتجاهات النفسية الثقافية الحديثة التي تتسم بالمغزى التقدمي وأصبحت عوامل متخلفة. وعلى سبيل المثال، المشاعر القومية القوية من الكرامة، ومشاعر الثقة في النفس تغيرت وتحولت إلى مشاعر المعارضة العمياء لكل ماهو أجنبي، والجهل والغرور والشعور بالنقص، والخليط العجيب من مشاعر القمع والكبت والتقليل من شأن الآخرين لإرضاء الإحساس بالإنجازات الذاتية والشغف بالمظاهر. وبسبب التحولات الاجتماعية والثورات والاضطرابات في أكثر من مائة سنة، تشوهت أشكال السيكولوجية القومية المعتدلة ذات الصدر المفتوح والأخلاق العالية الدائمة والتي تتسم بالأدب والتهذيب وأصبحت القلق والهم والتوتر والخوف والفزع والطيش والجنون. وجعل ذلك الهجوم يصبح القوة الإبداعية عن غير عمد في أكثر الأحيان، والتحطيم يحل محل البناء، وتطورت آلية الدفاع المتضخمة وتأثيرات اللغة المنمقة والطنانة داخل التوتر النفسي ومشاعر القلق المنتشرة على نطاق واسع وشاعت «نفسية حِصرِم حَلَب»[4] و«نفسية حَلَب حِصْرِم»[5]، وبذلت أقصى الجهود للتقليل من شأن الغير الذي أحرز الإنجازات الحقيقية والشرف العظيم، واعتبرت الإنجازات الذاتية التي لا تستحق الذكر والشرف البسيط (إحراز النصر في مباراة رياضية، والفور بجائزة سينمائية) العيد العظيم للأمة ويتباهى الفرد بها أمام نفسه والعالم. وتعرض نموذج سيكولوجية الاهتمام الدائم بانسجام العلاقات الإنسانية للتحطيم، كما تعرض مغزى المنافسة في المجتمع الحديث للتشوه، وانتشر الحسد على

نطاق واسع، والتعصب الأعمى، والافتقار إلى نكهة العواطف الإنسانية وروح المساعدة المتبادلة. ولذلك، العواصف الإنسانية فاترة بلا حماسة، والعلاقات الإنسانية متوترة، والاستياء والهدم متبادل، ولا يتحمل الفرد المعاناة للتيسير على الآخرين، ولا يرغب في تقديم الخدمة للغير، ومنافسته الحامية دائما من أجل الترقية في الراتب والألقاب، والانتخاب من «التقدميين»، والفرح لا يعم الجميع. بالإضافة إلى ظهور السيكولوجيات المختلفة من: المقارنة غير الواقعية، والطاعة العمياء، ورد الفعل المضاد، والغرائب والطرائف، ومشاهدة الصراعات والشماتة في مصائب الآخرين، ويعد ذلك كله انحرافا عن الوضع السيكولوجي الطبيعي وأشكال التعبير عن التحول النفسي.

وقصارى القول، أن العقبات السيكولوجية الحديثة، ومشاعر القمع المنتشرة على نطاق واسع، وقوة الضغط النفسي، والاغتراب النفسي والتحول السيكولوجي عكس فقدان التوازن النفسي العميق لدى الصينيين في تحولات التحديث. وما يطلق عليه «فقدان التوازن النفسي» هو ظهور العقبات أو الشذوذ في نظام التكيف السيكولوجي الذاتي، واضطراب الوظيفة النفسية. ويظهر الهيكل النفسي العميق التشوه والانحراف واختلال التوازن، مما يجعل أسلوبه المكيف بصورة سيئة يجسد رد فعل العواطف في أقصى درجاتها في التعامل مع الأشياء المحيطة، ويسبب النكسة والتضارب والشعور بقوة الضغط النفسي، ولذلك يحدث التغيير في أسلوب التفكير وطريقة السلوك. ويظهر فقدان الأحوال النفسية الاجتماعية عقبات التحكم والسيطرة على السيكولوجية الاجتماعية أو درجة التأثير الاجتماعي المنخفضة، ولكنه لا يستطيع أن يبرز للعيان توجيه السيكولوجية الاجتماعية والسيطرة عليها وتعديلها ووظيفة المشاعر الجماهيرية بصورة كافية. إن فقدان توازن الأحوال النفسية الاجتماعية يعد ظاهرة مصاحبة لمسيرة التحديث. ولكن، يعد ذلك نوعا من التغيير والانحراف عن الوضع الطبيعي وظاهرة سيكولوجية غير طبيعية، ويعرقل مسيرة التحديث الموضوعية، ولذلك يجب إنشاء الآلية الفعالة التي تسيطر على السيكولوجية الاجتماعية وتهيئة الجو النفسي الثقافي المنسجم والسليم، والحث على التوازن النفسي المنسجم والصحيح لدى أفراد المجتمع، وتعزيز استقرار الأحوال النفسية

الاجتماعية، وذلك من أجل حماية الإصلاح والانفتاح وبناء التحديث بصورة ميسرة.

الهوامش

(1) انظر مقال: شاو شو شينغ، وقه داو شون «حول تأمل قوة التحمل النفسي الاجتماعي» «جريدة النور» الصادرة في 9 فبراير عام 1989.

(2) بالنسبةلقوة الضغط النفسي الاجتماعي، يعتقد عالم الاجتماع النفسي الأمريكي غروسي Groce أن كل فرد في المجتمع يواجه التهديدات الاجتماعية في أي وقت، ويشكل بصورة تدريجية في عملية مواجهة التهديدات خصائص أسلوبه الذاتي ونجاحه في التعامل المعتاد مع الناس. وتتولد لدى الإنسان قوة القمع بمجرد أن يتحطم النموذج الذاتي المعد لمواجهة تلك التهديدات، ويمكن أن يظهر تأثير قوة الضغط النفسي في جسم الإنسان ورد فعل المشاعر، وعلى سبيل المثال، يظهر ذلك التأثير في التوتر والقلق والخوف والحزن والكآبة. وطرح بعض علماء الاجتماع النفسيين المتغيرات الخمس التالية لقياس قوة الضغط النفسي:

1- الظروف الاجتماعية الموضوعية التي يمكن أن تسهم في تعزيز قوة الضغط النفسي.

2- تأثير التهديدات التي يتعرض لها الإنسان على الإدراك الحسي لقوة الضغط النفسي.

3- رد فعل الإنسان البيولوجي والشعوري والسلوكي الناجم عن قوة الضغط التي يشعر بها.

4- النتائج المترتبة على قوة الضغط التي يتحملها الإنسان في مراحل عمره تعد بمنزلة محصلة رد فعل الإنسان وإدراكه الحسي لتلك القوة.

5- تحدد المشاعر والأحوال الذاتية العلاقة بين المقاييس الأربعة المذكورة آنفا.

(3) قام البروفيسور دووب L.W. Doob في جامعة Yole الأمريكية بدراسة ماهية التغييرات التي تطرأ على سيكولوجية البشر، وهم يتقدمون نحو تحولات التحديث. وقدم مجموعة من التصورات أهمها:

1- عند عقد مقارنة بين الإنسان الذي يتمسك بالثقافة التقليدية، ونظيره الذي اجتازه التحول إلى التحديث، نجد أن الأخير من السهل جدا أن يظهر مشاعر عدم الرضا.

2- هجوم الإنسان الذي اجتاز التحديث أقوى من نظيره الذي لم يجتاز التحول إلى التحديث.

3- الإنسان الذي يجتاز تغييرات التحديث أكثر حساسية بمشاعر الآخرين.

4- الإنسان الذي اجتاز تغييرات التحديث أكثر حساسية بمشاعر الآخرين

5- الإنسان الذي اجتاز تغييرات التحديث أكثر اهتماما بالمزايا الذاتية مثل الاستقلال والثقة الذاتية وغيرها. وكلما تعصرن المجتمع يظهرالإنسان الأنانية.

6- التقنية المتخصصة التي يمتلكها الإنسان في بيئة التحديث الاجتماعي أكثر قوة ومهارة.

7- في جانب وظيفة المعرفة: بعد أن يجتاز الإنسان تحولات التحديث، يدرس المفاهيم التجريدية ويتقبلها ويدركها بسهولة جدا.

8- بعد أن يجتاز الإنسان تغييرات التحديث، يعرف الفاصل الزمني الموضوعي ويدركه ويفهمه بدقة أكثر.

9- الإنسان الذي يجتاز تحولات التحديث، يعرف تماما دراسة اللغة التي يعتقد أنه يحتاج إليها.

10- الإنسان الذي يجتاز تحولات التحديث، يستطيع استخدام اللغة لوصف مشاعره الذاتية

وتفاعله مع العالم الخارجي بدقة أكثر، وغيرها.

(4) حِصْرِم حَلَب Sour grapes: شيء يتظاهر المرء بعدم الرغبة فيه لأنه عاجز عن الحصول عليه [المترجم].

(5) حَلَب حِصْرِم Sweet Lemon: شيء يرغب المرء فيه ولكن لا يستطيع الحصول عليه، ويدل ذلك على ازدواج التناقض داخل السيكولوجية الاجتماعية [المترجم].

7 مشاعر القلق والهواجس عند الصينيين المعاصرين

إن مشاعر القلق والهواجس من المظاهر المهمة لفقدان توازن الأحوال النفسية الاجتماعية وعدم الاستقرار. وما يسمى بـ «مشاعر القلق والهواجس» يشير إلى الجو النفسي العام القائم داخل المجتمع من الحساسية المفرطة وسرعة الغضب والقلق وعدم الاستقرار. إن ذلك الجو النفسي من السهل أن يعرف التأثير المتبادل وسرعة الانتشار والمحاكاة بصفة خاصة، ولذلك يجعل الناس يتعرضون لسيطرة العواطف والمشاعر بسهولة. وتعد «مشاعر القلق والهواجس» بمنزلة انعكاس للأحوال النفسية المتشردة لدى «الانتقاليين» ونتيجة حتمية لـ «الانحراف الثقافي» في تحولات التحديث أيضا.

إن مشاعر القلق والهواجس هي العاطفة الاجتماعية والأحوال النفسية الاجتماعية غير المستقرة. إن العاطفة الاجتماعية المضطربة وعدم استقرار بيئة الحياة الاجتماعية يؤثر كل منهما في الآخر، ويقيد كل منهما الآخر، ويتبادلان الأسباب والنتائج، وفي المقام الأول، ينجم عن عدم استقرار بيئة الحياة الاجتماعية مشاعر القلق والهواجس

المنتشرة على نطاق واسع والتي تؤدي إلى فقدان التوازن العميق للأحوال النفسية والاجتماعية واضطراب المشاعر الجماهيرية وقلقها أيضا. كما أن عدم استقرار المشاعر الاجتماعية يسبب بعض السلوكيات المنحرفة عن الوضع الطبيعي، ويعرقل إضفاء الطابع العقلاني على المسيرة الاجتماعية، ويزيد من حدة الاضطراب الاجتماعي.

لقد اجتازت حركةالتحديث التي استمرت أكثر من مائة سنة في الصين الثورات والتغييرات، إن تلك الحركة هي التغيير الهائل الواقعي والهيكلي حيث حطمت انغلاق المجتمع التقليدي، ونزعة المحافظة، واستقرار التخلف، ودفعت تطور المجتمع الصيني بكل قوة. إن عدم الاستقرار الاجتماعي الذي شهدته مسيرة التحديث هو الثمن الذي دُفع من أجل التطور الاجتماعي (بل ربما كان ثمنا مؤلما وباهظا)، ومن هنا تم تبديل عدم الاستقرار ذاك بالمسيرة التاريخية الاجتماعية الضخمة والتقدم، إن مرحلة عدم استقرار المجتمع التقليدي إلى أقصى درجات استقرار المجتمع الحديث، وبالتالي يتحقق التحول الرئيسي في الطبيعة الاجتماعية، ومنذ عام 1978، دخلت الصين مرحلة جديدة وشاملة من الإصلاح والانفتاح وبدأت بناء التحديث بصورة كاملة، ويعد ذلك بمنزلة الاستمرار التاريخي لمسيرة التحديث منذ أكثر من مائة سنة وتعميقها وانتشارها الشامل في مستوى جديد، وحث الإصلاح والانفتاح والتحديث الشامل على التطور السريع للبناء الاقتصادي، وفي الوقت نفسه، عجلوا بتعديل هيكل المجتمع كله وتغيير الحياة الاجتماعية، وتمخض عنهم سلسلة من التناقضات والتضاربات الثقافية والاجتماعية الجديدة، مما أدى إلى عدم الاستقرار الاجتماعي الجديد. ويعد ذلك من التناقضات النفسية الثقافية المهمة التي تواجهها الصين في الوقت الحاضر: إن بناء التحديث يحتاج إلى البيئة الاجتماعية والثقافية والنفسية المستقرة، وينجم عن حركة التحديث نفسها عدم الاستقرار الاجتماعي والثقافي والنفسي نتيجة تغييرها الهائل، ويجب أن يكون المجتمع الحديث الذي يسعى الصينيون إليه ويكرسون جهودهم من أجله يتصف بدرجة عالية من الاستقرار والانسجام والتطور (تصورنا المستقبلي أن يكون مجتمع المثل العليا للقيم). ولكن تحقيق عملية تحولات التحديث ذات المثل العليا للقيم ينجم عنها عدم الاستقرار والانسجام حاليا،

ويعد ذلك المشكلة التي تواجهها الدول النامية في عملية تقدمها نحو التحديث، وأشار عالم الاجتماع السياسي الأمريكي إليسورث هينتنجتون في تحليله لتغييرات النظام السياسي في الدول النامية إلى أن التلهف على التحديث جعل الحياة الاجتماعية في تلك الدول تشهد التغييرات العنيفة، وكلما زادت سرعة التغييرات الحديثة، تعاظم عدم الاستقرار الاجتماعي، وذلك أيا كان التقييم لتلك التغييرات من زاوية الأوضاع الهادئة أومقاييس التطور. كما أشار إلى أن:

«العصر الحديث يسبب الاستقرار، والتحديث ينجم عنه عدم الاستقرار».

«إن الفوضى السياسية لا تحدث بسبب العصر الحديث، ولكن بسبب الجهود المضنية التي تبذل لتحقيقه، وإذا قلنا إن الدول الفقيرة يظهر فيها عدم الاستقرار، فذلك ليس بسبب فقرها، بل لأنها تفكر في أن تصبح غنية. إن المجتمع التقليدي الخالص غبي وفقير ومستقر دائما. ولكن بحلول النصف الثاني من القرن العشرين، تعد كل المجتمعات التقليدية انتقالية، بمعنى أنها مجتمعات تمارس التحديث في الوقت الحاضر. إنها تغييرات التحديث العالمي التي عززت انتشار العنف العالمي».

«إن تحديث المجتمع والاقتصاد لا يسبب عدم الاستقرار السياسي فحسب، بل إن درجات عدم الاستقرار ترتبط بعلاقة متبادلة مع سرعة التحديث»[١].

وهناك علاقة تربط بين عدم الاستقرار الاجتماعي في مسيرة التحديث، وسرعة التطور الاقتصادي إلى حد كبير. إن تحديث الاقتصاد هو أساس المجتمع كله، ويجب أن يتمحور التحديث على البناء الاقتصادي. ولكن يتسم التطور الاقتصادي بقانون حركته الذاتية، ويعتبر التطور الاقتصادي والاستقرار هدفين مستقلين. وربما يعزز التطور الاقتصادي في ظل الأحوال المحددة الاستقرار الاجتماعي، وربما يحطمه في ظل الأوضاع الأخرى، وفي عبارة أخرى، وعلى العكس من ذلك أن سرعة التطور الاقتصادي في ظل الظروف التاريخية الاجتماعية الخاصة تزيد حدة التوتر النفسي الاجتماعي، وتعزز عوامل تقويض الاستقرار الاجتماعي، وبعد أن وضعت الصين نهاية لفوضى «الثورة الثقافية» العارمة التي استمرت عشر سنوات، ركزت قوة اهتمام الشعب في كل أنحاء البلاد في مجال البناء الاقتصادي

بصورة مطردة. وقد ذكرت آنفا، أن «الثورة الثقافية» -في الواقع- هي حركة مناوئة للتحديث، وسببت التحطيم المأساوي الهائل لبناء التحديث في الصين، ودفعت الاقتصاد القومي إلى حافة الانهيار، وبعد أن انتهت «الثورة الثقافية»، تركزت الجهود على ممارسة البناء الاقتصادي الذي يعتبر المصلحة العليا التي يتطلع إليها الشعب في كل أنحاء البلاد منذ فترة طويلة وتتوافق مع الدولة والشعب. وفي ظل تلك الأوضاع، ومنذ عام 1978 يتمتع البناء الاقتصادي في الصين بالتطور السريع جدا بفضل الإصلاح والانفتاح، وفي الفترة من عام 1979 حتى عام 1988، بلغ متوسط سرعة زيادة القيمة الإجمالية للإنتاج الزراعي والصناعي 11,2٪، ومتوسط سرعة زيادة قيمة الإنتاج الصناعي 12,8٪، وذلك بمعدل يفوق متوسط المستوى العالمي في تلك الفترة. وحسب ماجاء في تقرير البنك الدولي عن التنمية في العالم لعام 1987، إن في الفترة من عام 1981 إلى عام 1988، ومن بين إحصائيات 119 دولة ومنطقة، كانت نسبة زيادة القيمة الإجمالية للإنتاج المحلي في الصين تحتل المكانة الثانية وتحتل نسبة التنمية الصناعية المكانة الخامسة، وتحتل نسبة زيادة صناعة الخدمات المكانة الأولى، ونسبة زيادة القيمة الإجمالية للاستثمار المكانة الثانية، وبلغت زيادة الاستهلاك السنوي للمواطنين 7,7٪ وتحتل المرتبة الأولى بين دول العالم. وتظهر تلك الإحصائيات أنه بعد تطبيق الإصلاح والانفتاح دخل الاقتصاد الصيني مرحلة التطور السريع وأحرز إنجازات بارزة. ولكن، جلبت سرعة التطور الاقتصادي العديد من المشاكل أيضا. وذلك لأن التطور الاقتصادي في تلك الفترة يتزامن مع إصلاح النظام، بمعنى أن إصلاح النظام حث على سرعة التطور الاقتصادي. ولذا، كانت المشاكل الجديدة التي ظهرت أكثر تعقيدا، وهناك بعض المشاكل التي تنتمي إلى المجال الاقتصادي نفسه مثل: نطاق استثمار الإنشاءات الأساسية المبالغ فيها، و«الحمى الاقتصادية»، وتضخم الأموال المستهلكة، وتفوق الطلب العام على العرض العام، وفقد السيطرة على ارتفاع الأسعار، والتضخم المالي، واختلال توازن التنمية في المناطق الاقتصادية، وإعادة تنظيم الهيكل الصناعي وهيكل المنتجات،وتطبيق النظام المزدوج، والنقص العام في مصادر الطاقة والمواد الخام والاتصالات والنقل. كما ظهرت مشاكل تدهور الأسعار في الأسواق، والهبوط الاقتصادي، ونقص

رؤوس الأموال فيما بعد. وهناك بعض المشاكل التي تنتمي إلى الجانب الاجتماعي والسيكولوجي والثقافي، وخاصة مشاكل التكيف النفسي المضطرب تجاه سرعة التطور الاقتصادي ومستواه وقدرة التحمل النفسي. وربما تعزز تلك المشاكل عوامل تقويض الاستقرار في المجتمع.

وتشتمل الجوانب التالية على العوامل الأساسية لعدم الاستقرار في فترة التطور الاجتماعي التي تشهدها الصين في الوقت الحاضر:

1- عدم استقرار مستوى التطور الاقتصادي الناجم عن تأثير «الحمى الاقتصادية».

2- عدم استقرار النظام الاقتصادي الناجم عن تعديله والإجراءات غير المتزامنة أو غير الكاملة في عملية الإصلاح الاقتصادي.

3- عدم استقرار الهيكل الاجتماعي الناجم عن التحرك البشري الضخم داخل البلاد والفئات الاجتماعية.

4- عدم استقرار الأحوال النفسية الاجتماعية من جراء الفجوة بين زيادة تطلعات المجتمع ومتطلباته وإمكان تلبية تلك التطلعات والمتطلبات.

5- عدم استقرار نظام الحياة الاجتماعية بسبب تشتت وجهة النظر إلى القيم والتضارب الثقافي وأزمة الفكر الأخلاقي.

وفي جانب الأحوال النفسية والمشاعر الاجتماعية، تعد «الآمال المتضخمة» وما يترتب عليها من «انحراف الأهداف» من المظاهر المهمة التي يسببها القلق وعدم الاستقرار. وما يطلق عليه «الآمال المتضخمة» يشير إلى نوع ما من المظاهر النفسية حيث تتطور الأماني النفسية لدى الناس ومطالبهم مع التطور الاقتصادي وتعميق الإصلاح والتحديث. وخاصة أن اجتياز الضعف الاقتصادي الذي استمر عشر سنوات في أثناء «الثورة الثقافية»، ومواجهة الحقيقة الموضوعية لتخلف الصين جعلا الشعب يمنح الإصلاح والتحديث الأمل الأكبر واعتبر الإصلاح مفتاح حل كل مشاكل الصين، ومن ناحية أخرى، يكون الحديث عادة عن أهداف الإصلاح في طريقة واضحة وبسيطة وحيوية من أجل تعبئة الشعب على نطاق واسع للاشتراك في الإصلاح وبناء التحديث، ويؤدي ذلك إلى التخلي عن محدودية تنوع نماذج تلك الأهداف، لذا يحدث «الانحراف عن تلك الأهداف» في عملية التنفيذ. وعلى سبيل المثال، متطلبات الناس من كل إجراء إصلاحي

هي أن يستطيع الإصلاح جلب الفائدة لكل فرد على غرار من ينصب عمودا ويشاهد ظله توا، واتسمت الآمال المعقودة على فوائد الإصلاح في المستقبل القريب بالمبالغة، والتقييم غير الكافي لمشقة الإصلاح وتعقيداته والمشاكل والمخاطر التي تظهر بالتأكيد. وفي ظل هذه الأوضاع، توجد مسافة محددة بين مستوى تحقيق الرضا المطلوب ومستوى تحقيق الآمال، وعندما يخفق الناس في تحقيق آمالهم، يعقدون مقارنة بين الرضى الذي حصلوا عليه وتحقيق الآمال. مما يترتب عليه الشعور بالنكسة وعدم الرضا العاطفي، ويؤدي ذلك إلى فقدان توازن الأحوال النفسية وعدم الاستقرار. إن اختلال التوازن بين تقييم تلك الآمال وإمكاناتها يسبب «الآمال المضادة» داخل الأحوال النفسية للناس، ويعد ذلك جانبا مهما لمشاعر القلق والهواجس وعدم الاستقرار في المجتمع الحالي. وفي الوقت نفسه، يكمن داخل تلك المشاعر التأثير غير المباشر للاضطراب الاجتماعي، وكما أشار إليسورث هينتنجتون إلى:

«أن عدم الاستقرار السياسي في الدول التي تمارس التحديث ناجم عن التفاوت بين التطلعات والإمكانات إلى حد كبير، ويحدث هذا التفاوت نتيجة التصاعد المستمر للتطلعات التي من السهل ظهورها في مرحلة التحديث الأولية بصفة خاصة»[2].

«إن مَدّينة الريف، ونسبة محو الأمية والتعليم، ووسائل النشر الجماهيرية جعلت التقليديين يواجهون أسلوب الحياة الجديدة، ومعيار المتعة الجديدة، وفرصة تلبية رغبات النفس الجديدة. إن هذه الخبرات حطمت الحاجز الوقائي للمفاهيم والمعارف في الثقافة التقليدية، ودفعت التطلعات والاحتياجات إلى مستوى جديد. ولكن تعزيز قدرة المجتمع «الانتقالي» على تلبية التطلعات الجديدة يكون أكثر بطئًا من زيادة تلك التطلعات نفسها. ثم يظهر الفرق بين التطلعات والإمكانات، وبين تشكيل الاحتياجات وتلبيتها، أو يظهر الفرق بين تحقيق التطلعات ومستوى الحياة. وتسبب تلك الفروق النكسات الاجتماعية وعدم الرضا. وفي الوقع، إن مستوى تلك الفروق يظهر الهدف المعقول للاضطراب السياسي».

وكما أشار دانيل بيل إلى:

«عندما يعلق الناس الآمال المتزايدة على الإصلاح فجأة، فإن ضغط

الآمال يصعب عليه تجنب تجاوز سعة تحمل الحقيقة. كما أن التغييرات الموضوعية يصعب عليها تجنب الانفصال المتبادل مع التقدير الذاتي. وعلى سبيل المثال، يزعم الكثيرون من الزنوج أن ظروفهم تتغير بصورة أكثر «خشونة». ولكن قصدهم الحقيقي أن يقولوا إنهم مازالوا لم يصلوا إلى المستوى الذي يتطلعون إليه»[3].

إن ظاهرة «الآمال المضادة» تجعل الناس تتولد لديهم «مشاعر الخسارة النسبية» أو «مشاعر الحرمان النسبي». ويشعر الناس بالخسارة النسبية عندما لم تستطع آمالهم أن تكون واقعا. وفي عبارة أخرى، عند مقارنة ذلك بالصينيين وتطلعاتهم في تلبية الاحتياجات الهادئة على الصعيد المادي، نجد أن الصينيين يشعرون بالحرمان في أثناء التلبية الحقيقية لتلك الاحتياجات[4]. ومن ناحية أخرى أن تطور الاقتصاد التجاري وسع الفجوة بين دخل الأفراد ومستوى الاستهلاك في المناطق المختلفة، وبين الفئات الاجتماعية المتباينة، والمهن والوظائف والمؤسسات المختلفة، وفي الواقع مازالت توجد المجتمع ظاهرة التوزيع غير العادل التي عززت شعور الناس بـ «الحرمان النسبي» أيضا. وكما ذكر ماركس على هذا النحو:

«بصرف النظر إذا كانت بناية ما صغيرة، فإنها تستطيع تلبية كل متطلبات الإسكان في المجتمع مادامت البنايات المحيطة بها صغيرة مثلها. ولكن، عندما ينتصب بجوار تلك البناية قصر شامخ، فإنها تتضاءل وتصبح في شكل كوخ مسكين»[5].

إن «مشاعر الحرمان النسبي» تجعل الناس يشعرون بالضغط والقلق والهم النفسي، وبالتالي يصدر عنهم بعض السلوكيات العاطفية. وعلى سبيل المثال، في السنوات القليلة الماضية انبثق من داخل المناطق الاتجاه الأعمى والهدام جدا للمقارنة غير الواقعية والذي يضاهي نطاق الإنشاءات، وسرعة التنمية، والبنايات والمساكن، والأجور والرفاهية والأبهة والعظمة والترف، بل حتى ينافس زيادة الأسعار. ويخشى الجميع الخسارة والتخلف، ويحرفون الأعمال الاقتصادية في ظل الضغط النفسي لـ «مشاعر الحرمان النسبي»، وفي الوقت نفسه، يسببون عدم الاستقرار الجديد في النظام الاقتصادي والسياسي.

لقد سببت مشاعر «الآمال المضادة» و«الحرمان النسبي» اختلال التوازن

النفسي ومشاعر القلق والهم لدى الصينيين المعاصرين، وتظهر مشاعر القلق والهم في عدم الاستقرار الاجتماعي واختلال التطور الاقتصادي في تحولات التحديث. وفي الوقت ذاته، تصبح مشاعر القلق والهم أحد أسباب عدم الاستقرار الاجتماعي، كما تصبح الآلية الخفية للاضطراب الاجتماعي بفعل تأثيرها الوظيفي الخاص بها.

وتتسم المشاعر الاجتماعية من القلق والهم بالتأثيرات المهمة التالية:

1-التأثير سريع الانتقال

تتميز الأحوال النفسية الاجتماعية والمشاعر بخصائص التأثير المتبادل والمحاكاة والاستجابة، وعلى سبيل المثال، إذا كان شخص ما لديه مستوى معين من الشعور بالنكسة ومشاعر عدم الرضا، فإنه ينقلها إلى أفراد أسرته، كما ينقل إلى الزملاء والأصدقاء عدم توازن أحواله النفسية من خلال اللغة وتعابير الوجه والسلوك، ويجدون لدى أنفسهم المشاعر نفسها والصدى.

2-التأثير الجماعي المتعاظم

عندما يتجمع الأفراد وتتجه نقاط التأثير الشديدة لديهم إلى التشابه، وتزداد حدة الاحتكاك بين مصالح الجماعة والمجتمع، وتقوم وسائل النشر الجماهيرية بالتركيز الشديد على المشاعر الاجتماعية، بالإضافة إلى زيادة سرعة الصدمات وتكوينها داخل السيكولوجية الاجتماعية يسبب ذلك كله تعاظم اختلال السيكولوجية الاجتماعية بين أفراد الجماعة، ويؤدي إلى ظهور ما يطلق عليه «نقاط الجذب الاجتماعية» التي تخطف أنظار بعض الأفراد وتؤدي إلى التهاب المشاعر وعدم استقرارها. إن «التأثير الجماعي المتعاظم» يجعل اختلال التوازن النفسي الاجتماعي ومشاعر القلق والهم يتسمان بالانفجار المحدود.

3-تأثير إعاقة نشر الإقناع

إن ما يطلق عليه «نشر الإقناع» هو أن يتعمد الناشر نقل ونشر معلومات قد خضعت للبحث والإعداد حتى يستطيع تغيير أسلوب متلقيها ومعلوماته

وطريقته. وعلى سبيل المثال، يشجع رؤساء المؤسسات العمال على بذل الجهود المضنية في العمل وزيادة إنتاجيته، وتدعو الصحف والمجلات الناس إلى «الاهتمامات الخمسة، والأشياء الأربعة الجميلة، وحب الأشياء الثلاثة»[6]. وكلها تعد نوعا من نشر الإقناع. ولكن، في ظل اختلال توازن الأحوال النفسية والشعور بالقلق والهم، يختار الناس عادة المعلومات المنشورة ويقيمونها حسب أسلوبهم العاطفي ويكونون بعض أفكار التعصب الأعمى. إن أسلوب التعصب الأعمى والأفكار يوطد كل منهما الآخر ويتبادلان التأييد داخل الجماعة، ويلعبان دور القمع والإعاقة تجاه المعلومات المنشورة. ومن ناحية أخرى، تفتقر جماهير الشعب إلى المعلومات الصحيحة والدقيقة، ولديهم الحساسية الشديدة تجاه كل أنواع المعلومات، ثم تنبثق الشائعات من كل مكان، وتكثر الشكوك والهواجس.

4- تأثير الإكراه

تعيش جماهير الشعب في البيئة النفسية ذات الحساسية الشديدة والاضطراب في ظل اختلال توازن الأحوال النفسية، ويفقد الناس عادة الشعور الذاتي ويلجأون إلى بعض التصرفات التي لا ينتهجونها عندما يشعرون بالاستقلال. وذلك ما يطلق عليه «اندثار الشعور الذاتي». وبسبب علاقات التأثير المتبادلة، يتبع الفرد غالبا داخل الجماعة بطريقة عمياء بعض الأعمال التي يمارسها الآخرون ولا يعرف هو ممارستها في العادة، ويتغير بطريقة تجعله من السهل أن يتقبل اقتراح الآخرين إلى حد ما، ويطيع الشخصيات القيادية طاعة عمياء، وعلى سبيل المثال، في التهافت الجنوني على الشراء، تفتقر جماهير الشعب إلى الفهم الصحيح والدقيق لمعلومات الأسواق وتقييمها وتنتشر في أصقاع المجتمع بصورة رئيسية السيكولوجية الاستهلاكية الإلزامية التي تتفوق على الأوضاع العادية وتدعو إلى «الشراء في الوقت الحاضر جيد، والمستقبل أكثر غلاء». بالإضافة إلى أن وسائل النشر الجماهيرية تقوم بالدعاية آنذاك إلى: «أن إصلاح الأسعار يتخطى الصعوبة بشجاعة». وتنتهز الأقسام التجارية الفرصة وترفع الأسعار، ويزداد الطين بلة من جراء ارتفاع الأسعار المتتالي، مما يسبب الرعب النفسي واسع النطاق عند جماهير الشعب نتيجة زيادة الأسعار، والشعور

بعدم الأمان الناجم عن انخفاض قيمة الودائع المالية. ولذا، في المحاكاة والتنافس المتبادل على التهافت على الشراء، يوجد الكثير من الأشياء المتهافت على شرائها في الواقع لا يحتاج إليها المستهلكون في الوقت الحاضر. وبعد التهافت الجنوني على الشراء ويهبط السوق بعد ارتفاعه، يصرخ الناس من الخداع ويبدأون الاحتراس الشديد من شراء الأشياء. وتكون النتيجة تبلور ظاهرة «ترقب وانتظار اكتناز الأموال»، وكما يقول البعض: «كلما انخفضت الأسعار، انخفض الإقبال الجماهيري عليها». وفي الواقع، إن «التهافت الجنوني على الشراء» و«ترقب وانتظار اكتناز الأموال» يعتبران مرض الطفولة الاستهلاكي الذي يظهر تحت تأثير إكراه فقدان التوازن النفسي والاجتماعي.

ويتسم تأثير اختلال توازن الأحوال النفسية ومشاعر القلق المذكورة آنفا بملامح السطحية والتشوش الذهني والافتقار إلى النظام، إنه تأثير غيرمستقر وغير ثابت. ولكن، تلعب مشاعر القلق دور الإعاقة الكبيرة جدا في الاستقرار السياسي والاقتصادي في المجتمع. وأصبحت ظاهرة الحمى الاقتصادية في السنوات القليلة الماضية الإعاقة غير الاقتصادية للحركة الاقتصادية بسبب أن التناسل وانتقال مشاعر القلق وانتشارها في المجتمع ابتعدا عن تعزيز التطلعات والمشاعر المستقرة بصورة واقعية، وجعلت تلك الظاهرة النظام الاقتصادي يتقدم نحو الاضطراب تدريجيا. وما يسمى بـ «الحمى» الاقتصادية ليس ظاهرة اقتصادية فحسب، بل يشتمل على المفهوم النفسي الاجتماعي العميق، ومن منظور الوظيفة السلبية، تصبح عقبات المشاعر الجماعية من القلق والهم الآلية الكمنة لعدم استقرار النظام السياسي واضطراب الحركة الاقتصادية.

ولكن، هناك أيضا وظيفة جانبية أخرى لاختلال توازن الأحوال النفسية الاجتماعية وشعور الجماهير بعدم الاستقرار، وهي التحذير المبكر إزاء المشاكل الاجتماعية واتجاهات عدم الاستقرار الاجتماعي التي يحتمل ظهورها ولفت انتباه الحكومة والإدارات المعنية تجاه بعض الميول، وذلك من أجل إيجاد الآلية الفعالة للسيطرة الاجتماعية في وقت مبكر بقدر الإمكان. بالإضافة إلى المعالجة المسبقة لأعمال الانفجار الجماعي التي ربما تظهر على حين غرة، والقضاء على الاضطرابات الاجتماعية التي يحتمل ظهورها

في مهدها، أو إمكان تضييق نطاقها واختزال فترة استمرارها، ولذا يعم الاستقرار الوضع العام. ولكن هل وظيفة التحذير المبكر فعالة أم لا، فإن ذلك يتطلب النظر إلى صحة وسرعة قنوات تلقي المعلومات التي تعبر عنها كل الإدارات المعنية بشأن الأحوال النفسية الاجتماعية والمشاعر الجماهيرية والتأكد من التحليل الصحيح والدقيق لها، ناهيك عن مدى كيفية الاهتمام بها. وفي عام 1988 تقريبا، تبلورت ظاهرة اجتماعية عجيبة وغريبة يطلق عليها: «إنجازات الشعر الشعبي الباهرة». وفي الواقع، إن تلك «الأشعار الشعبية» تعد نوعا من أساليب التعبير عن مشاعر الاستياء الجماهيري تجاه ظاهرة بعض الأخطاء في الإصلاح، وفساد بعض المسؤولين في ممارسة المضاربات التجارية من خلال استغلال مناصبهم الرسمية، والتوزيع غير العادل وغيرها من الظواهر الأخرى. ويعد انتشار الكم الهائل لما يطلق عليه «الأشعار الشعبية» في حد ذاته تحذيرا مبكرا لفقدان توازن الأحوال النفسية وعدم الاستقرار والقلق لدى جماهير الشعب، كما أنه تحذير مبكر لاحتمال ظهور المشاعر الاجتماعية المتذبذبة. ولكن، إذا لم يؤد ذلك التحذير المبكر آنذاك إلى إثارة الاهتمام واسع النطاق داخل كل المجالات الاجتماعية، فعلى العكس يسبب العواقب الوخيمة من خلال بعض أساليب النشر المعينة التي تعزز انتشار تلك الأحوال النفسية والمشاعر الاجتماعية وتوسع نطاقها.

الهوامش

(1) إليسورث هينتنجتون، «النظام السياسي في المجتمع المتغير» دار التراجم للنشر في شنغهاي، طبعةعام 1989، ص45, 49-50.

(2) انظر المصدر رقم (1)، ص 61, 59.

(3) دانيل بيل، «تناقض ثقافة الرأسمالية»، مكتبة سان ليانغ، ص237-238.

(4) كان العالم البريطاني بطرس طومسون Peter Thomson أول من طرح مفهوم «الحرمان النسبي» في عام 1979. وأشار إلى أن مفهوم الاحتياج يتعرض لقيود الظروف الاجتماعية إلى حد كبير. وأن الاحتياجات التي يعترف بها المجتمع، وقيم الحياة اليومية وأسلوب الحياة وغيرها يتغير مع مرور الزمن. ويستطيع الناس أن يقدموا قائمة مفصلة للأشياء أو للأنشطة التي يعتقدون أنها الاحتياجات العادية لهم في المجتمع، وعلى سبيل المثال، في المجتمع الغربي يأكل الناس اللحوم مرة واحدة أسبوعيا. ويرسلون بطاقات عيد الميلاد مرة واحدة سنويا، ويعد ذلك مطلبا واسع الانتشار. وعندما يكتشف الناس أنهم لا يستطيعون تلبية بعض احتياجاتهم بسبب الدخل غير الكافي، فإنه يمكن القول إنهم بدأوا يعيشون حالة «الحرمان النسبي»، كما بدأوا حياة الفقر أيضا. ويقول بطرس طومسون: «عندما يفتقر بعض الأفراد والأسر والجماعات إلى الموارد الكافية للحصول على اعتراف المجتمع الذي ينتمون إليه، فإنهم لا يستطيعون -بصفة عامة- التمتع بالأكل والشراب، والظروف الاجتماعية، والهدوء وفرصة الاشتراك في بعض الأنشطة. وعلى هذا النحو، نستطيع أن نقول إنهم يعيشون في حالة من الفقر، ويتم إبعادهم خارج نطاق أسلوب الحياة العامة والتقاليد والأنشطة من جراء افتقارهم إلى الموارد». (انظر «الفقر في إنجلترا» اقتباس من كتاب «علم التطور الاجتماعي» تأليف: أندرو ويبستر Andrew Webster، دار شياهوا للنشر، طبعة عام 1987، ص5).

(5) ختارات ماركس وإنجلز»، المجلد الأول، ص 367 [بالصينية].

(6) تؤكد الأخلاق الشخصية في الصين الاهتمامات الخمسة وهي: اللياقة، السلوك، الأحوال والعادات الجيدة والمفضية إلى الصحة، النظام الشخصي، والأخلاق النبيلة. وأن الجمال يعتمد على تجميل أربعة أشياء هي: النفس واللغة والسلوك والبيئة. وتدعو وسائل الإعلام الناس إلى حب ثلاثة أشياء هي: الوطن والاشتراكية والحزب الشيوعي الصيني [المترجم].

8 نداء من أعماق النفس: من التشرد إلى الاستقرار

إن «الهجرة الثقافية» وظاهرة «الانحراف الثقافي»، وفقدان توازن الأحوال النفسية الاجتماعية ومشاعر القلق لدى الجماهير تعد بمنزلة الأحوال النفسية الاجتماعية التي تحتم ظهورها في تحولات التحديث. ويوضح ظهور تلك الأحوال النفسية الاجتماعية من عدم الاستقرار والانسجام وفقدان التوازن وفوضى التشرد أن الصينيين قد خرجوا من الجو النفسي الاجتماعي للمجتمع التقليدي حيث نزعة المحافظة والتخلف واستقرار قاع المجتمع، واجتازوا، ويجتازون الآن، التجربة القاسية للتغييرات الاجتماعية الهائلة. كما يوضح أن الأحوال النفسية الاجتماعية للصينيين تجتاز التحول والتغيير التاريخي. إن الأحوال النفسية الاجتماعية لفوضى التشرد هي حلقة ضرورية لانتقال الصينيين من «التقليديين» إلى «المعاصرين». وتشهد طبيعة الصينيين النفسية من خلال اجتياز حلقة الانتقال والتعديل والتجديد تلك، وتتغلب على أسلوب النفسية الاجتماعية وطبيعتها لدى «التقليديين» من نزعة المحافظة

والانغلاق والتخلف، وترسم الصورة النموذجية لأسلوب النفسية الاجتماعية وطبيعتها عند «المعاصرين» من الانفتاح والأخذ بزمام المبادرة والإبداع. ويعد تعديل النفسية الاجتماعية وتجديدها جانبا مهما لتعديل «القومية» وإعادة بناء الشخصية القومية والفكر الثقافي.

ولكن، على الرغم من أن عملية التحديث يتمخض عنها عدم استقرار الأحوال النفسية الاجتماعية، فإن العصر الحديث يتطلب الاستقرار. إن فوضى تشرد الأحوال النفسية الاجتماعية التي جسدها المعاصرون الصينيون هي ظاهرة تتسم بالحتمية التاريخية، ولكنها مع ذلك تعد انحرافا عن الوضع الطبيعي ونوعا من حالة الاغتراب النفسي. ومن الناحية الذاتية، يعد الاحتفاظ باستقرار الأحوال النفسية وانسجامها وتوازنها بمنزلة الشروط المهمة للحصول على الشخصية السليمة. ومن الناحية الاجتماعية المستقرة، يعد استقرار الأحوال النفسية والاجتماعية وانسجامها وتوازنها بمنزلة الشروط المهمة للتطور الاجتماعي الصحيح. ويرمز ذلك إلى المجتمع السليم وتمدينه وتقدمه أيضا. ولذلك، يجب على اتجاه تطور الأحوال النفسية الاجتماعية وتجديدها أن يجتاز فترة عدم الاستقرار والانسجام واختلال التوازن في الوقت الحاضر، ويصل إلى أقصى درجات الاستقرار والانسجام والتوازن على الأساس الحديث.

إ ن نداء النفس المتشردة يبحث عن «وطن» الاستقرار ويتوق إلى إعادة بناء نظام الحياة النفسية المستقرة. ويحتاج ذلك إلى إنجاز التحول من التقليديين إلي «المعاصرين»، وإنجاز تغيير الخصائص النفسية لـ «التقليديين» إلى الخصائص النفسية لـ «المعاصرين». ويعد تحقيق هذا التغيير بمنزلة إنجاز الصينيين لمرحلة «الانتقاليين» التاريخية أيضا، حتى يصبحوا من «المعاصرين» الذين يمتلكون الطراز والأسلوب الحديث ويتكيفون مع المجتمع الحديث.

إن مثل تلك التحولات الأساسية في السيكولوجية الاجتماعية -بصفة عامة-مازالت في حاجة إلى أن تقوم الأجيال بتحقيقها بصورة متتالية. وفي مرحلة الإصلاح والانفتاح والوضع الجديد لبدء بناء التحديث بصورة شاملة، دخلت عدة أجيال من الصينيين في العصر الحديث على أساس الآراء المتشابهة الموجودة في ذلك العصر، وهم يحملون تقاليد السيكولوجية الثقافية

التي تنتمي إلى العصور البعيدة. ولذلك، على الرغم من أن تلك الأجيال تواجه مشكلة التجديد النفسي، ولكن بالنسبة لكل جيل يختلف مغزى تلك المشكلة وموضوعها ومستواها وغير ذلك. ونقول بصفة عامة: كلما زادت سرعة التطور التاريخي، تتسم التغييرات التي تحدث في النطاق الزمني لكل وحدة بالمغزى الاجتماعي المتنوع، وكلما كان الاختلاف بين جيلين واضحا تصبح آلية نشر ثقافتهما أكثر تعقيدا. وفي الأصل إن العلاقة بين جيلين في أي مكان ليست، بل من المستحيل أن تكون، متماثلة أو متعادلة تماما. ولا يمكن تحقيق التواصل التاريخي وتقدمه إلا من خلال اجتياز نوع ما من الاختلاف والتغيير. ويلعب جيل الشباب داخل ذلك الاختلاف والتغيير الدور الإيجابي الأكبر، وذلك لأنه عندما يشعر جيل القدامى، الذي يحمل الجزء الأكبر من سيكولوجية الثقافة التقليدية، بالغرابة تجاه البيئة الثقافية الجديدة وصعوبة التوافق معها، ربما يتمكن جيل الشباب من الموضوع الفكري للبيئة الثقافية الجديدة بسرعة، ويعدل نفسيته وسلوكه بصورة إيجابية، ويشعر الشباب بالحساسية الشديدة نسبيا إزاء الأشياء الجديدة ويتقبلوها بسهولة بسبب أن عناصر السيكولوجية الثقافية التقليدية التي حذو حذواها كانت قليلة نسبيا. وخاصة جيل الشباب الذي ظهر بعد «الثورة الثقافية»، نقول بدقة إنه ليس من «المهاجرين الثقافيين» عند مقارنته بعدة أجيال سابقة نشأت في بيئات ثقافية متباينة، وأن تكيف حاجاته وفقا للأوضاع الاجتماعية وتعليمه تم في البيئة الثقافية الجديدة، ولذا يتوافق معها. ولذلك، وانطلاقا من المنظور بعيد المدى، فإن أي تحول للسيكولوجية الاجتماعية وتجديدها يجتاز الإحلال بين الأجيال حتى يتحقق في النهاية. وتحقق السيكولوجية الاجتماعية تحولها وتجديدها مع إعداد جيل الشباب ونضجه[1].

ولكن، في ضوء الأوضاع الحالية، تعد البيئة النفسية الاجتماعية المستقرة بمنزلة المطلب الملح للإصلاح والانفتاح وبناء التحديث. ويعتبر هذا المطلب الركيزة الأساسية لبناء التحديث لدى «الصينيين المعاصرين» الذين يعدلون النفسية الاجتماعية بوعي، ويعملون على إيجاد مثل هذه البيئة. وعلى الرغم من أن الصينيين المعاصرين يتصفون بخصائص شخصية «الانتقاليين»، ولكن هناك إمكان أن يحققوا تغيير النفسية الاجتماعية وتجديدها إلى حد

ما، ويعززوا صحة تلك النفسية واستقرارها من خلال اجتياز التعديل النفسي الواعي، ومنح شخصيتهم الحياة من جديد. ويقودنا ذلك إلى القول بأنه على الرغم من أن تغيير الطبيعة النفسية عند الانتقال من «التقليديين» إلى «المعاصرين» يحتاج إلى مرحلة انتقالية طويلة جدا وعدة أجيال، فإنه في مسيرة التحديث يستطيع الناس التغلب على السيكولوجية المتخلفة للتقليديين من خلال تعديل الطبيعة النفسية الثقافية بصورة واعية، ثم يجعلون التقليديين يتحولون إلى اتجاه «المعاصرين»، وينشئون الأحوال النفسية السليمة التي تتلاءم مع مسيرة تحولات التحديث. إن تلك الطبيعة النفسية ليست طبيعة «المعاصرين» بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ولكنها تتناسب مع اتجاه تطور «المعاصرين» والاقتراب منه، ومع بيئة «نموذج الانتقال» الاجتماعي الثقافي في عملية تحولات التحديث. ومن ثم، تعد تلك الطبيعة النفسية صحيحة ومنسجمة ومستقرة. إن الأفراد الذين يجتازون ذلك التغيير النفسي يتمتعون بقوة التحمل النفسي تجاه الإصلاح والانفتاح وتغييرات التحديث والتحولات الاجتماعية، ويستطيعون الاشتراك في الإصلاح والتحديث ودفعهما إلى الأمام بصورة إيجابية.

إن تعزيز السيكولوجية الاجتماعية والتطور المستقر يحتاجان أولا إلى إيجاد البيئة الثقافية الاجتماعية المستقرة، ويبدو هذا المطلب وكأنه يتناقض مع اتجاه الإصلاح والانفتاح وتحولات التحديث. وذلك لأن من المؤكد أن يؤدي الإصلاح والانفتاح وتحولات التحديث إلى التغيير الاجتماعي الهائل وعدم الاستقرار الاجتماعي. ولكن الاستقرار وعدم الاستقرار في العملية الطويلة لتحولات التحديث يكون نسبيا. إن عملية التحول الطويلة لا تعرقل الاستقرار النسبي المرحلي. وفي الواقع، يوجد في تلك العملية بعض الفترات التي تشهد تطور الاستقرار النسبي، وذلك حتى نستطيع ضمان استمرار التطور، ولذلك مازال يوجد إمكان تأسيس مرحلة تشهد تطور رالاستقرار النسبي في المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والمجالات الأخرى في الإصلاح والانفتاح وبناء التحديث الذي تشهده الصين في الوقت الحاضر، ومن ناحية أخرى، تستطيع أيضا بعض الإدارات والمناطق في مرحلة التغييرات الكبرى في المجتمع تكوين البيئة الصغيرة ذات الاستقرار النسبي وتهيئة الظروف الجزئية للسيكولوجية الاجتماعية المنسجمة

والمستقرة والجو الثقافي، وتدفع السيكولوجية الاجتماعية السليمة والتطور المستقر إلى الأمام.

ويبدأ تعزيز السيكولوجية الاجتماعية السليمة والتطور المستقر من جانبين أساسيين هما: الأول، إعداد أفراد المجتمع وقيادتهم إلى تكوين الوعي النفسي السليم والقيام بالتعديل والتجديد الذاتي للطبيعة النفسية بصورة واعية. أما الجانب الثاني، فهو إنشاء الآلية الفعالة التي تمارس السيطرة على السيكولوجية الاجتماعية ومشاعر جماهير الشعب، بالإضافة إلى التمكن من الأحوال النفسية الاجتماعية وتكيفها وجعلها تتجه نحو اتجاه التطور السليم.

إن توجيه أفراد المجتمع إلى ممارسة التعديل والتجديد الذاتي للطبيعة النفسية بصورة واعية هو في حد ذاته يعد تحقيقا لتغيير السيكولوجية الاجتماعية وتجديدها من خلال منح الشخصية الذاتية الحياة من جديد. وفي المقام الأول، يتطلب تجديد الطبيعة النفسية ومنح الشخصية الذاتية الحياة من جديد تأسيس «الوعي النفسي الصحيح»، واعتبار الأحوال النفسية السليمة والشخصية الصحيحة التي تم تكوينها بمنزلة واجب مهم يجب أن يتحمله الفرد من أجل سعادته الذاتية وسعادة المجتمع، ومن المنظور الذاتي، تبرز الأحوال النفسية السليمةالطاقة الكامنة الذاتية والقيم الذاتية بصورة كافية، وتتجه تلك الأحوال نحو الهدف الأساسي للشخصية المثالية لدى المعاصرين. وقد ذكر العالم النفسي الأمريكي جولد ستان Gold Stan أن الصحة تعد نوعا من القيم، وإذا أراد الإنسان أن يحقق جوهر ذاته، لا يجد مفرا من ممارسة الاختيار بين مظاهر المرض والصحة. وعلى الصعيد الاجتماعي، تسهم الأحوال النفسية السليمة في إقامة الوشائج الإنسانية والطيبة، وتستطيع أن تؤثر في الآخرين بفعل المشاعر السليمة والإيجابية، وتساعد على تشكيل البيئة النفسية والاجتماعية المستقرة. ولذلك، يقع على عاتق كل إنسان-باعتباره عضوا اجتماعيا-الالتزام باختيار شخصيته الذاتية السليمة ويتحمل مسؤولية ذلك الاختيار. ومرة أخرى، يجب على الإنسان اتباع بعض مبادىء التوجيه الأساسية من أجل تحقيق تجديد الطبيعة النفسية وتطورها السليم، وعلى سبيل المثال: يكن الإنسان في صدره الأفكار الإيجابية تجاه ذاته وعالم الحياة، ويؤسس العلاقات الإنسانية الوثيقة

والودية، ويستغل بعض الوقت ليتأمل محاسبة ذاته ببرود كامل، ويفهم شخصيته الذاتية في أحسن وجه، ويحرز النجاح في كل جوانب المهارة الفنية الخاصة بتطوير المجتمع والذكاء والوظيفة، ويتصل بالأفكار الجديدة والمفاهيم الجديدة ويتسم بالرؤية المستقلة في التعامل مع الآخرين، ويبحث عن الطرق الصحيحة ليعبر عن مشاعره الذاتية بصورة كافية، ويعزز مستوى النزعة الاستقلالية دائما، كما يتصف بالقوة الإبداعية الكبرى، والاهتمام بالآخرين. إن تطبيق تلك المبادىء سوف يسهم في إعداد الشخصية الذاتية السليمة لدى الإنسان الذي يحقق الاستقرار والانسجام الداخلي، ويتكيف مع الحياة الاجتماعية الحديثة. وإذا كان السواد الأعظم من أفراد المجتمع يتمتعون بالأحوال النفسية السليمة نسبيا، فإنهم يستطيعون التوافق مع الحياة الاجتماعية الحديثة ويظهرون الاستجابة الإيجابية إزاء تغييرات البيئة الاجتماعية. وعلى هذا النحو، تعرف السيكولوجية الاجتماعية الانسجام والتطور السليم والاستقرار أيضا[2].

ولكن، تظهر في المجتمع السليم ظاهرة فقدان توازن الأحوال النفسية الاجتماعية وقلق المشاعر الجماهيرية بكل تأكيد. ومن الوسائل المهمة لمعرفة ما إذا كان المجتمع مستقرا أو لا، النظر إليه إذا كان يمارس الآلية الفعالة للسيطرة الاجتماعية على الأحوال النفسية الاجتماعية والمشاعر الجماهيرية أو لا، وهل يستطيع ذلك المجتمع التأكد من اتجاه الأحوال النفسية والمشاعر عند الجماهير في الوقت المناسب ويعدل الأحوال النفسية الاجتماعية بسرعة، وينظم المشاعر الجماهيرية، ويقوي وظيفة الاتجاه الرئيسي للنفسية الاجتماعية بسرعة، وينظم المشاعر الجماهيرية، ويقوي وظيفة الاتجاه الرئيسي للنفسية الاجتماعية والمشاعر الجماهيرية، ويبدد وظيفة الاتجاه السلبي لدى الجماهير ويتغلب عليه أو لا.

ويشتمل تأسيس الآليات الفعالة المسيطرة على الأحوال النفسية الاجتماعية والمشاعر الجماهيرية على الجوانب الأساسية التالية:

١- آلية التغذية الاسترجاعية للمعلومات التي تستطيع في الوقت المناسب التأكد من درجة واتجاه الأحوال النفسية الاجتماعية والمشاعر الجماهيرية، وتدرك المشاكل الأكثر إلحاحا التي تهتم بها الجماهير، وخاصة أهداف السيكولوجية الاجتماعية تجاه بعض السياسات والإستراتيجيات المقررة،

والتغذية الاسترجاعية لبعض المعلومات المنشورة وغيرها.

2- آلية تعديل التعويضات. تضطلع تلك الآلية باتخاذ إجراءات التعويض المناسبة لمواجهة الشعور بالنكسة أو مشاعر الاستياء بين الجماهير، وتصحح توازن السيكولوجية الاجتماعية، ويمكن أن يكون التعويض مباشرا بمعنى محاولة تلبية حاجات الجماهير في جانب ما بقدر الإمكان. كما يمكن أن يكون التعويض غير مباشر، بمعنى القيام بالتعويض من خلال بعض أساليب الإحلال.

3- آلية تبديد السخط، ويعني ذلك ضرورة إطلاق الطاقة النفسية المتراكمة داخل مشاعر الاستياء والاضطراب لدى الجماهير من خلال القنوات الملائمة وتحقيق التوازن النفسي لديهم من خلال التنفيس عن تلك المشاعر. وعلى سبيل المثال، ينصت رئيس المؤسسة بصبر إلى العمال والإداريين وهم يبثون شكواهم وعدم رضاهم، وعندما ينتهي من إلقاء كلمته، يشعر بأن قلبه أكثر ابتهاجا ويستعيد مشاعره العادية المستقرة.

4- آلية توجيه الدعاية التي تعزز توجيه الاتجاه الرئيسي للأحوال النفسة الاجتماعية والمشاعر الجماهيرية بفضل وسائل النشر الجماهيرية، وتشجع الدعاية القيادية والقيام بتعميق الأفكار وغيرها من الأساليب الأخرى، وفي الوقت ذاته، تمنح تلك الآلية الشعب المعلومات الصحيحة والدقيقة حتى يدرك الأحوال الحقيقية. وعلى هذا النحو، يمكن تعزيز إمكان الإقناع وتحقيق النتائج المرتقبة.

ونقول بصفة أساسية، إن تعزيز السيطرة الاجتماعية على الأحوال النفسية الاجتماعية والمشاعر الجماهيرية يتطلب اجتياز الدور المتبادل للآليات المذكورة آنفا، وتنظيم المشاعر، وتعديل السيكولوجية الاجتماعية، وجعل نفسية الجماهير تظهر أوضاع الانسجام والتوازن والاستقرار، وتفيض ملامحهم الروحية بالتفاؤل والحماسة والمظهر الإيجابي المتقدم. ولكن،و يجب على الصينيين الانصياع لركيزة هذا العصر الأساسية والتاريخية من أجل تعزيز السيطرة على الأحوال النفسية والمشاعر الجماهيرية. ويعني ذلك تشجيع السيكولوجية الاجتماعية على التقدم نحو اتجاه التغيير والتجديد الحديث، وجعل تلك السيكولوجية تتناسب مع عملية تحولات التحديث. بالإضافة إلى جعل السيكولوجية الاجتماعية واستقرار المشاعر

يقومان على مستوى الأساس الحديث والجديد، وليس في اتجاه الردة إلى السيكولوجية الثقافية التقليدية. إن استقرار السيكولوجية الاجتماعية في المستويات الحديثة يهيىء البيئة النفسية التي تسهم في الإصلاح وبناء التحديث، ويمنح الاستقرار الاقتصادي والسياسي والثقافي في المجتمع التطور السليم والتأثير الإيجابي.

الهوامش

(1) تقول مارجريت ميد: «إنه في مجتمعنا الذي يشهد مثل ذلك التغيير الاجتماعي الهائل من الصعب تحاشي حدوث انفصال بين جيلين في جانب التعليم وأسلوب الحياة»، «إن الأشخاص الجدد في كل جيل سوف يمرون بالعالم التكنولوجي المختلف»، «إن مثل ذلك الانفصال بين الجيلين جديد تماما: حيث إنه عالمي ويتسم بالانتشار والذيوع». (مارجريت ميد: «الاختلاف بين الأجيال»، دار صحيفة النور اليومية للنشر، طبعة عام 1988، ص63, 66).

(2) انظر كتابي المتواضع «علم اختيار الشخصية» الفصل الخامس «الاتجاه نحو الشخصية السليمة». وقد ناقشت فيه مسألة الشخصية السليمة ومظاهر مرضها بصورة تفصيلية، وذلك من زاوية تطور الشخصية الذاتية. كما ناقشت مسألة كيفية التغلب على مظاهر مرض الشخصية وتطورها السليم. («علم اختيار الشخصية»، دار الشعب للنشر في مقاطعة لياو لينغ، طبعة عام 1991).

الباب الثالث
فقدان المعاني
والمصداقية الثقافية

٩ التحديث وفقدان الاهتمام المطلق

إن فقدان المغزى الثقافي التقليدي من أهم المشاكل التي يواجهها الصينيون في طريق تقدمهم نحو التحديث. وسوف يدل فقدان المغزى الثقافي على أن الصينيين يجب عليهم إعادة التفكير في مغزى وجودهم، ويعد ذلك مسألة أساسية في حياتهم، كما يجب عليهم تحديد مركز قوة أنشطة حياتهم من جديد.

إن البحث عن المغزى الثقافي وفهم وتفسير المغزى الأساسي لحياة الإنسان والعالم يعد نقطة الانطلاق الأساسية لأنشطة الإنسان في الحياة وجوهر أنشطة البشرية الثقافية، ويجب أن يكون الهدف الأساسي من وجود الإنسان وأنشطته وإبداعه في العالم هو تأكيد مغزى قيمه الذاتية، بمعنى يجب على الإنسان إدراك ومعرفة بعض المسائل المتعلقة بأصل الحياة مثل: «من أنا؟»، و«كيف يكون عالم حياتي؟»، و«كيف تكون مكانتي في العالم؟». وفي الواقع تحتاج تلك المسائل إلى إجابة الفلسفة، كما أنها المسائل الرئيسية التي تناقشها الفلسفة أيضا. وشكل الإنسان «الاهتمام المطلق»

الذاتي في الحياة في أثناء البحث عن مغزى القيم في الحياة والتاريخ، ويتجاوز ذلك الاهتمام عالم الحياة الواقعية، ويمنحها «الحقيقة الواضحة»، كما يمنح أنشطة الإنسان في الحياة المغزى والقيم والهدف النهائي، وذلك من خلال تطلعات الحياة بعيدة المدى (من الاهتمام المطلق، والقيم التي تتجاوز نطاق التجربة). ولكن يكمن «المغزى» في التفسير، وقدمت الثقافة للناس هيكل تفسير المعاني. وأهم جزء في كل ثقافة هو تكوين «صورة العالم» الخاصة بها اعتمادا على وجهة نظرها الكاملة إلى العالم، ووجهة نظرها إلى الحياة والقيم وغيرها من نظم المفاهيم، وتعتبر الثقافة أساس ذلك «المغزى الثقافي» الذي يبحث عنه الناس، ويتسم ذلك المغزى الثقافي بالمشاركة المتبادلة، ولذلك فإن الإنسان الذي يعيش داخل النظام الثقافي المتشابه يستطيع الاتصال والتبادل والتعاون مع الآخرين ويفهمهم. إن الإدراك المشترك لأساس «المغزى الثقافي» هو جوهر الثقافة. وذكر عالم الأنثروبولوجيا كليفت غيتس Clift Getts أنه: «يصدق ما ذكره ماركس ويبير Weber من أن الإنسان هو الحيوان الذي يتعلق في شبكة المعاني التي ينسجها بنفسه، ولذلك اعتقد أن الثقافة هي الشبكة التي تتسم بتلك المعاني»[1].

إن الثقافة هي شبكة المعاني التي يتم نسجها من الحياة ذات الإدراك المشترك بين أفراد المجتمع، ومن المغزى الأساسي للعالم الذي يحيط بالثقافة. ولذلك، يمتلك كل نظام ثقافي اجتماعي شبكة المعاني الكاملة، ونظام الرموز التي تعبر عن المغزى الثقافي، ويعيش الإنسان داخل شبكة المعاني الثقافية تلك، ويحصل على التأييد الثقافي لأنشطة حياته الذاتية و«الاهتمام المطلق» الذي يتجاوز الحياة من داخل تلك الشبكة، وأشار دانيل بيل إلى أن:

«يحاول كل مجتمع أن يؤسس نظام المعاني الذي يظهر الناس من خلالها علاقتهم بالعالم، وتحدد تلك المعاني عددا من الأهداف التي فسرت، على غرار ما فعلت الأساطير والمراسم، خصائص التجربة المشتركة أو تغير الطبيعة من خلال قوة الإنسان السحرية أو قوته الفنية، وتتجسد تلك المعاني في الدين والثقافة والأعمال، وينجم عن فقدان المعاني في تلك المجالات حالة الحيرة والارتباك التي لا يستطيع الناس تحملها، ولذا، تجبرهم على البحث عن معان جديدة في أسرع ما يمكن، وذلك حتى لا

تصبح المعاني المتبقية، نوعا من العدمية أو الشعور بالفراغ»[2].

ولذلك، إذا فهمنا معاني قيم الحياة في المجتمع الصيني كله، و«الإدراك المشترك» للمغزى الحقيقي من وجود حياة الإنسان الصيني، يكون لدينا معرفة عميقة نسبيا بالموضوع الفكري للثقافة الصينية. وإذا اقتفينا أثر التغييرات التي شهدتها تلك المعاني، فإننا نستطيع تقييم أحوال التطور في التحديث الصيني أيضا.

وفي المجتمع الصيني التقليدي، كان مذهب الكونفوشيوسية هو جوهر فكر الثقافة التقليدية، وقدم شبكة من المعاني الكاملة لأنشطة حياة الصينيين، وكان أسلوب إنتاج الزراعة التقليدية والنظام العشائري الأسري أساس الثقافة الصينية التقليدية التي شكلت المصطلح العالمي لمفهوم الوحدة العضوية «اندماج الإنسان والطبيعة» و«الأخلاق المشتركة للإنسان والطبيعة» التي تشمل الطبيعة والمجتمع والسياسة والأخلاق. كما شكلت تلك الثقافة وجهة النظر إلى العالم ذات العلاقة العضوية الكاملة، ووجهة النظر إلى القيم والحياة، ومنحت الصينيين هيكل مفاهيم إدراك الحياة ومغزى العالم الأساسي، ويحصل الصينيون من هيكل مفاهيم الثقافة التقليدية وشبكة المعاني على مغزى قيم أنشطة الحياة والانتماء النفسي، أو التمكن من الوحدة الكلية للحياة والعالم. وتتسم الثقافة الصينية التقليدية بالفعالية والنجاح في جانب تنظيم حياة الصينيين.

وكان الاتجاه الواضح للمبادىء الأخلاقية من الخصائص المهمة للثقافة الصينية التقليدية التي اتخذت من أخلاق العشيرة أساسا لها. وشكلت الثقافة الصينية التقليدية مجموعة من المقاييس للعلاقات الأخلاقية الاجتماعية والفكر الأخلاقي في الثقافة الصينية، ولذلك تختلف تلك الثقافة عن الثقافة الغربية التقليدية التي تميز بوضوح بين نظام الاعتقاد في القيم والنظام السياسي الاجتماعي، وبين عالم الأحلام وعالم الفناء، وشكلت التعارض الثنائي في قيم الحياة من الاعتقاد في تجاوز العالم «اللانهائي» و«السرمدي»، واقتحام العالم الواقعي «المحدد» و«آلصغير». ويقدم العالم اللانهائي مصدر القيم النهائية و«الاهتمام المطلق» للعالم الواقعي، وعلى العكس من ذلك، قامت الثقافة الصينية التقليدية بربط نظام الاعتقاد في القيم والنظام السياسي الاجتماعي برباط وثيق، واعتبرت الحياة الدنيوية

هي عالم المعاني الكاملة. ولذلك، لا يوجد في الثقافة الصينية التقليدية التهور والطيش الديني، وقامت بتلحين بهجة الحياة التي أصبحت لحن الطبيعة (معرفة المصير، والانسجام مع القانون الطبيعي)، كما يوجد بها الاشتياق إلى الجنة والفردوس، ولا التخلص من مرارة ومشقة عالم اليوم، بل وضعت تحقيق نقطة انطلاق قيم الحياة في الإنجازات الأخلاقية (أن يكون الإنسان من الحكماء والفضلاء). وعلى هذا النحو، تحقق عالم المعاني الذي يتمحور على قيم الأخلاق الكونفوشيوسية عندما تم تطبيق النظام السياسي الاجتماعي الواقعي. ولا تستطيع قيم الأخلاق الكونفوشيوسية تجسيد المغزى الحقيقي ولا يستطيع عالم معاني الكونفوشيوسية إحراز القبول والإيمان به على نطاق واسع إلا داخل النظام السياسي الاجتماعي الذي يتخذ من السلطة العليا مركزا له. ومن ناحية أخرى، وفي الصين حيث مثل ذلك النظام الثقافي الوحيد الذي يستخدم نموذج عالم المعاني يجب تقييم شرعية تقاليد السلطة العليا من خلال معيار قيم الأخلاق الكونفوشيوسية. كما يجب على تلك السلطة تحقيق الشرعية الثقافية أولا. لقد حددت هذه الميزة للثقافة الصينية التقليدية اتجاه القيم الأساسية عند الصينيين التقليديين. إن ما يتصف به المثقفون الصينيون التقليديون من «ممارسة إدارة شؤون البلاد» و«تثقيف الذات»، وإصلاح البيت وترتيبه، وإدارة شؤون الدولة، وتعميم الهدوء والاستقرار، و«لكل إنسان نصيب من مسؤولية مصير البلاد» تغلغل ذلك كله في أسلوب الحياة بصورة إيجابية، وعكس الجهود المضنية التي يبذلها هؤلاء المثقفون من أجل البحث عن معاني القيم في الحياة السياسية والأخلاقية والواقعية.

ولكن، حطمت تحولات التحديث عالم معاني الثقافة الصينية التقليدية، وفي العملية التاريخية لتحولات التحديث، انهار الهيكل الاجتماعي والنظام العشائري اللذان يتخذان من علاقة الدم والرحم روابط لهما، وتفتتت أوصال النظام السياسي الذي يتمحور على السلطة الإقطاعية العليا، وتعرضت قيم الأخلاق في الثقافة الكونفوشيوسية للنقد العنيف، كما تعرض نظام أخلاق المجتمع التقليدي ومعايير الأخلاق للإنكار والتدنيس. وعلى هذا النحو، وبعد ثورة عام 1911 وحركة «4 مايو» عام 1919 فقد نظام القيم في الثقافة الصينية التقليدية وجوده الشرعي يوما بعد يوم، وينهار عالم

معانيه أكثر فأكثر، ولم يعد يستطيع أن يقدم للصينيين الذين يعيشون في التغييرات الاجتماعية الهائلة مصدر قيم أنشطة الحياة والمعاني. ويواجه الصينيون فقدان الوحدة الكلية بـ «الاهتمام المطلق» و«أزمة المعاني» التي في غاية العمق، وحسب تحليل عالم تاريخ الفكر الصيني تشانغ هاو، الذي ينحدر من أصل صيني وأمريكي الجنسية، إن «أزمة المعاني» التي تجتازها الصين في العملية التاريخية للتقدم نحو التحديث تظهر في الجوانب الثلاثة لـ «الضلال الروحي» داخل هيكل حكمة الصينيين.

أولا: «ضلال الأخلاق». فقدت أخلاق الكونفوشيوسية التي تتسم بفاعلية السلوك الأصلي القدوة. إذن ما المعايير الإنسانية الجديدة وقانون الأخلاق؟

ثانيا: «ضلال الوجود» حيث الاعتقاد بأن معايير أخلاق الرجل الحكيم في الداخل، وإنجازاته في الخارج لا يتناسب مع الوقت الحاضر. إذن، في أي اتجاه تتوقف جهود الإنسان الصيني للبحث عن المرسى في خضم الحياة؟ وأين يتحقق معنى وجوده فعلا؟

ثالثا: «الضلال الشكلي». نجحت العلوم الغربية في أن تقدم الإجابة عن سؤال «ماهية» و«كيفية» العالم الخارجي في أسلوب حكيم، ولكن تظهر الصمت الذي يجعل الإنسان متحيرا تجاه «السبب المطلق». إذن، ما نهاية العالم فعلا؟ إن ذلك كله ينتمي في الأصل إلى الأشياء البديهية في نظام قيم التقاليد، ولكن شهدت عملية التحول إلى التحديث المشاكل المتتالية وفقدت تلك الأشياء الاتجاه الذي يمثل القيم الأصلية، وأشار تشانغ هاو إلى أنه:

«تعد أزمة المعاني أحد جوانب أزمة الفكر الصيني الحديث»... إن مصدر «أزمة المعاني» موغل في القدم مثل تاريخ البشرية، والصين مثل باقي المناطق الأخرى، يثير المغزى الأساسي للحياة والعالم فيها مشاكل الإنسان الصيني عادة، وذلك بالنسبة للنفس المرهفة. وعندما دخلت وجهة النظر إلى العالم الجديد ونظام القيم الجديدة في الصين، وتحطمت وجهة النظر إلى العالم التقليدي الذي يعتمد دائما على استقرار الحياة والأمان ووجهة النظر إلى الحياة، أو ما يطلق عليه «Susanne Langer رموز الاتجاه العام»، تغيرت المشاكل بصورة محيرة جدا، وتشبث كل نظرية جديدة بموقفها جعل الاتجاه الذي يمثل القيم التقليدية يأفل نجمه يوما بعد يوم، ثم وقع

الصينيون في مأزق «الضلال الروحي» الخطير. وانتهى هذا المأزق بعد أن انتشرت البوذية في الأراضي الصينية في العصور القديمة والوسطى».

«إن خصائص الضلال الروحي في الصين الحديثة هي: الضلال الأخلاقي، والضلال الوجودي، والضلال الشكلي وكلها موجودة في آن واحد، ولا تظهر في جانب واحد بصورة مستقلة. إن أساس «أزمة المعاني» في الصين الحديثة عبارة عن اندماج تلك الضلالات الثلاثة»[3].

ويعد عالم المعاني و«الاهتمام المطلق» مصدر قيم أنشطة حياة الإنسان الصيني وأساس وجود استقرار حياته والسعي وراء مآربه. وحطمت تحولات التحديث عالم معاني الثقافة الصينية التقليدية، وجعل الصينيين يفقدون «الاهتمام المطلق» في الحياة الذي قدمته الثقافة التقليدية. وفي الوقت نفسه، فقدوا الأساس الواقعي لأنشطة الحياة و«الوطن» الروحي الذي يبحثون عنه. ولذا، وقع الصينيون في «الضلال الروحي» الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ. وتأثروا بارتباك القيم الذاتية القائمة والقلق تأثيرا عميقا، وشعروا بالتشرد الروحي الذي يفتقر إلى الأساس، والضياع الذي لم يسبق له مثيل، بالإضافة إلى الكآبة والحزن والتفاهة. ومن ثم، تبلورت الظاهرة النفسية لـ «الهجرة الثقافية» ومشاعر القلق المنتشرة على نطاق واسع. لكن، من ناحية أخرى، لا يستطيع الإنسان أن يعيش في عالم خال من المعاني، ولا يسعى وراء أهداف القيم، ولا يمكن أن تفتقر الحياة إلى مساعدة عالم المعاني. ومن ثم، يبذل الصينيون الجهود الجبارة لإعادة بناء عالم المعاني الجديدة في عملية تحولات التحديث، وذلك في أثناء بحثهم عن أهداف القيم الجديدة و«الاهتمام المطلق»، ويسعى الصينيون إلى إعادة تحديد معاني القيم الذاتية القائمة والأساس الواقعي في عملية التحديث والأنشطة التاريخية الحالية. ويعد التحديث الصيني وإعادة بناء عالم المعاني عملية متشابهة.

وعندما خرج الصينيون من عالم المعاني للثقافة التقليدية المؤسس بعناية ودقة، تعد مواجهة حركة التحديث بمنزلة العالم الجديد والغريب لديهم، ويكبح الناس تحديات التحديث، وفي الوقت نفسه، يعلقون الآمال «غير المحدودة» على التحديث أيضا. ويعتبر الصينيون التحديث المفتاح الوحيد لتطوير الصين في المستقبل، وتتوقف كل أهداف القيم على التحديث، وقد

أدرك الناس تدريجيا وعرفوا أنه لا يوجد سوى السير على درب التحديث حتى تتخلص الصين من الفقر والتخلف، وتدخل التيار العالمي، وتحيي مجد ثقافة الأيام الماضية. والتحديث هو أمل الصين والصينيين الكامن. وخاصة بعد إصلاح وانفتاح عام 1978، حظيت أهداف قيم التحديث على التأييد والثناء واسع النطاق من قبل الشعب في جميع أنحاء البلاد. وتتركز قوة اهتمام الشعب كله على حركة التحديث التي تتخذ من البناء الاقتصادي مركزا لها، ويشجع الشعب تحقيق أهداف التحديث، وإدخال كل الأعمال مدار التحديث، ويستكشف الصينيون عالم المعاني الجديدة في عملية التقدم التاريخي الهائل، ويعتبر التحديث في حد ذاته عظيم الفائدة، بينما تعتبر أهداف قيم التحديث والحرية والديمقراطية والعلوم والحكمة والتقدم والقوة والثراء وغيرها من نظم قيم التحديث بمنزلة «الاهتمام المطلق» في الحياة.

لكن، التحديث عملية دنيوية، وكل مجالات حركة التحديث تضرب جذورها بعمق في حياة الناس الواقعية. وتعتبر العلوم والديمقراطية، والحكمة والحرية، ونظام القيم في التحديث وسائل وعملية لتحقيق معاني قيم وجود الإنسان، وليست القاعدة الأخيرة لمعاني قيم وجوده، كما تتسم بالدنيوية و«المحدودية»، ولذلك لا تستطيع تشكيل الاهتمام المطلق الحقيقي للبشرية ولا تقديم عالم المعاني الكامل[4]. وفي عبارة أخرى، لا يستطيع نظام القيم في التحديث الذي يدعو إليه الصينيون ويتبعونه الآن تقديم معاني القيم لأنشطة حياة الإنسان الصيني من ناحية الوجود المطلق، وعندما يعتبر الصينيون الأشياء المحدودة بمنزلة معاني القيم ذات الأنشطة المتنوعة ويؤمنون بها، ويركزون قوة اهتمام الحياة الكاملة على قيم الحياة الحقيقية، ولا يستطيعون إفساح مساحة للحقيقة في الجانب الروحي، فذلك يمكن أن يظهر «الضلال الروحي» الجديد. وكما أشار ماركس ويبير على هذا النحو: إن المجتمع الصناعي الحديث يتسم بالشكل المعقول، ولكن جوهر طبيعته ليست عاقلة، وقياسا إلى وجهة نظره، فإن أكثر الطرق الفعالة التي تستخدم في عملية التحديث للحصول على النتائج الفنية تخالف «حكمة القيم». وعلى الرغم من أن «كفاءة الآلات» تستطيع أن تجعلنا أكثر إنتاجية في العمل، ولكن هي في حد ذاتها لا تشمل «حكمة القيم» إطلاقا، ولا تستطيع الإنجازات التكنولوجية أن تصل إلى القيم الأكثر عقلانية.

وعندما يسعى الناس بلا حدود وراء إنتاجية العمل والربح المادي والنجاح من أجل السيطرة على «كفاءة الآلات»، فإنهم يبددون معاني قيم أنشطة الإنسان، ويقعون في مأزق ضلال تحقيق الأهداف. ولذلك، مستوى التطور الكبير لـ «كفاءة الآلات» يجعل الإنسان لا يستطيع أن يتمتع بالحياة العادلة بصورة أكبر، وأشار ماركس ويبير إلى أنه:

« ... لقد أصبحت قضية الأعمال المهنية التي تتطلب أن يعمل الناس باستمرار جزءا لا يمكن أن ينتقص من حياتهم. وفي الواقع، يعد ذلك الهدف الممكن الوحيد، ولكن في الوقت نفسه، وقياسا إلى وجهة النظر إلى السعادة الذاتية، فإن الحياة التي جسدتها تلك القضية غير عادلة على هذا النحو: يعيش الإنسان في الحياة من أجل أعماله، وليس من أجل حياته يدير أعماله»[5].

وعلى هذا النحو، يواجه الصينيون المعاصرون في عملية إعادة بناء عالم المعاني تناقضا في غاية الخطورة: إن حركة التحديث هي الأمل المستقبلي الكامن للصين والصينيين الذين يجب عليهم دفع قضية التحديث إلى الأمام بكل قوة والاشتراك والاندماج فيها، وتحقيق قيم حياتهم في قضية التحديث من ناحية. ومن ناحية أخرى، إن حركة التحديث نفسها لا تستطيع أن تقدم للصينيين عالم المعاني الكامل، وأن أهداف قيم التحديث ليست هي ذاتها هدف الحياة. ولم يقم الصينيون بتحليل ذلك التناقض بصورة جادة (بل حتى لم يعرفوه معرفة حقيقية)، ولم يميزوا بين معاني قيم «الاهتمام المطلق» وهدف قيم الحياة الواقعية بصورة فعالة. ولذلك، رفعوا الأشياء المحدودة في الحياة الدنيوية إلى مرتبة القيم المطلقة، وأقاموا «عالم المعاني» الخاص بهم في حركة التحديث. إن ذلك الانحراف الذي ظهر في الجهود المضنية التي يبذلها الصينيون المعاصرون لإعادة بناء عالم المعاني سبب، أو قد يسبب سلسلة من المشاكل على النحو التالي:

١- الافتقار إلى النقد ومصادر القيم التي تتجاوز التحديث من جراء اعتبار التحديث عالم المعاني نفسه. إن التحديث عملية تاريخية موضوعية، وفي الوقت الذي يحقق فيه التحديث التقدم التاريخي الهائل للبشرية، لا يمكن تجنب مجموعة من القيم السلبية الناجمة عنه أيضا. ولكن، لأن الصينيين يعتبرون التحديث مصدر معاني القيم، وعملية التحديث هدفا

لهم، لذلك أضافوا إلى التحديث كل تصورات الأشياء الجميلة (يعد ذلك إحدى خصائص أسلوب تفكير الصينيين أيضا)، ولا يتوافر لديهم الاستعداد النفسي للاعتراف بآثاره السلبية وغير الإيجابية وجوانبه «الضارة». كما لا يقومون بإعداد الخطة المسبقة للتغلب على تلك القيم السلبية بسبب التقييم غير الكافي للمشاكل التي يتحتم ظهورها نتيجة عملية التحديث. وعندما تظهر ممارسة التحديث بعض تلك القيم السلبية، اعتاد الصينيون دائما بتأويلها إلى أسباب خارجية وغير حتمية ولا يستطيعون إجراء الفحص العقلاني للتحديث من منظور القيم الأكثر رفعة.

2- إن اعتبار التحديث هو عالم المعاني نفسه، جعل قوة اهتمام الحياة تتركز في الحياة الواقعية والدنيوية، وتفتقر إلى التفكير في قيم معاني الحياة الأساسية، ويعد خروج الناس من أضغاث أوهام عالم القرون الوسطى وعودتهم إلى عالم المجتمع الدنيوي الواقعي بمنزلة التحرر الكبير الذي حصل عليه الإنسان، ورمز التقدم التاريخي أيضا. ولكن، في الوقت الذي يراقب فيه الإنسان الحياة الواقعية ويهتم بها، يجب عليه الاحتفاظ بمكان للمثل العليا الروحية أيضا. ويقوم بنقد الحياة الواقعية ومحاسبة الذات حتى يحقق تجاوز ذاته. ولكنه، في مسيرة التحديث، يركز الصينيون الجهود في نطاق الحياة الاجتماعية الدنيوية، ويسعون وراء إنتاجية العمل والربح المادي والنجاح وغيرها من القيم المحدودة. ولذلك، يتخلون عن المثل العليا الروحية التي تستطيع تجاوز الحياة الدنيوية. ومن ثم، نرى الصينيين الذين يعيشون في الحياة الواقعية متهورين وضعفاء، وتواقين للنجاح السريع والربح الفوري، وحريصين على الفلس والمليم، ومهتمين بالسعي وراء الأشياء المحدودة والحصول عليها. وذلك لأن الصينيين المعاصرين يرون أن قيم بعض الأشياء المحدودة هي القيم المطلقة[6]. ويشعر الناس بوطأة الحياة اليومية، ولكنهم غير قادرين على تحقيق التجاوز الذاتي الروحي، والسعي وراء أهداف القيم الأكثر رفعة. ولا يمتلك الصينيون مصدر قيم التفوق الذاتي وأساس القوة النفسية الدافعة.

3- عندما تتعرض مسيرة التحديث للنكسة أو يظهر التباعد بين مسيرة التحديث الواقعية وآمال الناس الذاتية، ينجم عن ذلك «الآمال المضادة». مما يثير مشاعر الإحباط العميق، ومشاعر القلق على نطاق واسع، و«أزمة

الثقة»، وذلك بسبب اعتبار التحديث هو عالم المعاني نفسه، والأشياء المحدودة هي القيم المطلقة.

إن الأخطاء العديدة التي تظهر عند قيام الصينيين المعاصرين بإعادة بناء عالم المعاني تؤثر تأثيرا مهما في خطة النهوض بالثقافة الصينية والحياة المادية والروحية لدى الصينيين. وتوضح تلك الأحوال أنه في عملية انتقال الصين وتحولها من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، ظل تغيير نظام معاني القيم بعيدا عن الإنجاز، ،وأن إعادة بناء عالم المعاني والمجتمع الحديث متلائمان، وظلت هناك مسافة كبيرة للوصول إلى «الاهتمام المطلق» لعالم المعاني في الثقافة الحديثة. ويجب على مثل ذلك عالم المعاني أن يتلاءم مع التحديث، بمعنى أن يقدم الشرعية للقيم والثقافة من أجل تحولات التحديث ويقدم مصدر القيم الكافية من أجل تطوير التحديث، وفي الوقت نفسه يتجاوز عالم المعاني التحديث، بمعنى أن يقدم القوة الدافعة المتفوقة ومصدر النقد من أجل التغلب على القيم السلبية للتحديث وتبديدها، وتحقيق التحول إلى المجتمع الحديث بلا أي عائق إلى حد ما، وتطوير المجتمع في المستقبل[7]. إن مثل عالم المعاني ذاك «يسلط الأضواء» على حقيقة أنشطة حياة الصينيين اعتمادا على معاني القيم المطلقة ويجعلهم يحرزون هدف الحياة والأساس الروحي في تحولات التحديث، ويحققون التفوق الذاتي لـ «الشعور المواظب» على مراقبة أنشطة الحياة المحدودة والاهتمام بها. ولذلك، يتم إعادة بناء الشخصية القومية والفكر الثقافي.

ومازال يحتاج إعادة بناء عالم المعاني في الثقافة الصينية الحديثة، ونظام معاني القيم و«الاهتمام المطلق» لدى الصينيين المعاصرين إلى قيام الصينيين بالاستكشاف المستمر والجهود المضنية.

الهوامش

(1) اقتباس من كتاب «وجهة النظر إلى القيم الجديدة -أيستطيع الإنسان تحقيق ذاته؟»، تأليف: دانيل يانكيلوفيتش Daniel Yonkelovich، دار الشرق للنشر، طبعة عام 1989، ص35.

(2) دانيل بيل «تناقض ثقافة الرأسمالية»، مكتبة سان ليانغ، طبعة عام 1989، ص197.

(3) تشانغ هاو «الكونفوشيوسية الجديدة وأزمة الفكر في الصين الحديثة» انظر فصل: «الكونفوشيوسية الجديدة المعاصرة»، مكتبة سان ليانغ، طبعة عام 1989، ص58 , 60.

(4) انظر مقال: شي جي لينغ «الاهتمام المطلق والتحديث» مجلة «اقرأ»، المجلد الأول، عام 1991، ص15-23.

(5) ماركس ويبير، «الأخلاق البروتستانتية وفكر الرأسمالية»، مكتبة سان ليانغ، طبعة عام 1987، ص51.

(6) اعتقد دائما أن انتقال الصينيين المعاصرين إلى الدنيوية من نقاط الضعف الكبرى في الشخصية القومية. وذلك لأن الانتقال إلى الدنيوية لا يمكن أن يفسح مسافة للواقعية في الجانب الروحي، ولا يحتفظ بمكان للمثل العليا في أعماق النفس، مما يؤدي إلى الاهتمام المفرط بالربح المادي في الحياة الواقعية ومصالحها، والسعي وراء الهدف المباشر في الوقت الحاضر، وإغفال السمو بالمكانة الروحي، وصقل المشاعر العاطفية والتثقيف الذاتي.

(7) انظر مقال: شي جي لينغ، «الاهتمام المطلق والتحديث»، مجلة «اقرأ»، المجلد الأول، عام 1991، ص16.

١٥ فقدان المصداقية الثقافية وأزمة عقيدة القيم

إن فقدان عالم المعاني و«الاهتمام المطلق» في الثقافة التقليدية جعل الصينيين يشعرون بفقدان مصداقية تلك الثقافة، ويعد البحث عن عالم المعاني وإعادة بنائه بمنزلة البحث عن المصداقية الثقافية الجديدة والسعي وراءها.

إن فقدان مصداقية الثقافة التقليدية مشكلة مهمة يواجهها الصينيون في تحولات التحديث، وتوضح المصداقية الثقافية ما نعتبره قبول الإنسان الذاتي وتعميمه لشبكة معاني الثقافة الاجتماعية وهيكل المفاهيم داخل نفسه، ويتقبل الناس عالم المعاني الذي يقدمه النظام الثقافي ويعتبرون معاني قيم ذلك النظام هدف العقيدة الذاتية ومبدأ الحياة، ويحصلون على مصدر قيم الحياة والقوة النفسية الدافعة من داخل ذلك النظام أيضا. ولذلك، يشعر الإنسان بأن ذاته والبيئة الثقافية متشابهتين وهيكلهما متماثل، كما يشعر بأنه يعيش في الثقافة «الذاتية» ويتمتع بـ«مشاعر التأييد الثقافي» الكافي لأنه يمتلك الثقافة «الذاتية» التي تمتلىء نفسه بالاحترام والثقة الكاملة تجاهها. ولكن، عندما

حطمت تحولات التحديث عالم المعاني في الثقافة التقليدية، اكتشف الناس أنهم فقدوا هدف المصداقية الثقافية، وظهرت «أزمة المصداقية الثقافية». ولم تعرف نفوس الناس التقدم في أي اتجاه، ويشعر الناس بالحيرة والضياع في الوجود، وسبب ذلك فقدان المصداقية الذاتية أيضا. وقد ناقش تشانغ هاو مضمون أزمة المصداقية الثقافية لدى الصينيين في حركة التحديث، وذكر أن:

«أزمة المصداقية الثقافية هي أن الصينيين في المائة سنة الأخيرة سبب الهجوم الغربي، كشفوا النقاب عن الكثير من نقائص تقاليدهم ووجهوا ضربة إلى كرامة ثقافتهم. ولذلك، تكونت في سيكولوجيتهم «عقدة» تحتاج إلى المصداقية الثقافية من جديد»[1].

وفي حركة التحديث الصيني، اجتاز الصينيون الخسارة الناجمة عن فقدان عالم المعاني و«الاهتمام المطلق» وما تمخض عنهما من فقدان المصداقية والوقوع في الأزمة النفسية لمصداقية الثقافة من ناحية، ومن ناحية أخرى، يبحثون ويقومون بإعادة بناء عالم معانيهم بجد ونشاط، ويمارسون «إعادة المصداقية الثقافية». وفي الوقت ذاته، إن عملية التحديث هي عملية قيام الصينيين بـ «إعادة المصداقية الثقافية» أيضا. وكما ذكرنا آنفا، أن الصينيين اجتازوا في تحولات تحديث أكثر من مائة سنة إعادة رسم صورتهم النموذجية الكبرى، وأدركوا أهداف قيم التحديث وقبولها تدريجيا في عملية الاستجابة للتحديث وقبوله الذي يعد موضوع العصر الرئيسي. وحصل الصينيون على المصداقية الثقافية الجديدة من داخل حركة التحديث. وقاموا بتعديل وتغيير وتجديد الاتجاه النفسي الذاتي ومفاهيم القيم وأسلوب التفكير وطريقة الحياة بصورة واعية حسب تلك المصداقية الثقافية الجديدة. أو نقول إن حركة التحديث حظيت بالمصداقية النفسية على نطاق واسع وبدأت الوضع الجديد للتحديث بصورة شاملة من أجل تحقيق الصين القوية الثرية والازدهار الثقافي الذي يعد بمنزلة البحث عن المصداقية الثقافية الجديدة.

ولكن، هناك بعض المشاكل التي تستحق الاهتمام في عملية بحث الصينيين عن المصداقية الثقافية الجديدة. في المقام الأول، إن التحديث هو عملية التطورات. ولذا، فإن معنى التحديث هو «التحول إلى الحديث»

وليس «الحديث» ذاته. ويجتاز كل شيء في عملية «التحول إلى الحديث» التغيير والتعديل والتجربة، كما أنه غير مستقر ولم يتبلور شكله النهائي أخيرا، وتحتاج الأهداف والموضوعات التي تعتبر بمنزلة المصداقية النفسية الثقافية التكوين المستقر من ناحية الشكل والمضمون تماما. وإذا اعتبرنا الأشياء غير المستقرة والمتغيرة هي هدف تلك المصداقية، وعندما تشهد تلك الأشياء تغييرا هيكليا يواجه الناس فقدان المصداقية الجديدة مرة أخرى، ويحتاجون إلى إيجاد حل للأزمة النفسية الناجمة عن «إعادة المصداقية» الثقافية من جديد.

ثانيا، تظهر الثقافة الاجتماعية في عملية التحديث التكوين المتناقض لـ «الهيكل الثنائي». ومن المستحيل أن يقدم الهيكل الثنائي في الثقافة الاجتماعية شبكة المعاني الكاملة والموحدة. كما أن ثنائية الهيكل المتناقض متشابكة ويتغلغل كل منهما في الآخر. وربما تتأثر الصفات المميزة للثقافة الجديدة بخصائص الثقافة القديمة من حيث إساءة التفسير والمضمون، وربما تجلب خصائص الثقافة القديمة بعض الصفات الثقافية الجديدة من حيث الشكل والمضمون، ويسبب ذلك صعوبة خطيرة لمصداقية الفرد الثقافية. وفي التكوين الثنائي الثقافي المتناقض تحتاج مصداقية إحدى الثقافتين والموافقة عليها الاختيار الرئيسي الذي يمارسه الفرد، ويحصل أساس ذلك الاختيار على التأييد ومصدر القيم من داخل عالم المعاني. ولكن مازال عالم المعاني يحتاج إلى البحث وإعادة البناء من قبل الناس، وتجعل هذه الأحوال الناس عادة يشعرون بالارتباك والذهن الشارد والحيرة والقلق. وأصبحت الجهود المضنية التي تبذل من أجل البحث عن المصداقية بمنزلة حيرة وارتباك ضلال الطريق إلى المصداقية.

ثالثا، كما ذكرنا آنفا، أن التحديث عملية دنيوية تهدف إلى تحقيق التحول والتغيير في الحياة الاجتماعية، ولذلك يعد التحديث نطاقا تاريخيا محدودا في حد ذاته، ولا يتسم بالقيم المطلقة. إن الارتقاء بالأشياء المحدودة وجعلها من القيم المطلقة «غير المحدودة»، واعتبار تلك الأشياء بمنزلة هدف الإيمان بالقيم والمصداقية، ينطوي على الخطورة الكبيرة جدا. وعندما يظهر التحديث في عملية تطوره (إنها عملية التطوير الحتمية، بمعنى أنها العملية التي تبرز للعيان بصورة شاملة الصفة المميزة لجوهرها ومحدوديتها)

محدوديته بصورة تدريجية والتي تشمل قيمه السلبية واحتمال تعرضه للنكسات والتمييز بين عملية التحديث وأهدافه واختلافهما وغيرها من الجوانب الأخرى، بالإضافة إلى التباعد بين مسيرة التحديث الموضوعية وتوقعات الناس الذاتية تجاه التحديث، فإن ذلك كله يسبب فقدان الأمل في مسيرة التحديث نفسها، وتظهر مشاعر الشك والارتياب و«أزمة العقيدة» في الثقافة.

إن المشاكل المذكورة آنفا كلها مشاكل واقعية وقائمة في مسيرة التحديث الصيني. وفي عبارة أخرى، إن مشكلة «إعادة المصداقية» الثقافية لدى الصينيين مازالت لم تحل بصورة أساسية. إن حل هذه المشكلة حلا جذريا والتغلب على العواقب النفسية الوخيمة الناجمة عن فقدان المصداقية يمكن أن يجعل «الهجرة الثقافية» تصبح «الدعامة الأساسية» الثقافية في العصر الجديد، كمايجعل الروح المتشردة والهائمة تجد «الوطن الروحي» الذي تستقر وتستوطن فيه. ومازال يحتاج ذلك إلى عملية طويلة جدا.

واجتاز الصينيون في تحولات تحديث أكثر من مائة سنة «أزمتين كبيرتين من أزمات العقيدة الثقافية». حدثت الأولى في ثورة 1911 وحركة «4 مايو» 1919 تقريبا، حيث انهار عالم المعاني في الثقافة التقليدية تدريجيا، نتيجة انحلال النظام السياسي الإقطاعي، ووقع الناس في المأزق النفسي العميق من الكآبة والحزن. وفقد نظام الأخلاق التقليدية المعايير من ناحية، ومن ناحية أخرى، مازالت مقاييس العلاقات الإنسانية والأخلاق الحميدة لم تتشكل بعد، وفقدت السلطة القديمة فاعلية الإيمان بها من جانب، ولم يتحقق الإجماع حول العقيدة الثقافية الجديدة التي يمكن أن تحل محل السلطة القديمة من جانب آخر. ولذلك، شعر الناس بالكآبة والحزن والعدم وتلاشي الآمال، وظهرت «أزمة العقيدة» الثقافية على نطاق واسع. ولكن يبدو أن تجديد الآمال واندثارها ظهرا في آن واحد. وفي الوقت الذي تولد فيه اليأس والشك والتردد لدى المثقفين التقدميين في عصر «4 مايو» إزاء عالم معاني الثقافة التقليدية، ظهرت «أزمة العقيدة الثقافية» أيضا. ويعد ذلك بمنزلة خروجهم من أضَغاث أحلام القرون الوسطى وإحرازهم التحرر الأيديولوجي العظيم لأول مرة. لقد اقتحموا شبكة معاني الثقافة التقليدية، ويبحثون عن العقيدة الثقافية الجديدة بجد ونشاط، كما يبحثون

عن نظام القيم التي تستطيع تنظيم «الاهتمام المطلق» من جديد لدى الصينيين.

إن إسهامات حركة «4 مايو» عام 1919 عظيمة، وكانت رايتها الديمقراطية والعلوم، وغيرت اتجاه تطور الثقافة الصينية بشكل كامل، وكان إدخال الماركسية في الصين وتقديمها ونشرها من أعظم إسهامات تلك الحركة. وكما ذكر ماو تسي تونغ على هذا النحو: أنه منذ قيام الصينيين بتعلم الماركسية، تحول فكرهم من السلبية إلى الإيجابية. ويجب أن نقول إن الماركسية تتسم بالفاعلية والنجاح الكبيرين في تنظيم حياة الصينيين الفكرية وإعادة بناء قيم عقيدتهم وتغلغلت المفاهيم الماركسية وأساليبها الفلسفية في مجال وعي الصينيين وأصبحت أسلوب التفكير الشائع. وتراكمت وجهة النظر إلى العالم ووجهة النظر إلى الحياة والقيم لدى الماركسية في هيكل الصينيين النفسي وحظيت بالمصداقية النفسية على نطاق واسع. وقد غيرت المثل العليا الاجتماعية والثقافية التي قامت الماركسية بتصميمها نظام قيام العقيدة الثقافية لدى الصينيين بصورة عميقة وأصبحت الماركسية العقيدة الشائعة وأهداف القيم التي يسعون وراءها. ولذلك، غيرت الماركسية شبكة معاني الصينيين وهيكل تفكيرهم إلى حد كبير، ونتيجة لذلك وفي الواقع تأثر الناس بالماركسية تأثرا عميقا جدا بصرف النظرعما إذا اعترفوا الآن بذلك اعترافا ذاتيا أو لا، ولكن في الوقت الذي تقبل فيه الصينيون الماركسية واستغلوها في إعادة بناء عالم المعاني و«الاهتمام المطلق»، جلبوا معهم الأخطاء ذات النطاق المحدود. وفي الواقع، إن تلك الأخطاء لا يمكن تجنبها إلى حد كبير[2]. مثل الخطأ في عدم التمييز بين اتجاه العقائد الماركسية، ووظيفة النظرية العلمية وتكوين الإدراك. وكذلك عدم التمييز بين المثل العليا الثقافية الماركسية وإستراتيجيتها الثورية الاجتماعية وتكتيكها وغيرها. وعلى هذا النحو، تم فهم الماركسية وقبولها باعتبارها قيم المعاني الكاملة وأصبحت العقيدة الشائعة ومصدر القيم من جانب. ومن جانب آخر، كانت الماركسية أيضا تعتبر بمنزلة مبدأ توجيه ممارسة الأنشطة في كل مجالات ومستويات الحياة الواقعية وأصبحت علم «إدارة شؤون البلاد» الذي يتسم بأكثر القيم التطبيقية. وكان يجب على هذين الجانبين إفساح مناسبة بينهما، ولم يتم الفصل بين قيم العقيدة تلك والممارسة الاجتماعية، والأوضاع

المتشابكة بصورة كبيرة يعوزها مصدر قيم نقد الحياة الواقعية وتجاوزها ودفع المجتمع إلى التطور المستقبلي من ناحية، ومن ناحية أخرى، ربما تتسم الحياة الواقعية بالمحدودية والاهتزاز تجاه الإيمان بالقيم المطلقة بسبب الخطأ في تطبيق الماركسية. وظهر ذلك الخطأ في مسيرة انتشار الماركسية في الصين، مما يبين أن الصين في عملية التحديث لم تنجز التمييز الثقافي من البداية حتى النهاية. ومازال الصينيون «يتقبلون» الماركسية و«يفهمونها» اعتمادا على نموذج أفكار الثقافة التقليدية.

ولذلك، كان مقدرا لنظام قيم العقيدة الثقافية عند الصينيين أن يواجه تحديا جديدا عند إنجاز العملية التاريخية للقرن العشرين. وحدث ذلك بعد الانتهاء من «الثورة الثقافية». ويعني ذلك أن الصينيين في تحولات التحديث يجتازون «أزمة العقيدة الثقافية» للمرة الثانية. وقامت «الثورة الثقافية» بتطوير اتجاه العقائد إلى الذروة، وتمخض عنها الإيمان بالخرافات والخزعبلات الحديثة التي ظهرت في أشكال الضلال والجنون الديني، ومارست تلك الثورة تحت ذريعة «الثورة» و«دكتاتورية البروليتاريا» و«الماركسية» كل أعمال التخريب الهائل لبناء التحديث الصيني وحياة الشعب. ولذا، بمجرد أن انتهت «الثورة الثقافية»، ومع كشف النقاب عن سلسلة أخطائها وانتقادها شعر الناس بالاهتزاز النفسي على نطاق واسع. وكان ذلك الاهتزاز النفسي في غاية العنف والقوة بالنسبة لجيل الشباب (المقصود جيل «الحرس الأحمر») بصفة خاصة. ولم ينجم عن «الثورة الثقافية» الجرح النفسي الضخم لدى الصينيين فحسب، بل سببت انشقاق قيم العقيدة الثقافية لدى هذا الجيل أيضا. ولكن، تتصف «أزمة العقيدة الثقافية» التي ظهرت بعد «الثورة الثقافية» و«أزمة العقيدة الثقافية» الأولى بالطبيعة المتباينة. وكل ما ارتاب الناس فيه وأنكروه ليست الماركسية نفسها، بل الأشياء التي شوهت الماركسية واستغلت اسمها. وحقق فكر الصينيين التحرر الجديد بعد اجتياز «الأزمة» الثقافية الثانية. وبدأ الناس يخرجون من ضلال «الثورة الثقافية» ويعيدون بناء عقيدتهم الثقافية على أساس الفهم الكامل والصحيح والعلمي للماركسية. ولكن، لا يمكن تجاهل الأثر السلبي لـ «أزمة العقيدة الثقافية» الثانية أيضا. ومن الصعب أن يقوم جيل الشباب الذي مازال يفتقر إلى خبرة الحياة الكافية بالشرح العقلاني الهادى* للمشاكل

المذكورة آنفا وتمييزها. كما أن افتقار خصائص الثقافة الصينية إلى التمييز زاد من الصعوبات. ومن ثم ظل استعادة نظام قيم العقيدة الثقافية وإعادة بنائها في حياة الصينيين المعاصرين يتسم بالأهمية الملحة جدا.

وتعد «أزمة العقيدة الثقافية الأولى والثانية» ظاهرة سيكولوجية ثقافية يتحتم على الصينيين اجتيازها وهم يتقدمون نحو التحديث، وفي الوقت نفسه يكسبون حلقة من التحرر الأيديولوجي. ولكن، العقيدة المشتركة هي روابط التوافق الثقافي الاجتماعي الحديث. ويعد عالم المعاني المشترك وقيم العقيدة المشتركة والمفاهيم الثقافية المشتركة في عملية تقدم الصينيين نحو التحديث بمنزلة الأساس النفسي الذي يتسم بالأهمية والضمان الثقافي. وقد أشار المفكر الفرنسي إلكسيس دي توكيفيل Alexis de Tocqueville في القرن التاسع عشر بوضوح إلى المغزى المهم لإعادة بناء مثل العقيدة المشتركة، وذكر أنه:

«إذا كان مجتمع ما يفتقر إلى مثل تلك العقيدة، فإنه لا يزدهر. بل حتى يمكننا القول إن المجتمع الذي تعوزه العقيدة المشتركة، لا يمكن أن يكون قائما»[3].

الهوامش

(1) تشانغ هاو، «الكونفوشيوسية الجديدة وأزمة الثقافة الصينية»، انظر «نظرية الكونفوشيوسية الجديدة» تأليف: لوا إي جون، دار الشعب للنشر في شنغهاي، طبعة عام 1989، ص234.

(2) قامت الأنشطة الإبداعية الأساسية المقبولة في مواجهة قبول «الحكم المسبق على الهدف» بتغيير المغزى الأصلي للهدف بصورة رئيسية في أثناء تقبل الأنشطة. انظر الباب الثالث - المبحث الثالث من هذا الكتاب (الجزء الأول).

(3) إلكسيس دي توكيفيل «دراسة الديمقراطية في أمريكا» مطبعة الكتب التجارية، طبعة عام 1988، ص524.

١١ تضارب المثل العليا

يواجه الصينيون في عملية تحولات التحديث تضارب المثل العليا أيضا.

وأسباب ظهور تضارب المثل العليا متعددة الجوانب، ويعد «نموذج الانتقال» و«الهيكل الثاني» في التكوين الثقافي الاجتماعي، وخصائص الثقافة من حيث الطبيعة المتباينة والتعددية، وترهل الروابط الاجتماعية الثقافية الشاملة بمنزلة الأسباب الموضوعية وراء الاختلاف والتضارب في المثل العليا بين أفراد المجتمع. وفي عبارة أخرى، أن تضارب المثل العليا هو ظاهرة ثقافية تنجم عن مسيرة التحديث. إن مايعرف بالمثل العليا يعد نوعا من التصميم المسبق والتصور لدى الناس في ضوء مايقدمه النظام الثقافي من شبكة المعاني وهيكل المفاهيم، ودور مقاييس القيم في تحديد الشكل الذي يجب أن يتسم به المجتمع والحياة في المستقبل، ويعتبر الناس ذلك التصور هدف القيم التي يبحثون عنها. وجسدت المثل العليا نوعا من المعاني التي تتجاوز الثقافة والحياة، وسلطت الأضواء على حقيقة أنشطة حياة الإنسان الواقعية انطلاقا من التطلعات بعيدة المدى للثقافة الاجتماعية والحياة، ومنحت أنشطة حياة الإنسان

القوة الدافعة من الناحية النفسية، وجعلت الناس لديهم الرغبة في الكفاح والتضحية بالنفس من أجل السعي وراء تحقيق المثل العليا. وعندما يؤسس الناس نوعا ما من المثل العليا استنادا إلى مغزى القيم المحددة، فإن تلك المثل العليا تصبح هدف عقيدتهم وتصير نوعا من العقيدة (العقيدة الاجتماعية، العقيدة السياسية، وعقيدة الحياة وغيرها). ولذلك، تأسيس المثل العليا والبحث عنها يرتبط من الناحية الذاتية ارتباطا وثيقا بالمعاني والقيم والعقائد والاهتمام المطلق. وفي مرحلة تحولات التحديث ذات النطاق الواسع والتغييرات الاجتماعية الهائلة من المؤكد أن فقدان مغزى القيم والاهتمام المطلق وإعادة البحث عنهما يسبب حيرة المثل العليا واهتزازها، ويتطلب ذلك ضرورة قيام الناس بإعادة بناء المثل العليا الاجتماعية والذاتية في ضوء المصداقية الثقافية الجديدة.

إن تضارب المثل العليا الذي يواجهه الصينيون في تحولات التحديث متعدد الجوانب والمستويات، وتشتمل المثل العليا التي نتحدث عنها بصفة عامة على الأنواع الثلاثة الأساسية التالية: المثل العليا الاجتماعية، المثل العليا الذاتية، والمثل العليا الأخلاقية. ويوجد بين هذه الأنواع الثلاثة الروابط المتبادلة والتأثير المتبادل، وتؤثر المثل العليا الاجتماعية في المثل العليا الأخلاقية والذاتية وتقيدهما إلى حد كبير. وفي التكوين الاجتماعي الأحادي، الذي يتصف بمستوى مرتفع نسبيا من الطبيعة المتشابهة والهيكل الثقافي الاجتماعي المستقر، تتجه المصداقية الثقافية الاجتماعية إلى التوافق بسبب الأساس المشترك في أسلوب الإنتاج وطريقة الحياة كما أن دور التوافق في توجيه القيم الاجتماعية يجعل أفراد المجتمع يميلون إلى اتجاه الوحدة والتقارب سواء كان ذلك على صعيد المثل العليا الاجتماعية والمثل العليا الأخلاقية أو المثل العليا الذاتية. وتلعب المثل العليا المشتركة دورا مهما في التعبئة واسعة النطاق لأفراد المجتمع وتنظيم الحياة الاجتماعية وتعزيز وصيانة الاستقرار الاجتماعي وغيرها من المجالات الأخرى. وعلى سبيل المثال، في المجتمع الصيني التقليدي، كان «الانسجام الأعظم» في المثل العليا الاجتماعية يتخذ من الاقتصاد الطبيعي أساسا له، واعتمدت المثل العليا الأخلاقية على أنه «يستطيع الناس أن يكونوا من الحكماء والفضلاء» لكسب قبول السواد الأعظم من أفراد المجتمع وتأييدهم وموافقتهم. كما

أن المثل العليا في حياة الإنسان تتبع مثل اتجاه القيم هذا بصورة أساسية. كما لعب مذهب الكونفوشيوسية دورا مهما جدا في رسم الصورة النموذجية وتوجيه المثل العليا المشتركة لدى الصينيين التقليديين.

وحطمت تحولات التحديث الأساس الاقتصادي والهيكل الاجتماعي في المجتمع الصيني التقليدي، كما حطمت تلك التحولات عالم المعاني في الثقافة التقليدية، وسببت فقدان الاهتمام المطلق وفقدان المصداقية الثقافية وأزمة العقيدة عند الصينيين، مما جعلهم يقعون في حيرة وارتباك وقلق البحث عن عالم المثل العليا. ولكن، في الوقت الذي نبذ فيه الصينيون المثل العليا القديمة،يبحثون عن عالم المثل العليا الجديدة بجد ونشاط أيضاً .كما يخوضون نضالا عظيما وشاقا ولا يعلى عليه من أجل السعي وراء تحقيق الصين المشرقة والبحث عن المثل العليا الاجتماعية الجديدة، وقام الصينيون التقدميون جيلا بعد جيل بموجات التقدم المتعاقبة والتضحية البطولية ومثلوا مسرحية تاريخية حيوية فصولها مفعمة بالقوة والعظمة والمهابة والحماسة، وذلك من أجل تحقيق المثل العليا من استقلال الصين وازدهارها وقوتها. ولعبت دعاية الماركسية وانتشارها دورا مهما جدا في إعادة بناء المثل العليا المشتركة للصينيين. وبذل أعضاء الحزب الشيوعي الصيني جهودا كبيرة من أجل الدعاية للماركسية وانتشارها، واستغلال المثل العليا الشيوعية في تعليم الشعب وتعبئته. ولاسيما بعد عام 1949، حيث حقق المذهب الماركسي الشيوعي التعميم مترامي الأطراف، وأصبحت الشيوعية المثل العليا المشتركة الاجتماعية التي تحظى بالتأييد والموافقة على نطاق واسع. كما حققت المثل العليا الخلاقية الاجتماعية والمثل العليا الذاتية مستوى عاليا نسبيا من إعادة البناء طبقا لاتجاه قيم الشيوعية. ويجب القول إن الصينيين كانوا في حقبتي الخمسينيات والستينيات ناجحين ويتميزون بالفاعلية في إعادة بناء المثل العليا الاجتماعية والمشتركة إلى حد ما. ولكن، كما ذكرنا آنفا، أن الصينيين أظهروا «الانحرافات» التي لا يمكن تجنبها في «قبول» و«فهم» الماركسية. وتحمل المثل العليا المشتركة في نظر بعض الناس (خاصة الشباب) وجود مستوى معين من التردد من جراء أخطاء «القفزة الكبرى إلى الأمام» وفوضى «الثورة الثقافية» وخرابها. ومن ناحية أخرى، عزز الإصلاح والانفتاح تغييرات الحياة الاجتماعية الجديدة،

والانتقال الاجتماعي وتقسيم المجتمع إلى فئات مختلفة، وإصلاح أسلوب الحياة، والوعي بالتحديث واسع النطاق، واتجاه القيم المتعددة، وجعل ذلك الصينيين يواجهون تضارب المثل العليا الجديدة، والمهمة المهيبة لإعادة بناء المثل العليا الاجتماعية والمشتركة.

ويعد اتجاه الأنانية الأيديولوجي الذي انتشر في نطاق محدود من المشاكل البارزة إلى حد ما في تضارب المثل العليا لدى الصينيين المعاصرين. وبدأ هذا الاتجاه الأيديولوجي في «مناقشة قضية بان شياو»[1] التي أحدثت ضجة كبرى في عام 1979. وفي عملية التطورات التالية لظهوره، تعمق هذا الاتجاه تدريجيا في المستويات الفكرية العميقة وشكل أسلوبا خاصا في تكوين وجهة النظر إلى القيم والحياة والمثل العليا للحياة. كما عبر عن الراديكالية في الحياة الاجتماعية الصينية من حين لآخر، وآثار اهتمام الناس وملاحظتهم ومجادلاتهم على نطاق واسع.

ولعب اتجاه الأنانية الأيديولوجي دورا محددا في التاريخ. وكان يعتبر ذلك الاتجاه الشيء المتناقض في علاقة السلطة الدينية والإقطاعية في القرون الوسطى بأوروبا، وجسد تخلي الفرد عن القيود الروحية والواقعية، والتطور الذاتي، ومطلب تحقيق الذات نتيجة نبت الرأسمالية في المرحلة المبكرة وظهورها وتطورها. وجسد أيضا الاستقلال والأخذ بزمام المبادرة الذاتية في وجهة النظر إلى القيم الذاتية، والاحترام الذاتي، والثقة الذاتية وغيرها من المفاهيم. كما لعب دورا مهما في الاهتمام بالمصالح الذاتية ومتطلباتها في دفع تطور التاريخ المعاصر ومسيرة التحديث في الغرب. وهناك العديد من المفكرين البارزين في فترة الثورة البرجوازية في القرنين السابع عشر والثامن عشر مثل جون لوك John Lock وآدم سميث Adam Smith وغيرهما من الذين أشادوا باتجاه الأنانية الأيديولوجي إشادة كبيرة وقاموا بالدعاية له وقدموا البراهين النظرية التفصيلية لتأكيده. وفي فترة «4 مايو» 1919 بالصين، استغل بعض المثقفين التقدميين الأنانية واعتبروها سلاحا فكريا لمناهضة الإقطاعية ووجهة النظر إلى القيم الثقافية التقليدية، وشجعوا «التحرر الذاتي». ولكن، في السنوات القليلة الماضية، ظهر اتجاه الأنانية الأيديولوجي في الصين مرة أخرى، في ظل أحوال متباينة ويتسم بالمغزى المختلف.

وكما ذكرنا آنفا، أن الصينيين عرفوا «أخطاء» النظرية الضيقة والنزعة السطحية والأوهام عندموا تقبلوا وجهة النظر إلى القيم والمثل العليا الاجتماعية في الشيوعية، ومن بين تلك الأخطاء سوء الفهم الكبير في تحديد العلاقة بين المصلحة الاجتماعية والمصلحة الذاتية، حيث تؤكد النظرة الضيقة «نكران الذات» و«مكافحة الذات ونقد التحريفية»، والمصلحة «العامة» للجماعة والدولة تحل محل المصلحة الشخصية، وكتبت تلك النظرة التطور الذاتي من خلال النزعة الجماعية التي تحمل في طياتها «فهم» الثقافة التقليدية، وأعاقت الدور الوظيفي للآلية الحيوية الاجتماعية. ومن ثم، يعد كيفية تحقيق الإفادة من تعديل العلاقة بين الفرد والمجتمع في إيقاظ إيجابية الناس من جديد لبناء المجتمع جزءا مهما في الإصلاح والانفتاح. ويؤدي اجتياز التفكير المضاد في العلاقة السابقة بين الفرد والمجتمع، وتصحيح العوامل التي تقمع التطور الذاتي والمبادرة الذاتية والتغلب عليها في الهيكل والتنظيم الاجتماعي السابق، وتأسيس الآلية الاجتماعية الحيوية الجديدة بصورة تدريجية داخل إصلاح النظام الاقتصادي في الريف والمدينة، يؤدي ذلك كله إلى الاهتمام بالمصلحة الذاتية الشرعية. ولذلك، تم حشد حماسة الألوف المؤلفة من الناس التي تخوض غمار الإصلاح والبناء وتجسد إيجابية تكريس الجهود من أجل المجتمع. وظفرت المصلحة الذاتية الشرعية في ظل تلك الظروف بالاعتراف والاهتمام. كما حظيت كرامة الفرد وقيمه الذاتية بالاهتمام والرعاية الكبرى، واتسم مفهوم الوعي الأساسي الذاتي والكمال الشخصي بالتطور المحدود. ويعد ذلك التغيير، الذي عزز القوة الحيوية الداخلية للتطور الاجتماعي تعزيزا كبيرا، بمنزلة التحرر الأكبر الذي أحرزه الصينيون في الجانب الفكري داخل عملية التحديث، والتقدم الاجتماعي العظيم أيضا.

ولكن، ظهرت أيضا بعض الظواهر السلبية عند تأمل العلاقة بين الفرد والمجتمع من جديد، وذلك من جراء التوجيه الاجتماعي الخاطىء والانحراف والنظرة الضيقة داخل أذهان الناس. ويعني ذلك أن الأنانية حظيت بالترحيب الجزئي بوصفها نوعا من وجهة النظر إلى القيم والمثل العليا للحياة. وعلى الرغم من أن اتجاه الأنانية الأيديولوجي لعب دورا متقدما في التاريخ، وعلى الرغم من أن بعض عوامل الأنانية (يشترط الفهم الصحيح

للأنانية) ربما تصبح نوعا من القوة النفسية التي تجعل المجتمع يتسم بالحيوية، ولكن المبادىء* النظرية الأساسية في اتجاه الأنانية وهي القاعدة الذاتية والمركز الذاتي والفرد فوق الجميع تشتمل على العوامل الهدامة التي تنأى بعيدا عن حركة التحديث. وهناك احتمال كبير لأن تتطور الأنانية وتصبح شكلا من أشكال التطرف، وذلك ما يطلق عليه «الأنانية المتطرفة». ولا تؤكد الأنانية الذات وتبرزها فحسب، بل تنكر المجتمع وقيم الآخرين إنكارا تاما وتفهم الحرية الشخصية والمساواة والقيم والمصالح والحقوق انطلاقا من المغزى المطلق، بل حتى لا تتورع عن استخدام أسلوب إلحاق الأضرار بالآخرين من أجل البحث عن أهداف القيم الذاتية. وربما تجعل الأنانية الإنسان يتجاهل كل العواقب الاجتماعية من أجل تحقيق الذات، ولا يعير اهتماما لأي كارثة يسببها للآخرين أيضا. وكان هذا الاتجاه بمنزلة التأثير العضوي الهائل الذي سبب تآكل المجتمع وعرقل المسيرة التاريخية لتحديث المجتمع وقاومها. ولذلك، حتى في المجتمع الغربي الشهير بـ «تقاليد ثقافة الأنانية» يوجد به الكثيرون من ذوي الأفكار العميقة الذين اهتموا بجانب الأنانية التي تستأصل المجتمع، وكشفوا النقاب عن قيمها السلبية في مسيرة التحديث. وعلى سبيل المثال، لخص دانيل بيل في كتابه «تناقض ثقافة الرأسمالية» الوضع الصعب الثقافي الذي تواجهه الرأسمالية الآن من جراء الأشياء التي جلبتها تقاليد ثقافة الأنانية من الاستهلاك ومذهب المتعة وأشكال التعبير الذاتي والعدمية والرغبة الذاتية المتضخمة بلا حدود والتي تقاوم المصلحة العامة وغيرها. ويعتقد العالم الأمريكي روبرت ناسبيت Robert Nassibitt أن الأنانية فتتت أوصال المجتمع وجعلته قطعة من الصخر الرملي، ويبدو أن الناس يعيشون مرة أخرى في أعشاب المناطق الاستوائية الكثيفة التي تعتمد على شريعة الغاب من أجل البقاء. كما يعتقد عالم أمريكي آخر هو روبرت نيلي بيلاخ Robert Neely Bellah: «أن الأنانية ربما تتحول إلى سرطان»، و«أننا نواجه المشاكل الأكثر عمقا سواء بالنسبة للمجتمع أو الفرد والتي ترتبط بأنانيتنا ارتباطا وثيقا». و«يبدو أن الأنانية الحديثة تقدم للناس في الوقت الحاضر أسلوبا للحياة لا يتناسب مع الفرد أو المجتمع أيضا»[2].

ولكن -في الواقع- تتسم عوامل الأنانية السلبية في الحياة الاجتماعية

الصينية بالتأثير المحدود واتجاه الانتشار الواسع في السنوات القليلة الماضية. وفي الوقت الذي ساد فيه اهتمام الناس بالمصلحة الشخصية، أظهروا أسلوب اللامبالاة تجاه المصلحة العامة، ويميلون إلى الاهتمام بالمصلحة الشخصية عندما يحدث تناقض بين المصلحة العامة والمصلحة الشخصية. وتعاظمت الأنانية المتطرفة إلى حد ما، وبالتالي ضعف إحساس المسؤولية الاجتماعية. وفي عبارة أخرى، شهد اتجاه القيم التقدم نحو الذاتية عندما يتأمل الناس العلاقة بين الفرد والمجتمع من جديد، وهناك بعض الأفراد الذين لا ينظرون بعين الاعتبار إلى المصلحة الشخصية الشرعية فحسب، بل يعتبرون الفرد «القاعدة» و«المبدأ» و«نقطة الانطلاق». وإذا انتشر مثل ذلك الاتجاه الأيديولوجي انتشارا واسعا وأصبح وجهة النظر إلى القيم التي يتقلبها الجميع على نطاق واسع ويصممون المثل العليا الذاتية التي يبحثون عنها حسب مبدأ ذلك الاتجاه، فإنه لا يمكن تجميع القوى الاجتماعية وقوة التركيز ولا يوجد الكثيرون الذين يرغبون في الاتحاد تحت مظلة المثل العليا المشتركة ويدفعون قضية التحديث في الصين معا. ومن ثم، توجد الآن ضرورة للتفكير في كيفية تأسيس المبدأ الذاتي الكامل في حياة الصينيين الواقعية بصفة خاصة. وفي ظل ذلك المبدأ يمكن إطلاق العنان بصورة كافية للمبادرة الذاتية والإبداع الذاتي، مما يسهم في تطوير قوة الإنسان الصيني الجوهرية وتطوره الشامل. كمايمكن في ظل ذلك المبدأ جعل التصميم الذاتي للحياة والبحث عن المثل العليا يساعد على استقرار المجتمع كله وانسجامه وتطوره، ويحقق القيم الذاتية في المجتمع تحقيقا كاملا. ولذلك، يعد الإنسان الصيني الذي يتسم بدرجة عالية من الوعي الأساسي وروح الإبداع والمبادرة الذاتية وضبط النفس والاعتماد عليها بمنزلة الأساس المهم للتحديث الصيني. وإذا لم يتحقق التطور الشامل للذات وإعطاء الدور الكامل للمبادرة الذاتية، فإن تحديث البلاد والمجتمع يفتقر إلى المغزى وربما يكون مستحيلا أيضا. ومن ناحية أخرى، يكون التطور الشامل للفرد وتحقيق القيم في غاية المستحيل إذا افتقرت البلاد والمجتمع إلى التطور والتحديث، أو إذا اعتزل الفرد التيار الاجتماعي الرئيسي.

ولذلك، هناك ضرورة لإعادة بناء المثل العليا الاجتماعية المشتركة من

أجل تعبئة الشعب على نطاق واسع ليخوض غمار قضية التحديث وتكوين قوة تركيز التطور الاجتماعي وحشد أفضل الطاقات وجعل الهدف الأساسي لأفراد المجتمع وإبداعهم ومبادرتهم تقوم بالدور الكامل في قضية التحديث الصيني بصورة كافية. إن تلك المثل العليا المشتركة سوف تتوافق مع الاتجاه التاريخي لتطور المجتمع الصيني وأهداف القيم في التحديث. ولذا، تتسم تلك المثل بالأساس الواقعي والقوة المؤثرة وتستطيع إحراز المصداقية الاجتماعية مترامية الأطراف وتصبح الهدف الذي يبحث عنه جميع أفراد المجتمع ويكافحون من أجله. وفي الوقت نفسه، تؤثر تلك المثل العليا المشتركة في اختيار أفراد المجتمع للمثل العليا الأخلاقية الذاتية والشخصية المثالية، وسوف يستطيعون القيام بتصميم المثل العليا الذاتية في حرية وبصورة معقولة في أثناء البحث عن المثل العليا المشتركة. كما ينظمون ويدمجون البحث عن المثل العليا الذاتية مع البحث عن المثل العليا الاجتماعية المشتركة بصورة وثيقة ويحققون المثل العليا الذاتية في أثناء البحث عن المثل العليا الاجتماعية المشتركة. ولذا، يعد ذلك بمنزلة تحقيق قيم حياة الفرد وإطلاق العنان لقوته الجوهرية بصورة كافية وإحراز التطور الذاتي الشامل. ويجب أن نقول، إن إعادة بناء المثل العليا الاجتماعية المشتركة تعتبر جانبا مهما في عملية تقدم الصين نحو التحديث وتحقيق التوافق الثقافي الاجتماعي من جديد، وتأسيس الآلية الحيوية الفعالة. وتتسم مسألة إعاد ةبناء المثل العليا الاجتماعية المشتركة بالأهمية الملحة الخاصة في ضوء دراسة الأوضاع الحالية. ويجب أن تثير هذه المسألة انتباه كل الأوساط الاجتماعية واهتمامها.

الهوامش

(1) كنت أدرس في الجامعة آنذاك، واشتركت في تلك المناقشة اشتراكا محدودا، وحتى اليوم تركت الضجة التي أحدثتها تلك المناقشة واتجاهها واسع النطاق انطباعا عميقا في نفسي، وأتذكر ذات يوم أنني ذهبت إلى دار صحيفة الشباب الصيني وشاهدت قسم التحرير يغص بأكوام من المقالات والرسائل حول تلك المناقشة، مما يجعل المرء يمجد الأعمال ويرفعها إلى مرتبة الذروة، وكان يجول في خاطري أن تلك المناقشة كانت ضحلة وسطحية وقتئذ، ولكن أشارت إلى الاتجاه الفكري في المرحلة التالية لتلك المناقشة.

(2) روبرت نيلي، «العادات والتقاليد النفسية ـ الأنانية وظهورها في حياة الأمريكيين»، اقتباس من «تأمل مسألة الأنانية»، تأليف: شيا وي دونغ، مجلة «التدريس والبحث» العدد الرابع، عام 1990.

12 البحث عن عالم المعاني لدى الصينيين: العودة أو إعادة البناء

وفي إيجاز نقول إن الصينيين يحتاجون في عملية تحولات التحديث إلى البحث عن عالم المعاني الذي فقدوه في هذه العملية. إن الاهتمام المطلق وعقيدة القيم والمصداقية الثقافية والمثل العليا المشتركة لدى الصينيين -وباختصار أن عالمهم الفكري والعودة إلى نفوسهم- يعتمد على هذا العالم الذي يستمدون منه التأييد ويعلقون عليه الآمال.

إن العودة إلى عالم المعاني في الثقافة التقليدية وإعادة بناء عالم المعاني في الثقافة الحديثة يعدان بمنزلة نوعين من الأفكار والاختيار للبحث عن عالم المعاني لدى الصينيين، وتصميم النهوض بالثقافة الصينية، ونموذج تطوير الصين في المستقبل، وقدوة تطوير ذات الصينين. كما أن هذين النوعين من الأفكار والاختيار متشابكان ومتناقضان ومتعارضان ومتصادمين وشكلا جانبا مهما في تناقض الثقافة الصينية الحديثة.

وتجسد الكونفوشيوسية الجديدة أفكار واختيار

العودة إلى عالم المعاني في الثقافة التقليدية. ويشعر الناس بالحقد المرير وأنهم في خوف دائم لا يستقر لهم قرار بسبب فقدان عالم معاني الثقافة التقليدية. وجابوا أطراف العالم وهم يضمرون الحالة النفسية من التعاسة والكآبة وإخفاء المشاعر الحقيقية، ويسعون من أجل ترويج الأفكار وإخلاصهم ومشاعرهم الملحة بهدف العودة إلى عالم المعاني المفقود والاهتمام المطلق. ويكنون الحنين والاشتياق اللانهائي إلى الثقافة الصينية التقليدية. وتحاول الكونفوشيوسية الجديدة إعادة بناء الاهتمام المطلق الحديث في المصدر الأصلي للثقافة الصينية، ولذا يفصل الكونفوشيوسيون نظام القيم الأخلاقية الكونفوشيوسية عن النظام السياسي والاجتماعي، ويؤسسون نظام المعاني المستقل على أساس نظرية طبيعة الوجود الأخلاقي، وينطلقون من مفهوم «الرجل الحكيم في الداخل» إلى «ملامح الملك في الخارج»، ويجعلون الكونفوشيوسية تلعب دورها في التحديث الصيني من جديد وتحصل عليالحياة الجديدة والأحياء. ولكن عالم المعاني الذي تبحث عنه الكونفوشيوسية الجديدة ينأى في جوهره عن التحديث ويجسد اتجاه القيم المعارض لمسيرة التحديث التاريخية. ومن ثم، لا يستطيع مثل عالم المعاني ذاك التوافق مع التحديث، ولا يستطيع أيضا منح الشرعية لقيم العناصر الأساسية في المجتمع الحديث، ويعجز عن تقديم المؤازرة لعالم قيم الصينيين المعاصرين.

وقياسا إلى وجهة نظر التحديث، فإن المعاني المفقودة لدى الصينيين المعاصرين هي ظاهرة لا يمكن تجنب ظهورها في عملية انتقال الصين من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث. كما أنها ظاهرة ثقافية تاريخية تتسم بالحتمية الداخلية وحلقة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها في تحولات التحديث. ومن ثم، يعد ذلك تقدما تاريخيا، وعلى الرغم من أنه تقدم ربما يحتاج إلى دفع الأثمان الباهظة، فإنه سوف يسبب آلاما بالغة داخل أغوار نفوس الناس. وقد اجتاز الصينيون فقدان عالم المعاني والاهتمام المطلق والمصداقية الثقافية وأزمة عقيدة القيم. وعلى الرغم من أن الصينيين شعروا بالحيرة والارتباك والقلق والكآبة والعزلة والتشرد وعدم الأمان، فإن ذلك كان بمنزلة خروجهم من القرون الوسطى وأضغاث أحلام الثقافة التقليدية، واندماجهم في المسيرة التاريخية للتحديث.

ولكن، تعد حالة التشرد وعدم الأمانة ظاهرة ثقافية خاصة في نظام «نموذج الانتقال» الثقافي الاجتماعي، كما أنها ظاهرة مؤقتة في عملية الانتقال من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث. وإذا افتقر المجتمع إلى هيكل المفاهيم المشتركة وشبكة المعاني، فمن الصعب تكوين التوافق الثقافي الاجتماعي الفعال، ويعجز الأفراد فيما بينهم عن الترابط والتبادل والتفاهم أيضا. ولذلك، يعجز المجتمع والفرد عن تحمل الأوضاع التي تفتقر إلى المعاني. وفي الواقع، يعد انحلال عالم المعاني في الثقافة التقليدية وإعادة بناء عالم المعاني في الثقافةالحديثة بمنزلة عملية تاريخية واحدة. وفي الوقت الذي فقد فيه الصينيون عالم المعاني للثقافة التقليدية، يبحثون عن عالم المعاني الجديد بجد ونشاط أيضا. إن مشكلة إعادة بناء عالم المعاني الجديد، مثل انحلال عالم المعاني في الثقافة التقليدية، تحتاج إلى فترة طويلة ولا تتم بين عشية وضحاها وربما يحتاج أيضا إلى الجهود الأكثر مشقة وعسرا التي يبذلها الناس.

إن رغبة الكونفوشيوسيين الجدد في العودة إلى أفكار الثقافة التقليدية واختيارها تتعارض مع التيار التاريخي ولا تتقدم إلى الأمام. ويتطلب البحث عن عالم المعاني لدى الصينيين إعادة البناء على أساس منظم. وربما تكون إعادة بناء عالم الصينيين الاختيار الوحيد لديهم.

إذن، كيف يجب على الصينيين إعادة بناء عالم المعاني الخاص بهم؟

إن إعادة بناء عالم المعاني لدى الصينيين يتوافق مع تحول الثقافة الصينية وانتقالها من التكوين التقليدي إلى التكوين الحديث وتصميم النهوض بالثقافة الصينية، بل حتى نستطيع القول إن إعادة بناء عالم المعاني هو مفتاح المجتمع الصيني والثقافة الصينية للتقدم نحو التحديث. ومن ثم، يجب إعادة بناء عالم المعاني للصينيين الذي يتوافق مع التحديث. وفي عبارة أخرى، يجب على الصينيين تعديل هيكل مفاهيمهم وشبكة المعاني حسب أهداف قيم التحديث وإقامة نظام المعاني الثقافية التي تتناسب مع مسيرة التحديث التاريخية وتستطيع تعزيز التحديث وتأييده، وتقدم الشرعية للقيم والثقافة في تحولات التحديث. وفي الوقت الحاضر، تقبل الصينيون -من الناحية العقلانية-اتجاه التحديث وأهدافه على نطاق واسع المدى، ويتمتعون بالمعرفة المشتركة الواسعة من أن الصين يجب عليها السير على

درب التحديث حتى تنعم بالقوة والثراء والازدهار. ولكن، مازالت المفاهيم والقيم والعقيدة وأسلوب التفكير الذي يتلاءم تماما مع التحديث لم يتكون في الهيكل الثقافي الصيني والجانب السيكولوجي العميق للصينيين. ولذلك، يظهر عادة سوء التفاهم والانحراف في السعي وراء أهداف التحديث. ويعد ذلك عاملا مهما لظهور النكسات والأخطاء في عملية تقدم الصين نحو التحديث. ولذا، يجب على الصينيين إعادة تنظيم شبكة معانيهم وإعادة بناء عالم المعاني الخاص بهم في ضوء مبادى* التحديث ومتطلبات أهدافه. وإذا ظفر عالم المعاني ذاك بمصداقية أفراد المجتمع وقبولهم واسع النطاق، فإنه يصبح مصدر القيم الثقافية التي يتم اتباعها والاعتماد عليها بصورة عامة. إذن، من السهل أن يترابط الناس فيما بينهم ويتبادلوا ويتفاهموا إلى حد ما. ومن السهل أيضا أن يحرز اتجاه هدف التحديث الاجتماعي التماسك الصحيح النسبي. وبالتالي تتشكل الروابط القوية للتوافق الثقافي الاجتماعي والآلية الحيوية لدفع التطور الاجتماعي إلى الأمام. لذلك، لا يمكن تكوين المعرفة المشتركة الحقيقية والعقيدة والمثل العليا المشتركة إلا على أساس التفاهم المشترك.

ولذلك، تحتاج إعادة بناء عالم المعاني لدى الصينيين إلى تأسيس عالم المعاني في الثقافة الصينية الحديثة، وتقديم المساعدة لحركة التحديث الصيني. ويعد التحديث الملائم والمتطور بمنزلة اتجاه القيم الأساسية لعالم معاني الثقافة الصينية الحديثة. ويعتبر التحديث عملية تاريخية موضوعية ويتسم بمحدوديته وقيوده وقيمه السلبية الخاصة ومؤثراته السلبية، وتعد هذه المشاكل كلها بمنزلة محدودية التحديث الداخلية. ولذا، فهي مشاكل حتمية أو من الصعب اجتنابها. ويطرح ذلك مشكلة تجاوز التحديث. وهناك جانبان مهمان بصفة خاصة للنظر إذا كان المجتمع يتمتع بالنشاط والحيوية أم لا، وإذا كانت الحركة الاجتماعية تتسم بالمستقبل أم لا، هما: القدرة على التجديد الذاتي، والقدرة على تجاوز الذات. ويحتاج تجديد الذات إلى الانفتاح على كل الجهات والانتقال وإنشاء آلية التعويض الفعالة داخل المجتمع، وجعل القوة الاجتماعية الجديدة تندمج في تكوين التنظيم الاجتماعي والحفاظ على القوة الدافعة الداخلية لتطور الحركة الاجتماعية نفسها. ويحتاج تجاوز الذات إلى الوعي والرؤية المستقبلية في الأنشطة

الحقيقية، والاهتمام دائما بمحدودية الذات وتقييدها والتغلب التدريجي على هذه المحدودية والقيود من خلال البحث المستمر عن الأهداف الأكثر رفعة وتجديدا. ولذلك، عالم المعاني الذي يبحث عنه الصينيون ويعيدون بناءه لا يتلاءم مع التحديث فحسب، بل يجب أن يتكيف مع تجاوز التحديث ويقدم مصدر قيم تطوير المجتمع في المستقبل، ويقدم ذلك الإمكان الموضوعي لقيام الصينيين بتكوين الوعي الذي يتجاوز التحديث، وذلك لأن الصين من الدول التي تنتمي إلى ما بعد تطوير التحديث. ولم يعد ينظر الناس إلى التحديث باعتباره عملية متكاملة وغير محدودة من جراء بعض مشاكل التحديث ذاته التي تنفجر في بعض الدول المتطورة يوما بعد يوم. واستنادا إلى ذلك، يستطيع الصينيون تطوير الوعي المتفوق والاهتمام بإمكان تجاوزه دائما في عملية السعي وراء التحديث. ولذا، يمكن تقليل التصرفات المتهورة والتغلب على النكسات والطرق الملتوية التي لا داعي لها.

ويجب على عالم المعاني لدى الصينيين المعاصرين أن يتلاءم مع التحديث ويتجاوزه أيضا. والآن يبحث الصينيون عن مثل عالم المعاني ذاك، ويعيدون بناءه. وتعد عملية البحث عن عالم المعاني وإعادة بنائه بمنزلة بحث الصينيين عن «اهتمامهم المطلق» وإعادة بناء مثلهم العليا المشتركة.

الباب الرابع
ما بعد عصر الأبطال

13 عبادة الأبطال عند الصينيين

الصينيون أمة في غاية التمسك بعبادة الأبطال. وفي التكوين السيكولوجي عميق الأغوار لدى الصينيين يتبلور بعمق التزام الصمت مهابة وإجلالا للأبطال، وعبادتهم، والإيمان بهم، واتفاق الآراء حولهم، وإدراك محاكاتهم. ويلعب الأبطال دوراً كبيراً في تصوير طبيعة الأمة الصينية.

وهناك علاقة تربط بين مشاعر عبادة الأبطال لدى الصينيين، واعداد الثقافة الصينية التقليدية للشخصيات المثالية. وجسد هذا النوع من إعداد الشخصيات المثالية الاتجاه الذي سارت فيه القيم الأساسية للثقافة الصينية التقليدية. كما جسد أيضا المعيار والنطاق المحدد للبشر الصينيين حسب ما تراه الثقافة الصينية التقليدية. ويعد هذا النوع من إعداد الشخصيات المثالية نموذجا للسلوك الأخلاقي في غاية الرفعة، مما جعل الناس يصلون إلى مقام تمجيد الأعمال ورفعها إلى مرتبة الذروة في الحياة. وطبقا لهذا النوع من إعداد الشخصيات المثالية، فقد منحت الشخصيات البطولية في الأساطير الصينية والتاريخ الصيني الصفات الأخلاقية النبيلة والفكر الأخلاقي، وأصبحت تلك الشخصيات تجسد الأخلاق الأكثر رفعة ونموذج

الكمال في الحياة لدى الصينيين،ولذا أصبحت قدوة يسعى الناس إلى الاقتداء بهم.. وظفرت محاكاة الشعب لنماذج الشخصيات البطولية بالتأييد الاجتماعي، وربما حققت تلك المحاكاة النجاح والتأثير الإيجابي في الحياة القائمة داخل الشبكة التنظيمية للمجتمع التقليدي. ولذلك فإن عبادة الأبطال تعني مصداقية الشخصيات المثالية التي تقدمها الثقافة الاجتماعية، وقبول إرشادات تلك الشخصيات وتصورها للحياة الواقعية.

ومن ناحية أخرى، جعل الاقتصاد الطبيعي وشبكة تنظيم العشائر في المجتمع الصيني القوة الفردية تظهر بما لا يستحق الذكر، وشعر كل فرد بأنه ضئيل الشأن لا حول له ولا قوة في مواجهة قوة السر للكون الضخم العظيم، وهيكل تنظيم المجتمع المقسم تقسيما صارما إلى فئات، واضطر إلى أن يسمح لمثل هذه القوى الخارجية بأن تسيطر عليه وترتب له شؤونه. وعلق الشعب آمال تغيير الوضع الراهن على هؤلاء الأبطال الذين يتحلون بالقوة المقدسة. ويرى أفراد الشعب الصيني العادين أن الشخصيات البطولية تتسم بالقوة العظيمة التي يفتقرون إليها، وتتبوأ مكانة مرموقة وتتمتع بالرؤية بعيدة المدى، وتبذل قصارى جهدها لصد الخطر الداهم وإنقاذ الشعب من هوة البؤس والحرمان. إن الصينيين أمة تحتاج إلى الأبطال، وإلى عبادة الأبطال. ولذلك تشكل عالم الأبطال في الثقافة الصينية متسماً بالمهابة والعظمة، وظهرت العديد من القصص البطولية التي تهتز لها الدنيا وتبكي الشياطين والآلهة. وحتى يومنا هذا، مازالت تنتشر هذه القصص على نطاق واسع داخل الأوساط الشعبية وتنال الإعجاب والتقدير والحب والتأييد.

وتعرض المجتمع الصيني التقليدي والثقافة التقليدية في الصين للهجوم الشرس والتفكك التدريجي خلال تحولات التحديث الصيني، ويواجه عالم المفاهيم والإيمان بالقيم عند الصينيين الضياع وتجديد الأوضاع الصعبة. ولكن لم تتعرض مشاعر عبادة الأبطال التي قامت الثقافة التقليدية بتشكيلها وتعزيزها للضعف. بل حققت تلك المشاعر الذيوع والانتشار والتوطيد إلى حد ما أثناء عملية الانحطاط الكاملة للثقافة الصينية التقليدية، ويعد ذلك ظاهرة خاصة جداً في الثقافة الصينية الحديثة. ويوضح التحليل الأولي أنه ربما تكمن الأسباب التالية المتعددة الجوانب وراء تبلور هذه الظاهرة

الثقافية الخاصة:

في المقام الأول: إن عملية التغييرات الحديثة في الصين تتزامن مع عملية احتلال الاستعمار والإمبريالية للصين وسلبها واضطهادها. ومنذ حرب الأفيون، تواجه الصين خطرا رئيسيا يكمن في مسألة مصير الأمة. وأصبحت مسألة «إنقاذ الأمة من الاضمحلال» الموضوع الرئيسي الملح ردحا طويلا. ومنطق التاريخ الصيني الحديث والمعاصر هو «إنقاذ الأمة» من «الاضمحلال»، ولذلك يجب «بذل أقصى الجهود في سبيل التقدم»، حتى يمكن إحداث التغيير والتحديث داخل المجتمع الصيني. وتتقدم الصين نحو التحديث بهدف مناهضة الاحتلال والاضطهاد أولا، والكفاح من أجل بقاء الأمة. ويغص كفاح الشعب الصيني ضد الاحتلال والاضطهاد بالصعوبات والمشقات. كما كان كفاحاً طويلاً جداً ولا يعلى عليه. ومنذ بداية حرب الأفيون ونضال لين تسي شو[1]، يخوض الصينيون جيلا بعد جيل معارك دامية، وكلما سقط أحدهم، وثب الثاني ليحل محله في المعارك، وبعد مرور حوالي أكثر من مائة سنة، ظفروا في نهاية المطاف بالاستقلال الوطني والتحرير. وخلال المائة سنة هذه أو أكثر، ظهر آلاف من الأبطال الوطنيين الذين قتلوا بكل جسارة وشجاعة ولا يخشون التضحيات، وضحوا بأنفسهم في سبيل قضية عادلة وسجلوا فصلا مهيبا وجليلا للغاية في التاريخ الصيني. وكان ذلك العصر عصر الحاجة إلى الأبطال، وإعداد الأبطال، إنه عصر نبت الأبطال أيضا. لقد جسد هؤلاء الأبطال الوطنيون العظام المزايا والشهامة السامية للصينيين، ويعد هؤلاء الأبطال صفوة الأمة، والمثال النموذجي للشعب، وظلت مآثرهم ومثلهم العليا تتمتع بالقوة المؤثرة في النفس إلى حد بعيد، وقوة الشخصية حتى اليوم. ولذا يعتبر الصينيون المعاصرون تلك الشخصيات البطولية العظيمة رمزا لعزة الأمة وافتخارها، ويكنون في سويداء قلوبهم الإعجاب والتقدير لهم ويعبدونهم.

ثانيا: شهدت الطبيعة القومية لدى الصينيين تغييرا تدريجيا أثناء التحول إلى التحديث. وظل الصينيون يتسمون إلى حد كبير بخصائص طبيعة التقليديين ونزعتهم النفسية في مجرى التغيير. وظل الوعي الأساسي للصينيين في طور النشأة والتكوين، ولذلك قاموا بصورة طبيعية جداً بإيقاظ المشاعر القوية من عبادة الأبطال المتغلغلة داخل نفوسهم عندما واجهت

الصين اللحظة الحاسمة لأزمة البقاء أثناء مرحلة التحول التاريخي للتغييرات الاجتماعية الكبرى، وعلقوا أمل «إنقاذ الصين من الاضمحلال»، وتقدم الأمة على أكتاف تلك الشخصيات. ومن جانب آخر، تتمتع الشخصيات البطولية فعلا بالقوة الكبيرة التي تؤثر تأثيراً كبيراً في النفوس وشحذها، ولعبت دوراً مهماً في تعبئة المجتمع وتوجيه النداء للجماهير الشعبية.

ثالثا: أكد الصينيون بصورة واضحة أهمية الدور الذي تلعبه الشخصيات البطولية في عملية تأسيس الثقافة ووطدوا بوعي تعميم عبادة الأبطال والدعاية لهم. إن الشخصيات البطولية هي تشخيص بوجهة النظر إلى القيم الثقافية وتجسيد قوي للقوة التنظيمية. كما أن تلك الشخصيات تتحلى بوجهة النظر إلى القيم الثقافية، وتمثل تفوق المثل العليا للثقافة، وتتسم بمغزى الرمز الثقافي. وتحتاج الثقافة الصينية أيضا إلى الشخصيات المثالية التي تجسد وجهة النظر إلى القيم الثقافية الحديثة لتحل محل الشخصيات المثالية في الثقافة التقليدية في عملية التغيير والانتقال من الشكل الثقافي التقليدي إلى الشكل الثقافي الحديث. وتعد الدعاية لمثل تلك الشخصيات البطولية والشخصيات المثالية بمنزلة إعادة بناء جوهر الثقافة الصينية وهيكل المفاهيم وتنشيط التحديث الثقافي. وبعد عام1949، ظل الحزب الشيوعي الصيني ينظر إلى الدعاية للشخصيات البطولية وتشجيعها بأنها من الوسائل المهمة للإفادة من الماركسية وأفكار الشيوعية في تعليم الشعب وإعادة بناء العقيدة المشتركة والمثل العليا المشتركة للجميع، وتعبئة القوة الاجتماعية الكاملة لدفع عجلة تطوير تحديث الصين إلى الأمام. وتجسد الشخصيات البطولية الصفة الأخلاقية والروح الثقافية للشيوعية. كما تجسد أيضا سعي الصينيين وراء القيم والأفكار الذاتية لتطوير المجتمع في المستقبل. ومن ثم ظفرت تلك الشخصيات بالتأييد الاجتماعي على نطاق واسع، وأصبحت المثال النموذجي الذي يتدارسه الشعب ويقتدي به، وهدفا يحظى بالتأييد الثقافي. كما قدمت تلك الشخصيات أشكالا جديدة من أجل إعداد الشخصيات النموذجية. وعلى سبيل المثال، حققت الدعاية للشخصيات البطولية أمثال: ليفنج، وجياو يوي تشانج، وانج جينغ شي، وغيرهم تأثيرا كبيراً.

ولذلك، أطلقت مشاعر عبادة الأبطال لدى الصينيين العنان للاتجاه

الرئيسي الوظيفي في عملية تقدم الصين نحو التحديث، ولعبت دوراً كبيراً وإيجابيا في هذا الخصوص.

ولكن في الوقت نفسه الذي نؤكد فيه أهمية الدور الإيجابي الذي تلعبه مشاعر عبادة الأبطال في عملية التحديث، يجب علينا أيضا أن نجري تقييما مناسبا لآثارها السلبية. وفي الواقع، أن الجانب الإيجابي والسلبي لمشاعر عبادة الأبطال يرتبط كل منهما بالآخر، وخاصة في العصر الذي سادت فيه الأفكار «اليسارية».

وجلبت سيكولوجية عبادة الأبطال تأثيراً سلبيا في إعداد الصينيين وتعزيز التحديث، وظهر ذلك أولا في العملية الانتقالية لترسيخ مفهوم سيكولوجية عبادة الأبطال التي سببت انحلال الوعي الذاتي على نطاق واسع، وأعاقت تغيير الصينيين وانتقالهم من أفراد تقليديين إلى مرحلة التحديث. ويرى الصينيون أن الشخصيات البطولية تتصف بالأخلاق النبيلة السامية والمشاعر العاطفية، وتتبوأ مقام الشخصيات الرفيعة. كما تتمتع الشخصيات البطولية بالقوة الجبارة التي تتفوق على كل ماهو مقدس، ولذلك تتحلى بشيء من القداسة[2]. وفي العصر الحديث سار الصينيون أيضا في اتجاه تقديس الشخصيات البطولية من حيث إظهار التقدير العظيم والدعاية لها، كما لو كانت تلك الشخصيات هي الشخصيات الأسمى والأعلى والتي لا تشوبها شائبة، والقادرة على كل شيء. والأبطال الذين وصفوا بالتقديس ظفروا بالعبادة والإعجاب والثناء من جانب الشعب الذي يتوق إليهم مثل الطفل المفعم بالثقة تجاه والديه، وعلق آمال تغيير الحياة على أكتافهم، وتخيل دائما أنه يستطيع لقاء مثل تلك الشخصيات النزيهة النبيلة التي تعلو على كل ماهو مقدس وتتحمل المسؤولية من أجل الشعب. وعلى سبيل المثال، التأثير القوى الذي حققه الوعي المنتشر على نطاق واسع نسبيا لإعداد «موظف نظيف قويم»، والمسرحية التلفزيونية «النجم الجديد» وغيرها من التأثيرات الأخرى تعد تجسيداً ملموساً لسيكولوجية هذا النوع من عبادة الأبطال. وقمعت سيكولوجية عبادة الأبطال تنمية الوعي الذاتي عند الصينيين، وسببت إطلاق العنان بصورة كاملة للشعب للقيام بالمبادرة والتأثير الإيجابي والإبداع في الحركة التاريخية. ويوجد مفهوم رئيسي في إعداد الثقافة الصينية التقليدية للشخصيات المثالية

هو: «يستطيع الناس أن يكونوا من الحكماء والفضلاء». ولكن هناك أناسا يمكنهم أن يصلوا إلى هذه المكانة أو الاقتراب منها أيضا أثناء الممارسة العملية. إن النظام الثقافي الاجتماعي يعتبر الشخصيات البطولية شخصيات مثالية للمجتمع قاطبة، ويتخذ من سلوكهم مقياسا لتحديد مستوى ووصف المزايا النفسية والسلوكيات عند أفراد المجتمع. وعلى هذا النحو، ترسخ داخل أعماق الصينيين «مشاعر الرجل الحكيم»، ويعني ذلك-في البداية- أن الناس لا يعتبرون أنفسهم أفرادا عاديين ويعيشون حياة عادية، ويسعون وراء تحقيق هدف حياة الأفراد العاديين، بل يتشددون مع أنفسهم طبقا لهدف قيم الشخصيات البطولية، ويحدوهم الأمل أيضا في أنهم يستطيعون أن يصبحوا من الشخصيات البطولية التي تنال التقدير العظيم والمدح والثناء من المجتمع. وهكذا منحهم تقديس الشخصيات البطولية المزايا النبيلة المطلقة والقوة والمنزلة الرفيعة، وجعلهم يشعرون بالاحترام والتقدير المطلق من جهة ومن جهة أخرى، شجع الشعب على التعليم من هذه الشخصيات البطولية ومحاكاتها ودراستها، والإفادة من منزلة المثل العليا الفائقة في السعي وراء الحياة الوقاعية وتحديد معيارها. ولذا يشعر الذين لم يعيشوا سنوات الحرب التي تعد بمنزلة عصر نبت الأبطال، والذين لم تسنح لهم الفرصة تجسيد أعمالهم البطولية، والذين لم يقدموا في حياتهم مآثر بطولية تدهش الآخرين، يشعرون جميعا بالضيق والشكوى والقلق والهم. والشعب في سعي دائم وراء اقتناص هذه الفرصة. ومن جانب آخر، يقوم الناس خاشعين في الحياة العادية بمقارنة أنفسهم وتقييهما ومحاسبة ضميرهم قياسا على أعمال الشخصيات البطولية، ولا سيما أثناء «الثورة الثقافية» التي قدمت أشكالا متعددة للندم والاعتراف بالخطأ مثل: «مناهضة الأنانية ونقد التحريفية»، و«شن حرب شرسة على إلماع فكرة المصالح الذاتية داخل الأذهان»، وغيرها من الأشكال الأخرى، مما جعل الصينيين ينزلقون إلى حالة نفسية قلقة للغاية وشعروا بقوة الضغط النفسي الجبارة. وسبب هذا النوع من عبادة الأبطال التوتر النفسي وقوة الضغط النفسي، وطمس المضمون الثري للحياة الواقعية ونكهة تنويع عالم الشخصيات، وقمع التطور الذاتي الشامل والتربية السليمة، وأصبح من الأعباء الفكرية عند الصينيين.

وعلى كل حال، تعد سيكولوجية عبادة الأبطال نوعا من التراكمات

الناجمة عن الثقافة التقليدية في عالم الشعور لدى الصينيين. كما تعد تلك السيكولوجية عاملا مخالفا لروح التحديث، وعلى الرغم من أنها لعبت دوراً إيجابيا محدداً في مرحلة خاصة من تعزيز التحديث في الصين، لكنها في الواقع أعاقت تحول الصينيين من الأفراد التقليديين إلى الأفراد العصريين. كما أعاقت تحديث الشعب الصيني. وعلى صعيد آخر، توطدت سيكولوجية عبادة الأبطال في ظل ظروف بيئية خاصة. وعندما شهدت الظروف البيئية للحياة الواعية التغييرات وأصاب الوهن عامل توطيد هذه السيكولوجية، تعرض هذا النوع من الشعور النفسي للضعف والانحلال رويداً رويداً. وفي الوقت الذي تعرضت فيه سيكولوجية عبادة الأبطال للانحلال، تعزز في الوقت نفسه الشعور الذاتي عند الصينيين، وتعزز أيضا الفكر المبدع وروح المبادرة. ويعد ذلك بمنزلة تقدم تاريخي كبير في طبيعة السيكولوجية والمفاهيم الثقافية لدى الصينيين خلال شن حملة التحديث الشاملة.

الهوامش

(1) لين تسي شو (1785-1850) زعيم المؤيدين لمنع تجارة الأفيون أو تعاطيه وخاض نضالاً مريراً ضد الاحتلال البريطاني أثناء حرب الأفيون. (المترجم).
لمزيد من التفاصيل انظر:

Hu Sheng «From the Opium War to the May Fourth Movement» Foreing Language Press, Beijing, First edition, 1991.

(2) تذكر الأساطير الصينية أن عالم الآلهة وعالم البشر يرتبط كل منهما بالآخر. وأن الأبطال هم ملائكة هبطوا من السماء إلى الأرض. وهناك بعض القصص الغريبة حول ولادة الأبطال حيث تدعي تلك القصص أن الأبطال تحولوا إلى ملائكة في نهاية المطاف. ويوجد من بين الآلهة الصينيين العديد من الشخصيات البطولية الحقيقية والتاريخية.

١٤ فقدان عبادة الأبطال وظهور عبادة الشخصيات النجومية

منذ عام 1978، تعرضت سيكولوجية عبادة الأبطال عند الصينيين للتقلص والوهن الشديدين جدا، وتعرض مغزى قيم الشخصيات البطولية التي ظفرت بالتقديس في نظر الصينيين للفقدان بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ. وظهر انحلال مشاعر عبادة الأبطال وفقدان مغزى القيم البطولية بصورة رئيسية في الجوانب التالية:

١- لم يعد الشعب ينظر إلى الأبطال باعتبارهم أوثانا يعبدها، بل اقتصر دوره على إظهار الاحترام لهم في نطاق محدود. وفي الوقت الحاضر، نبذ الناس التعصب الأعمى لسيكولوجية العبادة التي سادت في الماضي، ولا يعتبرون الشخصيات البطولية نماذج للأخلاق التي تتسم بالتمام والكمال. كما لا يعتبرون تلك الشخصيات آلهة ليس لها مثيل. وظل الشعب يكن احتراماً محدودا للشخصيات البطولية التاريخية التي تنتمي إلى السنوات الماضية ويفصلها عن الصينيين الحاليين، الذين يشعرون بأن تلك الشخصيات غريبة عنهم، زمناً طويلاً. ولا يكن الشعب مشاعر محدودة من الاحترام والإعجاب

للشخصيات البطولية التي ظهرت في الحياة الواقعية فحسب، بل فهمه لتلك الشخصيات محدود، ولذا يعتبرهم أناساً انبثقوا من صفوفه. كما يعتبرهم أفراداً عاديين ينجزون الأعمال الطيبة. ولم يعد الجو الحماسي لعبادة الأبطال يملأ كل أصقاع الأمة كما كان الحال في الماضي.

2- لم يعد الشعب يعتبر الشخصيات البطولية هدفا للحصول على التأييد والثناء، بل استغل الاحترام والتقدير في عالم «الآلهة» في مراقبة الحياة الواقعية باهتمام. ونظرا للتغييرات العنيفة التي طرأت على الحياة الاجتماعية، قدم الشعب أنواعا عديدة من الخيارات الممكنة لتحقيق القيم في الحياة. كما طرأت تغييرات جمة على مفاهيم الحياة والمثل العليا للحياة لدى الشعب، وظهرت الاتجاهات المتعددة. واعتبر الشعب الشخصيات البطولية هدفا لمصداقية الشخصيات والمثل العليا التي يسعى وراءها في الحياة، ويعد ذلك نوعا من الاختيار لتحقيق القيم في الحياة كما تستطيع الشخصيات البطولية أن تقدم العديد من الأهداف الأخرى للمصداقية التي يبحث عنها الشعب، وعلى الرغم من أن الشخصيات البطولية يمكن احترامها، فإنه ليس بالضرورة دراستها ومحاكاتها، وفقدت تلك الشخصيات ميزتها بأنها مقياس الحياة، ومغزى المثال النموذجي. ولم يعد الناس يشعرون بالتوتر النفسي ومشاعر القلق والهم وقوة الضغط النفسي لأنهم لم يستطيعوا ان يكونوا أبطالاً. وذلك لأن الشعب لم يعد يعتبر الأبطال الهدف الوحيد للقيم للسعي وراءه. وفي الماضي، كان الشعب يسعى دائما وراء فرص وظروف تحقيق المآثر البطولية، ولكن الآن هناك الكثيرون الذين تصادفهم مثل هذه الفرص والظروف ويبادرون بالتخلي عنها. ولا نرى في الأعمال الأدبية الحالية أشكالا للشخصيات البطولية «الرفيعة السامية الكاملة»، بل نجد معظم تلك الشخصيات عبارة عن شخصيات عادية في القصص المألوفة.

3- غيرت وسائل الدعاية صور الشخصيات البطولية، وبددت هالة قداستها، وأسقطتها من فوق منصة التقديس لتعود إليها الملامح الحقيقية لطبيعة الإنسان. وفي الماضي، كانت وسائل الدعاية للشخصيات البطولية تتجه بصفة عامة إلى إضفاء الطابع الإلهي على تلك الشخصيات ومنحتها الأخلاق النبيلة السامية والمكانة المرموقة التي لا يعلو عليها، ولذا نالت احترام الشعب وتقديره وعبادته. والآن ومع انحلال سيكولوجية عبادة

الأبطال، بدأت وسائل الدعاية تتناول نقائص الشخصيات البطولية وميولها، ونزعتها العاطفية الإنسانية وتتحدث عن سرورها وغضبها وسعادتها وآلامها، وأفراحها وأحزانها، ومشاعر الفراق واللقاء لديها. وهكذا تغيرت شخصية لوشيون البطولية من شخصية «غاضبة صارمة متحدية» إلى شخصية «محياها يوحي بالرأفة والحنان»، وشخصية ليفنج التي تعرف بـ «الحدية الصارمة» أصبحت شخصية ليفنج «الصديق». وأغنية تمجيد الجنود في الخطوط الأمامية في لاوشان عبارة عن لحن شعبي من المشاعر الحقيقية. ويحاول الناس دائما تقصير المسافة بين الشخصيات البطولية والحياة الحقيقية من جهة، وبين الشخصيات البطولية وعامة الجماهير من جهة أخرى، ولذا يستطيعون فهم تلك الشخصيات ويتقبلونها.

وشهدت سنوات الإصلاح والانفتاح أيضا ظهور لفيف كبير من الشخصيات البطولية التي حققت الكثير من المآثر البطولية التي تهز القلوب فخراً وتدمع العيون حزنا مثل تشانج هوا، وجو بو أو، وتشانج هاي محي، ولوجيان خو، وجيانج جو ينج، وأبطال الطوارىء في هواشان، وأبطال إطفاء الحرائق في داشين آنلينج، والجنود الأبطال في الخطوط الأمامية في لاوشان... وغيرهم كثيرون جداً. وقد انتشرت مآثر هؤلاء الأبطال على نطاق واسع، وتركت أعمالهم المجيدة تأثيراً مخلصا في نفوس الشعب. ولكن لم يعد الشعب يعتبر هؤلاء الأبطال أوثانا ويتعصب لعبادتهم، أو يعتبرهم «الحكماء والفضلاء» و«منقذي» الأمة من هوة اليأس والحرمان، بل يعتبرهم أصدقاء مقربين إليه، لأن هؤلاء الأبطال في المقام الأول هم أفراد عاديون انبثقوا من داخل صفوفه، ثم بعد ذلك أصبحوا «أبطالا». ويسعى الشعب وراء الهدف الملائم له ويقلده ويمنحه التأييد، ويغير أسلوب الحياة واختيارها حسب النموذج المناسب له، وذلك لأنه أصبح يتمتع باختيار الحياة، وحقق الشعور الذاتي والوعي الشخصي في الحياة. وتبرز للعيان هذه الأحوال أن المزايا النفسية للصينيين العصريين تسير نحو النضج، وتتخلص الآن من مرحلة الطفولة التي سادتها التبعية، ودخلت مرحلة النمو.

ولكن عندما انحلت سيكولوجية عبادة الأبطال، توطدت في الوقت نفسه عبادة الشخصيات النجومية يوما بعد يوم. ويعد ذلك ظاهرة ثقافية خاصة

للصينيين العصريين. وفي السنوات القليلة الماضية. لاح في الأفق فجأة ظهور الشخصيات النجومية في كل المجالات، وتفوق كل نجم ساد فترة من الوقت، ونال ترحيب الشعب على نطاق واسع. ويتمتع نجوم السينماوالكرة والكوميديا بالشهرة التي تملأ الآفاق، لدرجة أن ظهور النجم على خشبة المسرح يجعل أسعار التذاكر تبلغ مستويات خيالية، ونشر الترجمة الذاتية لنجم ما تجعله يتمتع بالشهرة المؤقتة في التو. كما أن كساء وحلية نجم ما وأسلوبه تجذب العديد من المقلدين. ومن جانب آخر، ساهم المجتمع أيضا في خلق جو عبادة الشخصيات النجومية وزخمها، وساعد على إبراز هذا الجو من عبادة الشخصيات النجومية لقاء تلك الشخصيات بالمشاهدين، وتوقيع أسمائهم على الكتب المبيعة، وتمثيلهم الإعلانات مراراً وتكراراً، بالإضافة إلى الإسراف بلا رادع في وسائل النشر والدعاية لهم، وتعدد أسماء المسابقات المختلفة، والاختيارات المتعددة الأشكال عن طريق التقييم العلني، والجوائز الكبرى المتنوعة. وفيما يبدو أن الصينيين دخلوا عصر «النجوم الساطعة»، وربما كانت الحياة الاجتماعية تفتقر إلى العديد من ألوان الحياة إذا لم تنتشر الشخصيات النجومية من كل لون وشكل في كل الأعمال والخدمات.

وهناك أسباب نفسية وثقافية متباينة وراء ظهور عبادة الشخصيات النجومية وعبادة الأبطال عند الشعب الصيني. ومنذ تطبيق الإصلاح والانفتاح، تعززت فئات المجتمع وسيولة انتقال الأفراد بصورة كبيرة جدا، وتوسعت آفاق مجالات أنشطة الشعب ومضمونها. كما زادت فرص تعبير الشعب عن نفسه، وتطوير كفاءته وقدرته الإبداعية، وعززت التصميم الذاتي، والإبداع الذاتي، وتطوير الوعي والقدرة الذاتية. وتعتبر الشخصيات النجومية أشخاصا ناجحين في مجالات خاصة معينة، وربما يجتازون الحياة الشاقة المضنية و«ينتقلون» من الطبقات الدنيا في المجتمع إلى الطبقات العليا، ويظفرون بإنجازات اليوم والشهرة، أو ربما تقابلهم فرصة عرضية تحقق لهم الشهرة بين عشية وضحاها. ومثال ذلك تصوير فيلم سينمائي أو مسرحية تليفزيونية تجعل تلك الشخصيات تتمتع بالشهرة لدى الجميع، وربما نشر صورهم أو قصصهم أو نشر تعليق عليهم يحدث ضجة كبرى وتأثيراً. وربما تتوافد عليهم كل أنواع الشهرة تباعاً إذا فازوا بجائزة كبرى

في إحدى المسابقات. ولا تجسد الشخصيات النجومية أمام الشعب (وما يهتم به) سوى جانب القضايا التي أحرزوا فيها نجاحاً، ويمنحوا الشعب دائما أمل إحراز النجاح في الحياة، والعمل على تشجيعه وإعطائه الأمل وحفزه على بذل الجهود المضنية لتحقيق القيم الذاتية.

ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن الشخصيات النجومية هم أشخاص ناجحون في التعامل مع القضايا، فإنهم لا يتحملون مسؤولية تعليم الأخلاق والمثال النموذجي في الحياة، ومن ثم تختلف عبادة الشخصيات النجومية عن عبادة الأبطال التي تتصف بقوة الضغط النفسي والأعباء السيكولوجية. ومعنى ذلك أن عبادة الشخصيات النجومية هي مجرد نوع من الإعجاب والتقدير، وليس منح المصداقية للشخصيات. ولا تعني عبادة الشعب لنجوم السينما ضرورة أن يحلق بخياله أن يكون من الممثلين، وربما يعبد عشاق الكرة نجوم الكرة بكل جنون وتزمت وفي الاستاد يؤدون هتاف التشجيع للاعبين حتى تبح أصواتهم من الصراخ، ولكن لا يفكرون في لعب كرة القدم. وتظهر الشخصيات النجومية أمام عيون الشعب بأنها شخصيات لا تتمتع بالكمال، ولا يدقق في محاسبتهم إذا كان لديهم قيم المثال النموذجي لا تشوبها شائبة، ولا يلجأ إلى تقييم من خلال معيار الأخلاق. إذا كان لديهم قيم المثال النموذجي والقدرة في الجوانب الأخرى أم لا. ولا يعتبر الشعب تلك الشخصيات شخصيات نموذجية لا تشوبها شائبة، ولا يلجأ إلى تقييمهم من خلال معيار الأخلاق. ولذا كشف النقاب عن تهرب «المرأة الجميلة مقطبة الأسارير» من الضرائب يجعلها أكثر شهرة وتألقا، وأخبار زواج وطلاق مشاهير السينما يغّني مادة الحديث عند احتساء الشاي بعد تناول الطعام. ولم تعد الأسباب المتعلقة بالجانب الأخلاقي تضعف عبادة الشخصيات النجومية في نفوس الشعب. ويرى الشعب أن تلك الشخصيات تظل لامعة إلى الأبد.

لقد اندثر الأبطال من جانب، وبرزت الشخصيات النجومية من جانب آخر، كما حدث انحلال وانحطاط لسيكولوجية الأبطال من ناحية، وتعززت وتوطدت سيكولوجية عبادة الشخصيات النجومية من ناحية أخرى. ويعكس هذا التغيير التحول والتجديد الذي طرأ على وجهة النظر إلى القيم لدى الصينيين في العصر الحديث. كما يبرز للعيان أيضا التحول الكبير

للسيكولوجية الثقافية في حركة التحديث الصينية، وهو الانتقال من «عصر الأبطال» والدخول في «عصر ما بعد الأبطال».

15 الخروج من المعبد: الشعب الصيني يعود إلى الحياة العلمانية

نبذ الصينيون عبادة الأبطال رويداً رويداً، وانتقلوا من «عصر الأبطال» إلى «عصر ما بعد الأبطال»، ويعد ذلك تحولا في السيكولوجية الثقافية. ويكمن جوهر هذا التحول في أن الصينيين بدأوا التخلي عن ثقافة القرون الوسطى التقليدية وانحلال الإيمان بالخرافات الحديثة التي غرستها «الثورة الثقافية» في نفوس الشعب، بالإضافة إلى التحرر من قداسة الأوهام، ومراقبة الحياة الواقعية بالقلب والروح. لقد خرج الصينيون من معبد عبادة الأبطال واندمجوا في مجال الحياة الدنيوية الحقيقية. إن التحديث في حد ذاته عملية دنيوية. ويستخدم التحديث، سواء في الصين أو خارجها، الوسائل المادية من العلوم والتكنولوجية لتحطيم المجتمع التقليدي، وتحطيم كل ماهو مقدس يخدع الشعب ويضلله ويغرر به في الثقافة التقليدية، وتخريب الجو الديني، والاهتمام بتحسين الظروف البيئية لحياة الشعب الإنتاجية وأسلوب الأنشطة،

وتركيز قوة الاهتمام على العالم الحقيقي والحياة الواقعية. ولكن هذه العملية بالنسبة للصينيين كانت أيضا شاقة ومضنية وطويلة جدا. ولم يستطع الصينيون الخروج بصورة كاملة من الأوهام والضلالات المقدسة في معبد الثقافة التقليدية، وتطوير الفكر الدنيوي للتحديث إلا في السنوات العشر الأخيرة أو أكثر.

وتعرضت الثقافة الصينية التقليدية لموجات متتالية من النقد في مرحلة «4مايو عام1919» وقام الصينيون بتحطيم عبادة الأوثان المتمثلة في فكر أخلاق الكونفوشيوسيين و«العشائر المقدسة» التابعة لهم، ووطئوها بالأقدام بموجب نداء «الإطاحة بدار كونفوشيوس»، وتحرر فكر الصينيين بصورة كبيرة. ولكن في ظل الظروف التاريخية آنذاك، لم يحطم الصينيون سوى عبادة وثن واحد فقط، ولم تتطهر التربة الثقافية بصورة كاملة من عبادة الأوثان، ولم تهتز مشاعر عبادة الأبطال في التكوين العميق لسيكولوجية الصينيين. ومن ناحية أخرى، يجب في بداية المرحلة الحقيقية لحركة التحديث، الانتهاء أولا من تعديل النظام السياسي وإعادة بناء هيكل التنظيم الاجتماعي من أجل إفساح الطريق أمام التحديث الشامل للمجتمع. ويعد ذلك شكلا من أشكال الحكم والنظام السياسي يحل محل شكل آخر من أشكال الحكم والنظام السياسي، كما أنه تكوين اجتماعي يقوم مقام التغيير الكبير الذي يطرأ على هيكل المجتمع في ظل تكويس اجتماعي آخر.

وفي الصين تحقق هذا النوع من التغيير الاجتماعي الكبير عن طريق الأسلوب الثوري. ونظرا لأحوال الصين الخاصة، فإن مهمة الثورة شاقة ومعقدة بصفة خاصة. ولذلك أصبحت «الثورة» في فترة زمنية طويلة شكلا رئيسيا لدفع التحديث في المجتمع، كما أصبحت أيضا راية مهمة لتعبئة المجتمع للتحديث. وفي النصف الأول من القرن العشرين، أمضى التاريخ الصيني مسيرته باسم «الثورة». ويقول لينين: إن الثورة عيد عظيم للشعب لأنه بعد اجتياز الثورة يتخلص من الأغلال التي كبلته ويظفر بالتحرير العظيم. ولكن فيما يبدو أن معنى هذه المقولة يمتد إلى القول بأن الثورة وضع غير عادي للحياة الاجتماعية، وحالة تفتقر إلى نظام الحياة الاجتماعية والقوانين. إن الثورة تحطم نظام الحياة القديم، ولكن النظام الجديد لم يؤسس بعد. وفي مرحلة الثورة ينغمس الشعب في جو مفعم بالحماسة

والاضطراب، ويكوّن حالة نفسية اجتماعية شديدة التأثر على نطاق واسع. ويشترك الشعب في الثورة وصدره يكتظ بالحماس الملتهب، ويؤيدها بفضل المعنويات المرتفعة، ويكن لها الحماية المتقدة والإيمان التقى المماثل للإيمان الديني المقدس.

ولكن لا يستطيع الشعب الاحتفال «بالعيد العظيم» والانغماس في جو العيد دائما. والمهمة الكاملة للتحديث لا يمكن أن تعتمد بصورة كاملة على الأسلوب الثوري حتى يمكن إنجازها. ولذلك بعد انتهاء أي ثورة يتطلع الشعب كله إلى إقامة نظام مستقر للحياة، وينتقل من «العيد العظيم» للثورة إلى الحياة الدنيوية اليومية. وعلى سبيل المثال، ظهرت مرحلة إعادة بناء الحياة الدنيوية بعد اندلاع الثورة الفرنسية العظيمة. وهدأت أعصاب الشعب الفرنسي تدريجيا بعد أن سيطرت عليه مشاعر التعصب والتزمت في العصر الثوري، وعاش الحياة النظامية العادية. وكانت الأحوال في الصين أيضا على هذا النحو. فبعد عام 1949، انتهت عاصفة الثورة الهوجاء الضخمة، وكان الشعب يتشوق للعودة إلى النظام المعتاد للحياة اليومية، ويتطلع بشغف إلى وضع نهاية للوضع المضطرب، وتأسيس بيئة يسودها الاستقرار والسلام من أجل الحياة الإنتاجية.

ولكن تورط الصينيون في شكل آخر من أشكال «الثورة»، يعرف باسم «استمرار الثورة في ظل سيطرة الطبقة البروليتارية». وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، استمرت الحركة السياسية في البلاد بصورة مطردة، وزاد اضطرابها مرة تلو الأخرى، وأصبح اتجاهها أكثر شراسة وعنفا. وتأثر الشعب من البدء حتى النهاية بالنداءات السياسية المختلفة التي تشجع «الثورة» والتي اعتبرها الأسلوب الرئيسي للأنشطة. وبحلول عام 1966، ظهرت «الثورة الثقافية الكبرى للطبقة البروليتارية» التي كانت في الواقع فوضى كبرى عارمة سادت البلاد على نطاق واسع. وتورط الشعب الصيني كله في حركة «صنع الآلة» أثناء «الثورة الثقافية»، وتطورت عبادة الأبطال وبلغت أوج ذروتها، وتسربت كل أنواع الإيمان بالخرافات والخزعبلات الحديثةوالطقوس والأنماط الدينية الحديثة إلى كل مجالات الحياة الاجتماعية، وانتشر في المجتمع الفكر الديني والمشاعر الدينية المتعصبة المتزمتة الحمقاء. وكانت الصين في «الثورة الثقافية» معبداً «ثورياً» ضخما

ليس له مثيل. وتجمعت ألوف مؤلفة من قوات الحرس الأحمر التي نذرت نفسها بحماس شديد تحت اسم «الثورة»، واندفعت مثل المجانين والسكارى تخوض غمار هذه الفوضى بإخلاص. وبموجب اسم «الثورة أيضا» من شأن الاهتمام أصبح الزهد من القيود الضخمة التي قيدت أجساد الشعب وروحه بصورة صارمة، وقللت الثورة بالمصالح الشخصية واعتبرتها من الأنانية الذاتية والرأسمالية، وتعرض النشاط العقلاني والفكري الحر للاختناق والكبت بلا هوادة، وتم إدخال أي حياة شخصية في نطاق الطقوس «الثورية». وأصاب جميع أفراد المجتمع «الداء الشامل الموحد». وظهرت العواقب الوخيمة الناجمة عن الثورة الثقافية ليس في التخريب الكبير الذي أصاب نفوس الصينيين فحسب، بل أيضا في الانشقاق الهائل الذي أصاب الفكر الثقافي. وأعادت «الثورة الثقافية» الشعب الصيني إلى الإيمان بالخرافات المقدسة في القرون الوسطى بعد أن كان تخلص منها، وذلك من خلال الأشكال الثورية العصرية. كما أعادت تلك الثورة الصينيين الذين ساروا على درب النضج إلى حالة عدم النمو الكامل، وأعاقت بصورة مصطنعة مسيرة التحديث الصيني. وأصبحت «الثورة» بالنسبة للصينيين الذين يعيشون في هذا العصر نوعا من الضياع أو الاغتراب والقوة المسيطرة الخارجية والدخيلة التي تتفوق على قوة الشعب كله.

وبعد أن وضعت «الثورة الثقافية» أوزارها، وتم اجتياز تحرير الأفكار، وإزالة الفوضى وإعادة النظام، وتطبيق الإصلاح والانفتاح، خرج الصينيون في نهاية المطاف من معبد «الثورة» المقدس، ونبذوا التعصب الأعمى الساذج «للثورة» والمشاعر الدينية، وتخلوا عن الوصايا الدينية وقواعد الرهبنة البوذية التي تشتمل على الأحجية والطابع الديني الصارخ، والطقوس الدينية، وعادوا من جديد إلى مجال الحياة اليومية الواقعية. وقصارى القول، إن نهاية «الثورة الثقافية» دفعت الشعب كله إلى الحياة العلمانية.

وفي المقام الأول، يدل على عودة الشعب الصيني إلى الحياة الدنيوية أن قوة اهتمام الصينيين تتركز على البناء الاقتصادي الذي يعد محور بناء التحديث. إن تنفيذ عملية البناء يحتاج إلى أسس متينة وراسخة سواء في مجال الزراعة والصناعة والمجالات الاقتصادية الأخرى، أو في مجال استخدام العلوم والتكنولوجيا وتحديث المجتمع قاطبة، ولا تستطيع نداءات

الثورة (ولو كانت أقوى النداءات التي تهز المشاعر) وعالم الأحلام الزائف (حتى لو كان أجمل وأروع عالم أحلام) أن يقوموا مقام المسيرة الحقيقية للتحديث. ومنذ الإصلاح والانفتاح، عاد الصينيون إلى دنيا البشر الواقعية بعد أن تخلوا عن التطلعات إلى «الفردوس»، ولم ينغمسوا مرة أخرى في الأوهام والأحلام التي نسجوها حول أنفسهم، ونبذوا الأفكار الخاطئة القائلة بأن الخيالات الذاتية هي الحقيقة الموضوعية. كما يعملون على تعزيز روح البحث في مسائل العمل الملائمة لعملية التحديث، ويكرسون أنفسهم لبناء التحديث الحقيقي بكل صدق. ويعد دحض «السياسة الجوفاء» من أهم النتائج الإيجابية المترتبة على تطهير الأفكار في عشرات السنين الماضية. وفقدت النداءات الجوفاء فاعليتها في تحريك أفئدة الجماهير، ولقي «الكذب» والمغالاة، والكلام الفارغ الكثير من احتقار الشعب وسخريته. وفي المقابل، ظفر أسلوب البحث عن الحقيقة استنادا إلى الوقائع والبحث في مسائل العمل، والعمل الجاد، وإنجاز الأعمال بترحيب الشعب. وحقق البناء الاقتصادي في الصين إنجازات ضخمة، وارتفع مستوى الصينيين ارتفاعات كبيراً، وطرأت تغييرات هائلة على ملامح المجتمع الصيني في عشرات الأعوام المنصرمة. وكان ذلك نتيجة اغتنام الصين فرصة البناء على أسس متينة وراسخة والبحث عن مسائل العمل والاجتهاد.

كما يدل أيضا على عودة الصينيين إلى الحياة الدنيوية التحول في مفاهيم الحياة والتغيير في أسلوب الحياة لدى الصينيين. إن «الثورة الثقافية» قمعت بصورة كاملة احتياجات الحياة العادية للشعب، وعاش الناس في ظروف بيئية رتيبة وفقيرة وعقيمة. والآن تعرض هذا النوع من الزهد للإنكار الكامل، وظفرت المصالح الذاتية الشرعية بالإيجابية والشرعية. وأصبحت المهمة الرئيسية للبناء الإقتصادي في الصين تلبية احتياجات الحياة الثقافية المادية، اتسعت آفاق مجالات الأنشطة للشعب باستمرار، وتنوعت وتعددت أيضا الحياة الثقافية للشعب، وشهد المجتمع بأسره جواً من الانتعاش والحيوية. وفي الواقع أن حياة الشعب متعددة الجوانب، ومجالات أنشطة الشعب في غاية الثراء. وعندما تخلص الشعب من قيود الزهد وانتقل من معبد «الثورة» المقدس إلى عالم الحياة الدنيوية، استعاد أيضا ثراء الحياة ذاتها ونكهتها التي تليق بها، ولذا فتح الطريق أمام إمكانات

التطور الشامل للإنسان الصيني.

والواقع أن عودة الشعب الصيني إلى الحياة الدنيوية، يشير إلى التحول في مفاهيم القيم والمعرفة الجديدة والاختيار الجديد لدى الإنسان الصيني ذاته. ولم يعد الشعب ينظر إلى الشخصيات البطولية باعتبارها من «الحكماء والفضلاء»، وأنها الهدف الوحيد للحصول على التأييد والثناء. ولم يعد يشعر بقوة الضغط والتوتر النفسي لوجود الشخصيات البطولية. كما لم يعد يعرف مشاعر القلق والهم لأنه لا يستطيع أن يصبح من «الحكماء والفضلاء». وذلك لأن الجماهير لم تعد كما كانت في «الثورة الثقافية» تتخيل نفسها بأنها «جنود الثورة»،وتأخذ على عاتقها عبء المهمة التاريخية «لتحرير البشرية جمعاء»، ولكن اعتبرت نفسها في المقام الأول أفراداً عاديين، وبحثت عن مكانتها الملائمة ودورها المناسب في الحياة الاجتماعية، وقامت بتصميم واختيار وتحقيق أهداف القيم الحياتية الخاصة بها حسب فهمها للحياة. ويتمتع كل فرد بالفهم الخاص للحياة، والثقة من نفسه بأنه يمتلك القدرة على صنع حياته الذاتية، والاختيار يساعده على إيجاد خطة للحياة، وينذر حياته وجهده من أجل المجتمع. وترمز هذه الأحوال إلى نضج الوعي بصورة أساسية عند الصينيين وتجديد الشعور الذاتي لديهم.

إن تخلص الصينيين من سيكولوجية عبادة الأبطال، والخروج من معبد الثقافة التقليدية الذي شيدوه، واعتكافهم على تحقيق الحياة الدنيوية بعد ظاهرة ثقافية تتسم بمغزى التقدم التاريخي في مسيرة التحديث الصيني. ويكمن جوهر هذا التحول في تغيير الصينيين من «أفراد تقليديين» إلى «أفراد عصريين»، ويعد ذلك تحولا في السمات الثقافية النفسية للأفراد من حالة السذاجة والفجاجة إلى الاتجاه نحو النضج. وبعد أن اجتاز الصينيون هذا التحول تماماً استطاعوا أن يحققوا بصورة كاملة التجديد الذاتي للأمة، مما جعلهم أمة حديثة بكل ما تحمل الكلمة من معنى. ولكن، كما ظهر في الجوانب الأخرى، أن الصينيين حملوا معهم ملامح «الانتقالية» عند التخلص من عبادة الأبطال والعودة إلى الحياة الدنيوية. أو يمكننا القول إن عملية التحول هذه في حد ذاتها تعد شكلا من أشكال الانتقالية التي جسدت أيضا بعد الجوانب غير الناضجة لدى الصينيين. ولم يتحقق حتى الآن التخلص النهائي من مشاعر عبادة الأبطال وتطهير العقول،

وربما تظهر (أو تظهر الآن) التكوينات الثانوية لتلك المشاعر في الأعمال والموضوعات المختلفة من ناحية، ومن ناحية أخرى ظلت معارف الناس الدنيوية وفهمهم تحتفظ بمستوى ظاهري وسطحي وشكلي، ومن ثم تشعبت من تلك المعارف العديد من الظواهر الاجتماعية السلبية التي تلعب دورها في إفساد المجتمع حقا. وعلى سبيل المثال، ظاهرة «التعويضات النفسية» المنتشرة على نطاق واسع نسبيا في المجتمع، يرى البعض أن «الثورة الثقافية» سببت خسائر فادحة للحياة الثقافية المادية، ويعاني الشعب من «أضرارها وسلبياتها» الكثيرة، ولذا يطالب بالحصول على «التعويضات». ويظهر هذا النوع من «التعويضات النفسية» بصورة رئيسية في شكلين أولهما: التعويضات الذاتية التي يسعى وراءها الأفراد وتتجلى في الجشع الفاحش ورغبات المصالح المادية ومتعة الحواس، ويود الأفراد لو استطاعوا أن يستكملوا فجأة متعة السنوات العديدة الماضية والتي لم يحصلوا عليها. أما الشكل الآخر فيظهر في أن الأفراد يعتقدون أنهم الخاسرون عند عقد مقارنة بين «الأضرار والسلبيات» التي لحقت بهم في المجتمع بأضرار الآخرين. ولذا يطالبون المجتمع بـ «السياسة العملية»، وتسديد «الحسابات التاريخية» ومنحهم التعويضات، وتظهر مشاعر الاستياء والتذمر العنيفة عند الإخفاق في تحقيق هذه المطالب بصورة كاملة. وهناك نوع آخر من الظواهر السلبية هو «الدنيوية المبالغ فيها» والمقصود بها اعتبار السعي وراء تحقيق المنفعة المادية هو الاتجاه الوحيد للقيم، والبحث بجلد ومثابرة عن المصالح المادية الذاتية، والرؤية قصيرة المدى، والاهتمام الشديد بـ «الفائدة المادية» والحرص على الفلس والمليم، والتلهف على النجاح السريع والربح الفوري، وعدم القدرة على إفساح مسافة محدودة في عالم الفكر للحياة الواقعية والاحتفاظ بمكان للمثل العليا. ومن ثم ظهر في المجتمع الاتجاه نحو الابتذال والسطحية والحكم على الأشياء استنادا إلى الحالات الظاهرة، وإهمال التهذيب الذاتي والسعي وراء الحياة المثالية. أما الظاهرة السلبية الثالثة، فكانت ظهور «الحالة النفسية لنهاية الحياة» التي انتشرت بين بعض أفراد الشعب. وعندما خرج الشعب من «معبد» الزهد وركز رؤيته على مجال الحياة الدنيوية، أثارت الحياة المادية الحديثة النزعات والشهوات الأولية وجعلت بعض الناس تنتابهم حالة نفسية من الكسب السريع غير المشروع، وسببت حدوث

الاختلاس وقبول الرشوة وقيام المسئولين بالبيع الوسيط وغيرها من ظواهر الفساد والنزعة غير السليمة في مجال الأعمال، وظهرت السلع المزورة المزيفة وغيرها من الأنشطة الاقتصادية غير العادية، وانبثقت من جديد العديد من الظواهر الاجتماعية المخزية التي تم القضاء عليها سابقا. ومن أجل « جني فائدة أو منفعة» لا يتورع الفرد عن استخدام أي وسيلة، ويعمل بلا رادع من ضمير، حتى لا يتورع عن ركوب الخطر في حالة اليأس والمغامرة بالحياة. وكان لهذه الظواهر السلبية دور مؤثر للغاية في إفساد وتخريب التطور السليم للمجتمع وبناء التحديث، ويجب على الصينيين الحذر من تلك الظواهر والاهتمام بها. كما أن ظهور بعض تلك المشاكل ليس له علاقة بمشكلة الصفات الأخلاقية الذاتية، بل تعد تلك المشاكل ظاهرة مصاحبة لا يمكن تجنبها في عملية إضفاء الطابع الدنيوي (الدنيوية) على المجتمع كله، كما أنها نوع من القيم السلبية الناجمة عن التحديث.

ومن ناحية أخرى، إن عملية إضفاء الطابع الدنيوي على التحديث طهرت قلوب الشعب من مشاعر عبادة الأبطال، ويعد ذلك بلا شك تحريرا للأفراد وتقدما للتاريخ الاجتماعي. ولكن، على كل حال، تجسد الشخصيات البطولية في حد ذاتها صفوة المجتمع والعناصر المتقدمة في القيم الثقافية الاجتماعية، ومنح تلك الشخصيات الاحترام الذي يليق بها يعد بمنزلة توافق اجتماعي وثقافي، وتأسيس الجانب المهم للعقيدة المشتركة. والمجتمع الذي لا يمنح الشخصيات البطولية التقدير والثناء والاحترام ولا يفهمها، هو مجتمع لا يستطيع أن يقدم معيارا للتمييز بين الأخلاق الشريرة والأخلاق الطيبة، ولا يقيم روابط للقوة التقدمية لاتحاد المجتمع. والمشكلة التي يواجهها الصينيون في العصر الحديث هي أنهم ضلوا طريق مصداقية الشخصيات بعد أن نبذوا عبادة الأبطال. والإنسان الصيني يختار دائما هدف مصداقية المثل العليا من أجل تطوير ذاته، ويجسد المجتمع دائما لكل أفراده الشخصيات المثالية التي تتمتع بمغزى القيم الاجتماعية. إذن، وبعد التخلي عن عبادة الأبطال، وعدم اعتبار الشخصيات البطولية الهدف الوحيد للتأييد والثناء، لمن من الشخصيات يمنحها الصينيون المصداقية؟ ولذلك عند نبذ سيكولوجية عبادة الأبطال، يجب في الوقت نفسه التفكير مليا في إعادة النظر في مسألة مغزى قيم الشخصيات البطولية. كما يجب تأمل مسألة

إعادة رسم صور الشخصيات المثالية للأمة الصينية. ويعد ذلك من القضايا الثقافية التي تواجهها الصين في عملية التحديث.

16 إعادة تصوير الشخصيات المثالية للأمة الصينية

في العصر الحديث يجب على الصينيين في مرحلة الانتقال من «الأفراد التقليديين» إلى «الأفراد العصريين»، أن يتخلصوا من مشاعر عبادة الأبطال الناجمة عن الثقافة التقليدية. ولكن بعد أن نبذوا عبادة الأبطال وحطموا أوثان الأبطال ذات العبادة الورعة، فإنهم يواجهون مرة أخرى ضلال الطريق المؤدي إلى مصداقية الشخصيات. ويعد ذلك بالنسبة للفرد بمنزلة فقدان قيم تطوير الحياة، وبالنسبة للمجتمع يدل على فقدان التوجيه بالقدوة والنصيحة، والتوافق، ومعيار الروابط الثقافية بين أفراده، مما يجعل المجتمع يواجه خطر التفكك. ولذا يحتاج الصينيون في عملية التحديث الانتقالية إلى إعادة تصوير الشخصيات المثالية للأمة والمجتمع أيضا.

إن طرح مسألة تصوير الشخصيات المثالية النموذجية للأمة من جديد، يعني أن الشخصيات المثالية في المجتمع الصيني الحديث التي قامت الثقافة التقليدية بإعدادها قد فقدت مغزى قيمها ولا يمكن اعتبارها من الصينيين «الانتقاليين» في

العصر الحديث ولا تستطيع أيضا أن تقدم مصدر قيم مصداقية الشخصيات. وليس ذلك فحسب، بل إن الطريق الذي رسمته الثقافة التقليدية للوصول إلى الشخصيات المثالية أصبح مسدودا أيضا. ولذا يجب على الصينيين إعادة رسم الصور النموذجية للشخصيات المثالية إنطلاقا من الاتجاه الواقعي لتنمية التحديث، والنزعة التاريخية لتغييرات التحديث الثقافي الاجتماعي في الصين.. وهذا يعني التعبير عن المثل العليا الثقافية للمجتمع الحديث والمثل العليا الاجتماعية، والمثل العليا الأخلاقية من خلال النظام الثقافي الاجتماعي الحديث ووجهة النظر إلى القيم والاختيارات والتصورات والتصميمات النموذجية للشخصيات المثالية في المجتمع. ناهيك عن تجسيد العوامل المتقدمة لنزعة الانتقال عند «الإنسان العصري»، ونموذج الشخصيات البطولية من خلال رسم صورة محددة للشخصيات المثالية. إن إعداد الصور النموذجية للشخصيات وتوجيهها، وإعداد «الشخصيات الجماعية» التي تتناسب مع الفكر الثقافي الصيني الحديث يهدف إلى وضع أساس هدف مصداقية الشخصيات لجميع أفراد المجتمع ودراسة القدوة النموذجية، بالإضافة إلى التأثير في اختيار أفراد المجتمع للشخصيات واتجاه هدف التطور عن طريق فرض القيود وتحديد المقياس لذلك الاتجاه. وهذا كله يؤدي إلى الانتقال الكامل للصينيين من «أفراد تقليديين» إلى «أفراد عصريين».

إذن، بعد رسم الصورة النموذجية للشخصيات من جديد على هذا النحو، وتجسيد نموذج الشخصيات المثالية ذات النزعة إلى تحديث القيم، ما الوظائف الحقيقية التي سوف تضطلع بها تلك الشخصيات والدور الذي سوف تلعبه في عمليه انتقال الصينيين من «أفراد تقليديين» إلى «أفراد عصريين»؟ وبكلمة أخرى، كيف تدفع الشخصيات المثالية الصينيين إلى إنجاز تقويم «الوطنية»، وتحقيق الانتقال والتحول إلى «الإنسان العصري»، ويصبحون أمة حديثة بكل ما تحمل الكلمة من معنى؟

أولا، تكمن الوظائف الحقيقية للشخصيات المثالية أو مغزاها الواقعي لتغيير الصينيين في قوة التأثير الضخمة وقوة رفع المعنويات التي تتمتع بها تلك الشخصيات، وتعتبر الشخصيات المثالية بمنزلة مكانة مرموقة تجسد للشعب أفضل الإمكانات المتاحة للتطور، وتبرز للعيان أجمل الجوانب وأكثرها

رفعة الكامنة في الطبيعة الإنسانية، ولذا تتسم تلك الشخصيات بقوة السحر الجبارة وقوة التأثير الفعالة، وتجعل الأفراد يتطلعون إليها، وتستحوذ على إعجابهم وتقديرهم، وتؤثر فيهم وتشحذ هممهم وتثير حماستهم لبذل الجهود المضنية لبلوغ هذه المكانة. كما تعمل تلك الشخصيات على إيقاظ تطلعات الشعب وسعيه للبحث عن الحماس الداخلي لهذه المكانة من خلال تجسيد القوة الملموسة للشخصيات، وحث الشعب على الاستغلال الكامل للقوة الكامنة للشخصيات المثالية، وتشجيع الجماهير وحفزها على تكريس جهودها بلا كلل لتحقيق هذا الهدف، وإطلاق العنان لقوتها وكفاءتها بصورة كاملة. ويقول الصينيون عادة: «إن قوة الشخصيات النموذجية لا حد لها». وقوة الشخصيات النموذجية هي أيضا قوة الشخصيات المثالية، والأهم أن الجهود المضنية للفرد تتقد حماسة للتقدم، ويكافح من أجل تحقيق أفضل إمكانات التشجيع وشحذ الهمم. وكما يقول إينشتاين: «إن الشخصيات النموذجية النزيهة العظيمة هي وحدها القادرة على أن تقودنا إلى الأفكار والأعمال التي تتسم بالسمو والرفعة»[1].

ثانيا: تقدم الشخصيات المثالية للشعب الشكل والهدف من أجل التطور إلى «البشر العصريين». إن إعداد الشخصيات المثالية في المجتمع الحديث جعل الناس يغيرون أنفسهم من أجل تحقيق أملهم، ويعدلون من صفاتهم وخصائصهم، وربما يصبحون من الذين يتمتعون بالوعي الذاتي إلى حد ما، ويقدم ذلك المغزى لحياتهم الواقعية من خلال النظرة المستقبلية. إن هذا «المغزى» منح الناس العقيدة الراسخة والاتجاه الواضح في الحياة، وتهدف الجهود المضنية في الحياة الواقعية إلى تحقيق هذا المغزى والانصياع له. وفي الوقت ذاته، تعبر الشخصيات المثالية دائما عن ظهورها من خلال صور الشخصيات المحدودة. إن أخلاق تلك الشخصيات المثالية، وأعمالها وأقوالها، ومشاعرها وأحاسيسها، وأسلوبها في الحياة يجعل الأفراد يتوددون إليهم، ويشعرون بأن مكانة الشخصيات المثالية ليست بعيدة جداً ولا يتعذر الوصول إليها، وكل فرد يتمتع بالقدرة على تحقيق الحياة المثالية. ومن جانب آخر، تقدم الشخصيات المثالية أسلوب القدوة أو معيارها في ظل الظروف المختلفة لأساليب الأنشطة. وطبقا لهذه الأساليب أو معيار القدوة يكون هناك إمكان للتغلب على عقبات التطور إلى «البشر العصريين» بصورة

فعالة نسبيا، والاقتراب من هدف الشخصيات المثالية بصورة ميسرة إلى حد كبير.

ثالثا: تركز الشخصيات المثالية على تجسيد معيار ثقافة مجتمع الأفراد العصريين، وتفرض قيوداً محددة على طريقة تفكير الشعب وأسلوب أعماله. والشخصيات المثالية في التصور المستقبلي للشعب في مجال الرؤية والبيئة الثقافية الحقيقية، ولذا يضيف الشعب عادة إلى الشخصيات المثالية أكثر الأشياء نموذجية وتحديداً لمقياس وجهة النظر إلى القيم الثقافية الحقيقية. وعلى هذا النحو، تعد الشخصيات المثالية بمنزلة مقياس لطريقة التعبير عن الثقافة الحقيقية وأكثر الشخصيات انسجاما وصحة في الحياة الواقعية. ويصبح نموذج الشخصية المثالية القدوة التي يقتدي بها الشعب، والصينيون عادة يفكرون كثيرا أو يقولون في ظل أحوال معينة يمرون بها في الحياة: «كيف يتصرف فلان من الناس في ظل هذه الأحوال؟»، وهم بذلك يجسدون القيود التي فرضتها الشخصيات المثالية على توحيد مقياس وظيفة الحياة الوقاعية للأفراد.

رابعا: تعتبر الشخصيات المثالية الوجه النقيض للشخصيات الواقعية. ويكون كشف حقيقة الشخصيات الواقعية ومقارنتها محاسبتها وانتقادها من خلال وجهة النظر العميقة نسبيا، مما يؤدي إلى إماطة اللثام عن عيوبها وجوانب النقص فيها والتي لا تنال رضى الناس. وتكمن قيم الشخصيات المثالية ومغزاها في الشخصيات الواقعية التي تتفوق عليها الشخصيات المثالية وتختلف عنها. ومن ثم، تقدم الشخصيات المثالية نظاما «لمراجعة وتقييم» الشخصيات الواقعية. كما تقوم الشخصيات المثالية بتسليط الأضواء على حقيقة الشخصيات الواقعية وتنتقدها، مما يجعل الناس يتخذون من الشخصيات المثالية معياراً لتقييم الشخصيات الواقعية وتقديمها ويمارسون الاختيار الذي يسهم في تحقيق الاقتراب من الشخصيات المثالية أو التقدم نحوها. وأشار عالم الاجتماع النفسي الأمريكي كولي Coly إلى أنه:

«بالنسبة لنا تتكون المثل العليا للأخلاق الشخصية أثناء اتصال الأفكار والمشاعر بعثها ببعض وتطورها، ويعتمد ذلك إلى حد كبير على الصور الخيالية للأفراد الذين في نظرنا نحترمهم احتراما عميقا، وليس من

الضروري أن يكون هؤلاء الأفراد على قيد الحياة. ولا نهتم إذا كان هؤلاء الأفراد موجودين في الواقع أو في الخيال، فإنهم يستطيعون أن يكونوا من أسباب الشعور الذاتي الاجتماعي، ويعيش الإنسان المثالي أو الإنسان من ذوي الطموحات العالية بصورة رئيسية في خيال المعلمين الكبار، وفي داخل صفوف الأبطال، ويعقد مقارنة بين نفسه وبين بعض هؤلاء الأبطال والمعلمين الكبار حتى يقيم حياته الذاتية ويقومها. وإعداد الشباب المثالي الآن يكون على هذا النحو بصفة خاصة»[2].

وقصارى القول أن إعداد الشخصيات المثالية وتصويرها من جديد يكون طبقا لهدف قيم التحديث، لأن ذلك يلعب دوراً وظيفياً مهماً في تشجيع الصينيين في عملية الانتقال والتحول من «أفراد تقليديين» إلى «أفراد عصريين»، ويمنح الحياة الجديدة لروح الأمة وإعادة تشكيل مزاجها. وفي ضوء الظروف الحالية يجب أولا إعداد نموذج الشخصية المثالية للصينيين ورسم الصورة النموذجية لها واختيارها حسب تحولات التحديث الواقعية. ولكن وعلى نفس المستوى من الأهمية، يجب أن تصبح الشخصيات المثالية في المجتمع-من خلال اتباع أسلوب محدد-هدفا لتطوير الشخصيات التي تظفر بمصداقية الشعب على نطاق واسع. وإذا استطاع السواد الأعظم من أفراد المجتمع قبول مثل تلك الشخصيات المثالية في المجتمع، وبحثوا بوعي عن هدف تلك الشخصيات ذاتها، وقاموا بتعديل مفاهيمهم وسلوكهم حسب متطلبات التحديث، فإن تحديث الصينيين والأمة الصينية يعد أمرا ليس بعيداً جداً.

ويتضمن التحديث الصيني المشكلة للشخصيات المثالية. وتحقق الشخصيات المثالية في المجتمع التوجيه الذاتي، وتضطلع بدور رسم الشخصيات النموذجية من خلال عملية التغيير، وهذا يعني تحول الشخصيات المثالية الاجتماعية إلى شخصيات مثالية ذاتية، كما تصبح هدفا ذاتيا للتطور يحظى بالمصداقية والقبول والاختيار، ويتحول التصميم الجماعي للثقافة الاجتماعية إلى التصميم الذاتي. ويعد ذلك عملية تحتاج إلى التعميم والقبول. كما أنها عملية التوجيه والإرشاد والتأثير الداخلي. وبعد اجتياز هذه العملية، يعتبر كل فرد الشخصيات المثالية التي صاغتها الثقافة الاجتماعية هدفا ذاتيا للتطور ويحدد معيار ذاته طبقا لهذا الهدف.

ولكن قبول الفرد لهذا النوع من الشخصيات المثالية الاجتماعية وتأثيرها الداخلي لا يعني انكاراً أو إضعافاً للشعور الذاتي والوعي الأساسي. كما لا يعني إطلاقا إنكار ثراء وخصوصية تطور الشخصية الذاتية للأفراد. ومتطلبات التحديث من الأفراد هي نضج الشعور الذاتي والوعي الأساسي. إن الشخصيات المثالية الاجتماعية التي تم إعدادها طبقا لاتجاهات تحديث القيم تعد نوعاً من إعداد المثل العليا المستقبلية في المجتمع التي تتميز بخصائص الانتشار الواسع والتأثير بعيد المدى والمشاركة العامة. ويمنح ذلك الاختيار الذاتي مجالا واسع النطاق. ويستطيع كل فرد أن يختار الأسلوب والطريق المحدد الذي يقود إلى «الإنسان العصري» في ضوء ظروفه الشخصية وفهمه للشخصيات المثالية الاجتماعية، وذلك حتى يمنح الحياة الجديدة لمزايا السيكولوجية الثقافية، ويحقق قيم الحياة والمثل العليا لحياته الذاتية ويجددها ويزيد من فاعليتها.

الهوامش

(1) «مجموعة مؤلفات إينشتاين»، المجلد 3، ص37.(بالصينية)

(2) كولي، «الطبيعة البشرية ونظام المجتمع»، دار نشر هواشيا، عام1989، ص

الباب الخامس
التحول في
صالفكر الأخلاقي الصيني

17 تفكك الهيكل وإعادة البناء: التحول التاريخي في الفكر الأخلاقي الصيني

الصين دولة تتمتع بأساس أخلاقي عميق. وتعد الثقافة الأخلاقية أهم وأنجح جزء في الثقافة الصينية التقليدية. وقد تشكل تدريجياً نظام مقاييس الأخلاق الصارم والمحدد الذي توارثته الأجيال المتعاقبة في التطور التاريخي البطيء للمجتمع الصيني التقليدي. ويوجد في الثقافة الأخلاقية نوعان من المستويات، إحداهما: المستويات العليا التي تشتمل على فلسفة الأخلاق ذات الشكل الكامل والتي تبناها المفكرون في العصور السالفة وأطلقوا العنان لها، وتجسد مذهب الكونفوشيوسية وقامت بإعداد تصميم المثل العليا الأخلاقية، وقيم الأخلاق، والعلاقة الأخلاقية،ونظام العلاقات الإنسانية ومعايير السلوك عند الصينيين، وتتغلغل وتؤثر في ثقافة أخلاق المستويات الدنيا من خلال الأشكال المتعددة النظامية وغير النظامية، وتضطلع بوظيفة تعليم الصينيين الأخلاق. أما النوع الآخر من المستويات

في الثقافة الأخلاقية فهو المستويات الدنيا التي تتضمن الوعي الأخلاقي، ومفاهيم الأخلاق، والفكر الأخلاقي، والأحوال النفسية الأخلاقية الكامنة في هيكل الناس النفسي العميق، وتشكل أسلوب التصرفات الأخلاقية التي تتوارثها الأجيال المتعاقبة. ويتشابه هيكل «العرف الكبير» و «العرف الصغير» في الثقافة الأخلاقية الصينية إلى حد كبير، وعلى الرغم من أن كلاً منهما يتسم بنطاق نشاطه ووسائله المتوارثة، ولكن تربطهما العلاقات الوثيقة ويتغلغل ويؤثر كل منهما في الآخر. ويستمد «العرف الكبير» أخلاق الحياة وحكمتها من داخل «العرف الصغير» باعتباره الثقافة الشعبية، وجعل «العرف الكبير» المبدأ الأساسي لفلسفة الأخلاق ينفذ إلى الثقافة الشعبية داخل «العرف الصغير». ويعد التشابه الكبير في هيكل «العرف الكبير» و «العرف الصغير» من الخصائص المهمة للثقافة الأخلاقية التقليدية في الصين، ويؤثر كل منهما في الآخر ويتناسقان، وأسسا الفكر الأخلاقي للصينيين التقليديين بصورة مشتركة.

إن الثقافة الأخلاقية الصينية التقليدية والفكر الأخلاقي للصينيين التقليديين كانا يتشابهان مع اتجاه القيم الأساسية في الثقافة الصينية التقليدية. أو يمكن القول، إن هذا الاتجاه في حد ذاته هو الثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي في الثقافة الصينية التقليدية. وتعد النزعة الأخلاقية أهم خصائص تلك الثقافة. وفي المقام الأول، تعد الثقافة الصينية التقليدية، أو نقول إن جوهرها هو الثقافة ذات النموذج الأخلاقي. إن الثقافة الأخلاقية التقليدية الصينية والفكر الأخلاقي للصينيين التقليديين يعتمدان ويطيعان ويخدمان المجتمع التقليدي الصيني وخصائص الثقافة التقليدية. وكما ذكرنا آنفا أن المجتمع الصيني التقليدي اتخذ من الاقتصاد الطبيعي الذي يتسم بالزراعة الصغيرة أساساً للمجتمع الزراعي، واعتبر علاقة الدم والرحم الأسرية بمنزلة الروابط الأساسية، وشكل النظام العشائري المقسم تقسيماً صارماً إلى فئات، وشبكة التنظيم الاجتماعي ذات الهيكل المتشابه ونظام الحياة الاجتماعية الذي يميز بين احترام الكبير والصغير وتمييزاً شديداً. وفي عملية التطور التاريخي التي استغرقت آلاف السنين، يحتفظ دائماً الهيكل الاقتصادي والاجتماعي والفكري في المجتمع الصيني التقليدي بمستوى عال من الاستقرار، ويقدم عالم المعاني وعقيدة القيم في الثقافة

الصينية التقليدية مصدر القيم المستقرة والمصداقية الثقافية للصينيين، وتظهر الثقافة الاجتماعية الصينية التقليدية درجة عالية من الطبيعة المتشابهة والتماثل. وفي هذه العملية، لعبت الثقافة الأخلاقية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي دوراً مهماً.

وتتسم الثقافة الأخلاقية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي في الصين بالخصائص الرئيسية التالية:

أولا: التأكيد على علاقة ورابطة الدم والرحم الأسرية باعتبارها الركيزة الأساسية في العلاقات الإنسانية. وإن العشيرة أو الأسرة هي أساس التنظيم الاجتماعي الصيني التقليدي، والعلاقات الإنسانية الأسرية هي أهم علاقة إنسانية لدى الصينيين، وتتمحور الأخلاق الصينية التقليدية على «بر الوالدين»، والاهتمام بـ «الأركان الثلاثة والمكارم الأزلية الخمس» و «خضوعات المرأة الثلاثة وفضائلها الأربع»[1]، وتتسم العلاقات الإنسانية بين الأب والابن، والكبار والصغار، والزوج والزوجة داخل الأسرة بالمعايير الواضحة، ولا سيما الاهتمام بقيم العلاقات.

ثانياً: إقامة نظام كامل للعلاقة داخل المستويات الاجتماعية، ومبدأ علاقة الدرجات قائم على أساس العلاقات الإنسانية العشائرية.

ثالثاً: إن مبدأ الأخلاق يعتبر قاعدة المجتمع، بمعنى اعتبار المصلحة الجماعية الاجتماعية «مصلحة السلطة الإمبراطورية ومصلحة العشيرة» نقطة انطلاق ونهاية مطاف كافة الأعمال الفردية، والتأكيد على الأقوال والأفعال التي تجلب الفائدة للجماعة والمجتمع والآخرين حسب التقييم الأخلاقي.

رابعاً: الاهتمام بالعلاقات الإنسانية والأحوال النفسية الأخلاقية ودورها في تحقيق انسجام العلاقات الاجتماعية.

خامساً: يعتبر مفهوم «يستطيع الناس أن يكونوا من الحكماء والفضلاء» بمنزلة المثل العليا الأخلاقية في المجتمع أو المثل العليا للشخصية، والتأكيد على تحقيق التهذيب الذاتي، و«الاعتكاف على التأمل الداخلي». وجسدت بعض خصائص الثقافة الأخلاقية التلقيدية والفكر الأخلاقي التقليدي في الصين الموضوع الفكري الرئيسي في الثقافة التقليدية، وعلمت الصينيين الأخلاق بصورة فعالة، وشكلت أخلاق الصينيين المتميزة وعادات أخلاقهم،

وشكلت العلاقات المستقرة في المجتمع الصيني التقليدي، وأصبحت بمنزلة قوة التوافق الاجتماعي والروابط المهمة لتعديل علاقة المصلحة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية، وحثت على استقرار المجتمع الصيني التقليدي ونظام الثقافة التقليدية.

ولكن، منذ العصر الحديث وفي ظل هجوم تيار التحديث، ومع انحلال هيكل التنظيم الاجتماعي التقليدي وأفول نجم الثقافة التقليدية انهارت الثقافة الأخلاقية الصينية التقليدية تدريجيا وأشرف هيكلها على التفكك، وخاصة في فترة «4مايو» عام 1919 حيث تعرضت الثقافة الأخلاقية التقليديةوالفكر الأخلاقي للنقد والضربات القاصمة. واعتبر مفكرو حركة «4مايو» 1919 نقد الثقافة الأخلاقية التقليدية من أهم الواجبات، كما ذكر ماو تسي تونغ على النحو التالي:

«تعد الثورة الثقافية التي قامت بها حركة 4 مايو عام 1919 بمنزلة حركة لمناهضة الثقافة الإقطاعية بصورة كاملة. ولم يشهد التاريخ الصيني منذ بدايته مثل تلك الثورة الثقافية العظيمة والكاملة. وكان للثورة الثقافية رايتان كبيرتان آنذاك هما: معارضة الأخلاق القديمة والدعوة إلى الأخلاق الجديدة، ومناهضة الأدب القديم وتشجيع الأدب الجديد، كما أسست تلك الثورة الإنجازات العظيمة»[(2)].

واتخذ مفكرو «4مايو» 1919 من معارضة الأخلاق القديمة والدعوة إلى الأخلاق الجديدة راية للثورة الثقافية، واعتبروا نقد مذهب الكونفوشيوسية الذي يجسد الثقافة الأخلاقية التقليدية من المهام الرئيسية. واعتقدوا أنه لا يمكن تحرير الصينيين بصورة كاملة إلا من خلال التحرر من أصفاد تلك الثقافة. وشرح تشين دو شيو في بحثه الشهير «وعي الصينيين الأخير» المغزى المهم للتحرر من كبت الأخلاق القديمة الإقطاعية، ويعتقد أنه منذ أن اتصل الصينيون في العصر الحديث بالعالم الغربي، اجتازوا منذ البداية عدة مرات من الفشل وأدركوا أن المعرفة «المقصود العلوم والتكنولوجيا» أقل من الإنسان الغربي، ثم عرفوا الفشل أيضاً مرات عديدة وأدركوا أن السياسة أدنى من الإنسان الغربي. والآن اجتازوا فشل ثورة 1919، ويجب أن يدركوا أيضاً أن المثل العليا الأخلاقية في منزلة أدنى من الإنسان الغربي. واعتبر تشين «الوعي الأخلاقي» وعياً أكثر عمقاً من «الوعي السياسي»،

وأنه «وعي الوعي الأخير» وأهم وعي. وقد كشف مفكرو حركة «4مايو» 1919 النقاب عن طبيعة الأخلاق القديمة والمبادىء الأخلاقية البالية التي قمعت العقل وأخذت بخناق الطبيعة الإنسانية. وذكر لوشيون في مؤلفاته الشهيرة التعبير «أكلة لحوم البشر»، لأنه يرى أن تاريخ المجتمع الصيني التقليدي الذي استمر عدة آلاف من السنين هو في الواقع تاريخ «أكلة لحوم البشر». إن الدعاية لـ «العدالة والفضيلة» التي قامت بها الأعراف الإقطاعية تغص بدماء «أكلة لحوم البشر». وأشاد وويوي[3] بقصة لوشيون «مذكرات مجنون» التي «نظرت إلى موضوع أكلة لحوم البشر والجانب السطحي للأخلاق والفضيلة نظرة فاحصة وجلية. وفضح لوشيون حيلة وخداع آكلة لحوم البشر الذين يرتدون الأقنعة الزائفة. «وكشف وو يوي النقاب عن طبيعة «أكلة لحوم البشر» في الأعراف الإقطاعية. وأشار إلى أنه:

«يجب أن ندرك في الوقت الحاضر: أننا لا نعيش من أجل الملوك! ولا من أجل الحكماء والفضلاء! ولا من أجل الأركان الثلاثة والمكارم الأزلية الخمس والأعراف الإقطاعية! وماذا تعني استشهادات الوزراء، وتضحيات الجنرالات، إن ذلك كله يعد بمنزلة المصيدة التي أعدها هؤلاء أكلة لحوم البشر بهدف خداعنا! ونحن في الوقت الحاضر يجب أن نعرف أن أكلة لحوم البشر يهتمون بالأعراف الإقطاعية! والاهتمام بالأعراف الإقطاعية يعني آكلة لحوم البشر!»[4]

كما كشف مفكرو حركة «4مايو» 1919 النقاب عن جوهر العلاقة بين الأخلاق التقليدية، والنظام الديكتاتوري الإقطاعي. وعلى سبيل المثال، أشار وويوي إلى أن: «الكونفوشيوسيين استغلوا البر بالوالدين واحترام الأخوة الكبار، واعتبروا ذلك أساس الترابط الذي لا يمكن أن يتزعزع أبداً بين السياسة الديكتاتورية والنظام العشائري لمدة ألفي سنة»[5]. كما وضح لي داجاو بدقة طبيعة النظام الديكتاتوري الإقطاعي الذي تحميه الثقافة الأخلاقية التقليدية باعتبارها تجسيداً لمذهب الكونفوشيوسية وذكر أن:

«كونفوشيوس هو درع ديكتاتورية الملوك في العصور السالفة. ومن يسمع ذلك تلجمه الدهشة، وعلى الرغم من أن الأحوال على هذا النحو، فإنني لا أشعر بالدهشة. لقد ولد كونفوشيوس في المجتمع الديكتاتوري، ومن المؤكد

أن يطرح آراءه تجاه النظام السياسي آنذاك. ومن ثم، كل ما قاله يؤكد الأخلاق التي تجسد المجتمع الديكتاتوري بدقة، بمعنى التأكيد على الدرع التي يعتقد أنها مؤهلة لتحقيق فائدة للأباطرة الديكتاتوريين. ولذلك احترم الأباطرة كونفوشيوس في العصور السابقة احتراماً شديداً وقدموا له القرابين، واعتبروه المعلم الأول، وعبدوه حتى التقديس. وفيما بعد لم يعد كونفوشيوس إلا ذلك الاسم في حد ذاته، بل أصبح الصنم الذي يحمي سياسة الأباطرة. وإذا كان كونفوشيوس يعيش اليوم، فربما كان يدعو إلى المبادىء الكبرى للحقوق الديمقراطية والحرية، والله أعلم. لقد أصبحت جثته حطام عظام رميمة وأفكاره لا تتناسب مع أفكار العصر الحالي. ولذلك هجومي على كونفوشيوس، ليس على كونفوشيوس نفسه، بل أهاجم نفوذ الصنم الذي نحته كونفوشيوس من أجل الأباطرة في العصور السابقة. ولا أهاجم كونفوشيوس، بل أهاجم روح السياسة الديكتاتورية أيضاً»[6].

كما شرح لي داجاو حتمية إحلال الأخلاق الجديدة محل الأخلاق القديمة والانتصار عليها، وأشار إلى أن:

«الأخلاق هي الغريزة الاجتماعية التي تتناسب مع تغييرات الحياة وتشهد التغييرات حسب الزمان والمكان نتيجة احتياجات المجتمع. إن شروح الكتب الكلاسيكية لجيل من الحكماء والفضلاء وحكمهم ليس قانوناً لا يتغير إطلاقاً على مدى العصور. وماذا يعني طريق الحكماء وقانون الدولة والأركان الثلاثة والمكارم الأزلية الخمس والقيم الأخلاقية الكونفوشيوسية، إنها تخضع للتجديد مع تغييرات الحياة ومتطلبات المجتمع، إنه التجديد الحتمي. ومن الطبيعي أن تتغير غريزة المجتمع البشري من جراء ظروف الحياة والتغييرات التي تشهدها متطلبات الحياة. ومن المستحيل أن تقاوم غريزة المجتمع البشري الحي من خلال الشروح الكلاسيكية الموجودة في كتب الأموات.

وتشهد الأخلاق دائماً التغييرات طبقاً للزمان والمكان. إذن، تشهد الأخلاق المشاكل القديمة والجديدة أيضاً. إن الأخلاق التي تتكون وتتناسب مع الحياة والمجتمع من الطبيعي أن تفقد مصيرها وقيمها وتصبح الأخلاق القديمة عندما تطرأ التغييرات على ذلك المجتمع والحياة. وتتطلب الضرورة الاجتماعية الجديدة في الحياة الجديدة التي تكونت حديثاً نوعاً من الأخلاق

الجديدة التي تتلاءم معها، ويعد ظهور الأخلاق الجديدة بمنزلة تغيير الغريزة الاجتماعية التي لا يمكن كبتها إطلاقاً»[7].

وتورطت الثقافة الأخلاقية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي في الصين في أزمة انحلال هيكلهما وانهيارهما في ظل تيار الهجوم العنيف لـ «حركة 4مايو» عام 1919. وكان انحلال هيكلهما شاملاً وكاملاً، حيث تعرضت مفاهيم الأخلاق التقليدية وفلسفة الأخلاق للشكوك من جانب الناس وانتقادهم ولم تستطع تلك المفاهيم والفلسفة تقديم مغزى القيم المألوفة وعقيدة الأخلاق لهم من ناحية. ومن ناحية أخرى، تفكك نظام الأخلاق التقليدية في الحياة الواقعية، وانهارت مراسم الإخلاص للملوك والوالدين يوماً بعد يوم، كما انهار نظام المستويات الاجتماعية تدريجياً. ونبذ الناس مقاييس الأخلاق التقليدية ومحرمات الوصايا الدينية ودنسوها. وفي السنوات الطويلة عبر آلاف السنين، وعلى الرغم من أن الثقافة الأخلاقية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي في الصين منحا الصينيين مصدر القيم المستقرة ومغزى الحياة ونظامها المستقر، ويتسمان بالشرعية الثقافية المستمرة، ويتراكمان في هيكلهم النفسي العميق، فإن شرعية وجودهما في عصر «4مايو» 1919 فيما يبدو أظهرت المشاكل، ويجب أن تموت حتف أنفها.

ومنذ العصر الحديث تحدد المصير التاريخي للثقافة الأخلاقية الصينية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي الصيني انطلاقاً من خصوصية جوهر «الأخلاق». وتعد «الأخلاق» مقولة تاريخية. وقياساً إلى الشكل العام والمألوف، فالأخلاق هي الصفة المميزة لسلوكيات الإنسان، وتتعرض لقيود الحياة الاجتماعية التاريخية. كما أن الأخلاق هي مغزى القيم التي تجعل علاقات الإنسان المتبادلة والنشطة والمحددة تندمج معاً. وتتعرض كل الأخلاق للقيود الاجتماعية التاريخية. وفي كل مراحل التطور التاريخي المختلفة، وبسبب تطور القوة الإنتاجية وظهور علاقات الإنتاج المتنوعة والمتباينة والأشكال الاجتماعية وتوافق مثل علاقات الإنتاج مع الأشكال الاجتماعية أدى ذلك إلى تشكيل الأوضاع الفكرية والأخلاقية، وتجسيد الأفكار والمذاهب الأخلاقية لمثل تلك الأوضاع. ويظهر اتكالية الأخلاق على الظروف التاريخية الاجتماعية أو تعرضها للقيود بصورة محددة، بسبب أن الأخلاق تحدد

طريق هدف القيم في العالم، ولذلك تتوقف الأخلاق بصورة مباشرة على ماهية شكل نظام القيم الذي يطرحه المجتمع، وكيفية التغيير الحقيقي لمثل ذلك النظام. ونظراً لأن الأخلاق تجسد مصالح الجماعة الاجتماعية، ولذلك فهي رهينة هدف تلك المصالح وتضاربها وتطورها بصورةمباشرة. كما أن الأخلاق تشتمل على معيار السلوك المحدد الذي يتناسب مع أوضاع الحياة النموذجية ونموذج الأعمال. ولذلك تؤثر تلك التغييرات التي تعتبر بمنزلة الأحوال الموضوعية لاختيار الأخلاق في الأخلاق تأثيراً مباشراً واستطاعت الثقافة الأخلاقية الصينية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي الصيني أن يلعبا دوراً مستقراً إلى حد ما في التطور التاريخي الذي استمر عدة آلاف من السنين، وذلك بسبب أن اعتمادها على الهيكل الاقتصادي وهيكل التنظيم الاجتماعي في المجتمع الصيني التقليدي اللذين يتمتعان بدرجة عالية من الاستقرار، لم يشهدا التغييرات الهيكلية الأساسية أبداً. ويشهد المجتمع الصيني التقليدي الانحلال ويواجه التحول الهيكلي مع تطور التاريخ. ومن ثم، تواجه الثقافة الأخلاقية الصينية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي الصيني اللذين اعتمدا على الهيكل الاجتماعي التقليدي أزمة تفكك الوحدة الكلية الشاملة بكل تأكيد أيضاً. ويعد ذلك بمنزلة بداية حركة التحديث الصيني في العصر الحديث. وشهد الهيكل الاقتصادي وهيكل التنظيم الاجتماعي والتكوين السياسي ونظامه في المجتمع التقليدي التغييرات الرئيسية، كما شهد أسلوب حياة الناس التغيير الهائل نتيجة الصدام مع تيار التحديث إن مثل تلك التغييرات الاجتماعية الكبرى من المؤكد أن تطلب التغيير والتعديل الرئيسي للثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي اللذين يجسدان القيم الاجتماعية الجديدة وعلاقات المصالح الجديدة. وذلك لأن الثقافة الأخلاقية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي قد عجزا عن التوافق مع متطلبات تحولات التحديث، ولا يستطيعان تقديم مغزى القيم المستقرة للصينيين الذين يمارسون التحديث.

ومختصر القول، إن الفكر الأخلاقي يواجه (يمارس) التحول التاريخي أثناء تغييرات التحديث التي تشهدها الصين.

ولكن، تحول الفكر الأخلاقي عملية طويلة جداً. ويعد هذا التحول بمنزلة أفول نجم الثقافة الأخلاقية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي

وانحلالهما من ناحية. ومن ناحية أخرى، يعد ذلك التحول بمنزلة بناء هيكل الثقافة الأخلاقية الحديثة والفكر الأخلاقي الحديث وتأسيسهما، وبلغة عصر «4مايو» 1919 إن ذلك التحول هو مناهضة الأخلاق القديمة وتشجيع الأخلاق الجديدة. وتحتاج هذه المهمة الثانية إلى فترة طويلة حتى يمكن إنجازها. وقياساً إلى جانب الأخلاق التقليدية، فإن اندثار تلك الأخلاق وانحلالها اجتاز عملية مرحلية طويلة. ويرجع ذلك في المقامالأول إلى أنه على الرغم من الثقافة الأخلاقية تعتمد على الأساس الاقتصادي، فإنها تعتبر من تكوينات الشعور ولذا تتسم بالاستقلالية النسبية واتجاه التطور الذاتي والمنطق، ولا تندثر في التو نتيجة انحلال المجتمع التقليدي الذي تعتمد عليه، وتلعب دورها في حياة الناس الواقعية باستخدام كل الأساليب المختلفة. ثانياً، تراكمت ثقافة الأخلاق التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي بعمق في أغوار هيكل الصينيين النفسي، وشكلت الوعي الأخلاقي المميز للصينيين والأحوال النفسية الأخلاقية، مما جعل الهيكل السطحي للثقافة الأخلاقية يشهد التغييرات مثل السلوك الأخلاقي، والنظام الأخلاقي وأصبح من الصعب جداً تعديل الوعي الأخلاقي العميق والأحوال النفسية الأخلاقية. ثالثاً، في الوقت الحاضر، مازالت الصين قابعة في المرحلة التاريخية لعملية التحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، ولديها التكوين الاجتماعي الذي يتسم بـ «الهيكل الثنائي». وفي عبارة أخرى، إن بعض عناصر المجتمع التقليدي والثقافة التقليدية مازالت باقية وتلعب دورها، ولذا منحت الحياة لوجود عناصر الأخلاق التقليدية. وعلى الرغم من قولنا إن الثقافة الأخلاقية الصينية التقليدية قد تفككت بصورة شاملة،فإن بعض عناصرها مازالت موجودة في المجتمع الحديث وتلعب دورها «السلبي والإيجابي» المحدد. وقياساً إلى الثقافة الأخلاقية الحديثة، فإن تشييد هيكلها ونشأتها يحتاج إلى فترة طويلة أيضاً. والسبب الرئيسي في ذلك أن الثقافة الأخلاقية الحديثة والفكر الأخلاقي الحديث يجب تأسيسهما بصورة حقيقية حتى يلعبا دورهما في المجتمع، كما يجب عليهما ـ مثل الثقافة الأخلاقية التقليديةـ أن يتغلغلا في أغوار الهيكل النفسي للناس ويعملا على تنمية وعيهم الأخلاقي الجديد وأحوالهم النفسية الأخلاقية وتحقيق التغييرات الأساسية في مفاهيم الأخلاق. ولا يمكن تحقيق ذلك بين عشية وضحاها. ومرة

أخرى، إن تشكيل النظام والنموذج الأخلاقي الجديد في المجتمع يحتاج أيضاً إلى عملية بناء طويلة الأمد. رابعاً، يجب على الثقافة الأخلاقية الحديثة والفكر الأخلاقي الحديث تجسيد مغزى قيم المجتمع الحديث، والتعبيير عن علاقة المصلحة في ذلك المجتمع. ولكن مازال المجتمع الحديث لم يتشكل بصورة تامة، ومازال الصينيون يعيشون في عملية الانتقال إليه. وفي عبارة أخرى، إن الأساس الاجتماعي الذي تعتمد عليه الثقافة الأخلاقية الحديثة والفكر الأخلاقي الحديث لم يؤسس تأسيساً كاملاً ولم يكتمل حتى الآن. ومن ثم، وفي ضوء الأوضاع الراهنة في الصين، فإن تفكك هيكل الثقافة الأخلاقية التقليدية وإعادة بناء هيكل الثقافة الأخلاقية الحديثة، وتحقيق التحول الكامل لفكر الصينيين الأخلاقي مازال يحتاج إلى فترة طويلة جداً بصفة عامة، كما يحتاج إلى عملية طويلة جداً. وفي الوقت الحاضر، يعيش الصينيون في مثل تلك العملية.

ويمكن تعقيد المشكلة في أن تحول فكر الصينيين الأخلاقي لا يستطيع أن ينأى عن التقاليد والأساس الثقافي المميز للصين. إن دحض ثقافة التقاليد دحضاً كاملاً لا يعني نقل طقم كامل من الأشياء الثقافية الجديدة تماماً. وعلى الرغم من أن الثقافة الأخلاقية تتسم بالمغزى التاريخي، ولكن تشتمل على المضمون الإنساني والموضوع الذي يتجاوز التاريخ بالتأكيد بسبب استقلالها النسبي. ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من قولنا بصفة عامة إن الثقافة الأخلاقية التقليدية تعتمد على الهيكل الاجتماعي التقليدي، ولكن بعض عناصرها تجتاز «تعديل القيم» في عملية التحديث وتستطيع أن تجسد وتظهر المضمون الحديث، كما تتناسب مع عملية التحديث وتلعب الدور الإيجابي داخلها. والأهم من ذلك، لقد تكونت الأحوال النفسية الأخلاقية المتميزة والوعي الأخلاقي الخاص بالأمة الصينية أثناء التوارث التاريخي الذي شهدته على مدى آلاف السنين. كما توجد بعض عناصر الثقافة الأخلاقية التقليدية التي أصبحت بمنزلة «اللاشعور الجماعي» للأمة الصينية. ويعد ذلك أساساً مهماً للصينيين الذين مازالوا يتمسكون بمزاياهم القومية والثقافية الخاصة بهم أثناء تحولات التحديث. إن تحقيق تحول الفكر الأخلاقي وممارسة إعادة بناء الثقافة الأخلاقية وتجديد مفاهيم الأخلاق لا يتم إلا فوق هذا الأساس. وفي ضوء الأوضاع المذكورة

آنفاً يجب على الصينيين إجراء التطهير الأيديولوجي الجاد للثقافة الأخلاقية التقليدية في عملية إعادة بناء الثقافة الأخلاقية الحديثة. وفي ضوء «الحقائق الساطعة» لهدف قيم التحديث، يتم اكتشاف بعض العناصر التي تجاوزت التاريخ وبعض العناصر الإيجابية التي تجاوزت «تعديل القيم» داخل الثقافة الأخلاقية التقليدية وتستطيع التوافق مع التحديث، والتمكن من الأساس السيكولوجي القومي الذي يشهد إعادة بناء الأخلاق. ويجب أن يكون مثل ذلك التطهير هادئاً وعقلانياً وعلمياً، ويجب ألا يكون عاطفياً وغير عقلاني ويحمل في طياته طابع العواطف والمشاعر العميقة. ويحتاج إنجاز ذلك التطهير الأيديولوجي إلى فترة طويلة جداً أيضاً.

وقصارى القول، أن تحقيق التحول الكامل في الفكر الأخلاقي للصينيين وتجديده يعدان بمنزلة عملية طويلة تتشابه مع عملية تحديث الصين وتحولها وانتقالها من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث. إذن، يواجه الصينيون الآن الأحوال التالية: تفكك نظام مقياس الأخلاق التقليدية من ناحية. ومن ناحية أخرى، مازال نظام مقياس الأخلاق الحديثة لم يؤسس بصورة كاملة. لكن في الوقت نفسه، مازالت بعض عناصر الثقافة الأخلاقية التقليدية قائمة وتلعب دورها في حياة الناس الواقعية في جانب، وفي جانب آخر، تتبلور الآن الثقافة الأخلاقية الحديثة في الحياة الواقعية وتلعب دورها أيضاً. ويواجه الناس القيم المزدوجة ذات الفاعلية في النطاق المحدود. والأكثر خطورة أن تطهير الثقافة الأخلاقية التقليدية مازال بعيداً عن الإنجاز تماماً. ومن ثم، يجب المضي قدماً في إنجاز مهمة حركة «4مايو» 1919 من معارضة الأخلاق القديمة والتغلب على تأثيرها السلبي تجاه التحديث والعقبات والقيود التي تفرضها على انتقال الصينيين إلى «المعاصرين» من ناحية. وسببت حركة التحديث ذاتها بعض المشاكل الأخلاقية الجديدة التي تحتاج إلى الحلول الجادة بصورة أكثر من ناحية أخرى. وجعلت تلك الأحوال صينيين يتورطون في المأزق الأخلاقي الصعب الذي لم يسق له مثيل في التاريخ.

الهوامش

(1) تذكر المؤلفات الكلاسيكية الصينية أن خضوعات المرأة الثلاثة هي: خضوع المرأة للأب قبل الزواج، وللزوج بعد الزواج، وللابن بعد الترمل. أما الفضائل الأربع فهي: تجسيد الفضيلة في السلوك والأدب، المظهر والعمل. [المترجم].

(2) «مختارات ماو تسي تونغ» ص 660. [بالصينية].

(3) وو يوي (1872-1949): من كبار المفكرين والكتاب الذين شنوا حملة شعواء على الأخلاق القديمة البالية والأعراف الإقطاعية أثناء حركة «4مايو» الأدبية عام 1919. وتولى رئاسة تحرير عدد من الصحف والمجلات الرئيسية، وعمل بالتدريس في بعض جامعات الصين الشهيرة، مثل جامعة بكين. [المترجم].

(4 ,5) «مقتطفات وو يوي الأدبية» الجزء الأول [بالصينية].

(6)، (7) «مختارات لي داجاو» دار الشعب للنشر، طبعة عام 1959، ص 80، ص 272-273.

18 الأزمة الأخلاقية لدى الصينيين المعاصرين

يعيش الصينيون المعاصرون الآن في عملية تحول الفكر الأخلاقي. إن المغزى الحقيقي لما يطلق عليه «عملية التحول» هو تفكك الثقافة الأخلاقية التقليدية ونظام مقياس تلك الأخلاق وعدم تأسيس الثقافة الأخلاقية الحديثة ونظام مقياس تلك الأخلاق بصورة كاملة. إن فكر الأخلاق التقليدية لا يتلاءم مع متطلبات التحديث، ولم يعد يستطيع منح الصينيين مغزى القيم المطلقة، ومازال فكر الأخلاق الحديثة الملائم للتحديث في طور التشكيل ولم يصل إلى الشكل الناضج والكامل بعد. ولذا لا يستطيع ذلك الفكر منح الصينيين مغزى القيم المطلقة أيضاً. إن المرحلة التاريخية التي يجتازها المعاصرون هي المرحلة التي شهدت فيها مفاهيم الأخلاق ونظام مقياس الأخلاق التجديد الهائل. وفي الوقت نفسه، هي المرحلة التي جسدت المستوى المتدني من الانسجام إلى حد ما في الحياة الأخلاقية الاجتماعية وعدم التوازن الهيكلي الكبير في ظاهرة الثقافة الأخلاقية وشعور الناس بالوضع الصعب في الجانب الأخلاقي على نطاق واسع

المدى. وفي الأصل، كان الصينيون مشهورين بالمستوى المرتفع من التمدين والفكر الأخلاقي. ولكن، الآن تورطوا في الوضع الأخلاقي الصعب الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ.

وفي المقام الأول، إن الوضع الأخلاقي الصعب لدى الصينيين المعاصرين هو الوضع الصعب في جانب القيم الأخلاقية. وما يسمى بالقيم الأخلاقية يشير بصورة رئيسية إلى سلوك الناس الأخلاقي النبيل والأخلاق الحميدة والأوضاع الأخلاقية السامية التي تتولد منها القيم الروحية. ولكن، يتوقف السلوك النبيل والأخلاق الحميدة والأوضاع السامية على ما هية وجهة النظر إلى القيم التي «ينظر» من خلالها، وما هية معيار القيم الذي يستخدم في التقييم. ومن ثم، فالقيم الأخلاقية هي نوع من الميول والرغبات الخاصة التي تتجسد في الأشياء المدركة بالحواس وتتسم بالمغزى الشخصي وتعكس علاقة الأخلاق داخل المجتمع. «وتبدو العلاقة الأخلاقية المكونة داخل المجتمع كأنها تعيش في (الشبكة) المستقرة التي نسجها مغزى القيم داخل التأثيرات المتبادلة وعلاقة التبعية المحددة والمتوازية».[1] ويجب على القوانين والمبادىء ومعايير السلوك التي قامت الأخلاق الاجتماعية بالدعاية لها وتتحقق في العديد من السلوكيات المتشابهة أن تتسم بنموذج الحياة والمثل العليا وتنتمي إلى القيم الأخلاقية. ويعتمد ذلك على نظام القيم الذي تشكل داخل المجتمع حتى يستطيع وعي الإنسان ممارسة التقييم الأخلاقي المستمر والمستقر إلى حد ما لسلوكيات الآخرين وأنشطتهم. ويعبر المجموع العام للتقييم الأخلاقي المعترف به من قبل المجتمع عن نظام ترتيب القيم النموذجية ونظام الدرجات الاجتماعية. وفي التكوين الاجتماعي الذي يتسم بالهيكل المستقر وبمستوى مرتفع نسبياً من الطبيعة المتشابهة، تكون مثل وجهة النظر تلك إلى القيم الأخلاقية منسجمة ويتجه التقييم الأخلاقي الاجتماعي إلى التوافق. ولكن مع التغييرات التي تشهدها الظروف المادية لأنشطة الناس والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، فإن التغييرات تطرأ أيضاً على نظام القيم الثابت والقائم في العلاقة الأخلاقية التي تم تأسيسها في المجتمع والفكر الثقافي الاجتماعي. لقد اندثرت القيم القديمة، وظهرت القيم الجديدة، وشهدت علاقاتهم ذات التبعية المتوازية التغييرات أيضاً. وتحتاج تلك التغييرات إلى الظروف البيئية الاجتماعية والعلاقة الأخلاقية

الأساسية الجديدة، وإلى تحديد وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية من جديد، ونظام التقييم الأخلاقي الاجتماعي.

وقدمت وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية ونظام التقييم الأخلاقي مغزى القيم المستقرة لأنشطة أفراد المجتمع الأخلاقية المحددة، كما جعلا الناس يستطيعون امتلاك مقياس التبادل المشترك ويستطيعون التفاهم فيما بينهم. ولذا أصبحت الحياة الاجتماعية ممكنة. ولكن، تجتاز الصين في الوقت الحاضر عملية الانتقال والتحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، وتعيش في عملية إحلال وتجديد نظامي الأخلاق القديمة والجديدة. وفي هذه العملية، ابتعدت بعض القيم الأخلاقية التي تقبلها الناس واعترفوا بها دائماً عن الحياة الواقعية تدريجياً وأصبحت تجريدية وبالية ولا تتناسب مع الوقت الحاضر. كما أن بعض المفاهيم الجديدة التي كان يبدو من الصعب قبولها اعترف بها الناس بصورة تدريجية وبدأت أن تكون مقياس التقييم الأخلاقي. كما يواجه الناس-في هذه العملية-نوعين من وجهات النظر إلى القيم ونظام التقييم في آن واحد، لم يحققا التوافق فيما بينهما في المجتمع كله، ولم يحصلا على مستوى القبول من جانب جميع أفراد المجتمع. ولكن، في الوقت نفسه، لعبا دورهما في نطاق محدد. وتظهر تلك الأوضاع في كل مجالات أنشطة الناس الأخلاقية. وتلعب وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية التقليدية في بعض المجالات دور الهيمنة الرئيسي. كما تلعب وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية الحديثة في بعض المجالات دور السيطرة الرئيسي. ومازال بعض أفراد المجتمع يتمسكون بوجهة النظر إلى القيم الأخلاقية التقليدية، وقد تقبل الجزء الآخر من أفراد المجتمع وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية الحديثة. وليس ذلك فحسب، بل يظهر أيضاً لدى الفرد ذاته نوعان من وجهة النظر إلى القيم، ويقيم ظاهرة ما من خلال وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية التقليدية، كما يقيم ظاهرة أخرى من خلال وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية الحديثة، بل حتى ربما يواجه الفرد نفسه الإذعان لنوعين من وجهة النظر إلى القيم في تقييم ظاهرة أخلاقية واحدة، ولذلك تظهر القيم الأخلاقية المتباينة. وعلى هذا النحو، جعل ذلك الصينيين المعاصرين يواجهون الصدام بين مقاييس القيم المزدوجة. وفي ظل تقييم المجتمع التقليدي لمقاييس القيم المزدوجة، حصلت الأنشطة

والظواهر على التقييم المختلف بسبب اختلاف مقياس القيم. ويواجه كل سلوك أخلاقي اختيار نوعين مختلفين من اتجاه القيم، ولذلك يحصل على مغزى القيم المتباين. وجعلت هذه الأحوال النساء يواجهون عادة الخيار الصعب في الحياة الواقعية. وربما يحصل أي اختيار على التأييد الثقافي من قبل نوع ما من وجهة النظر إلى القيم، ويحظى بتأييد أو ثناء أحد أنواع مقاييس القيم، وفي الوقت ذاته، يتعرض لإنكار أو نقد نوع آخر من مقاييس القيم أيضاً. ويشعر الناس في ذلك الخيار الصعب بالحيرة والقلق والارتباك، ولا يعرفون كيف يجب عليهم ممارسة اختيار القيم الأخلاقية.

وفي ظل مقاييس القيم المزدوجة يواجه الناس الصدام العنيف بين مفاهيم الأخلاق والقيم الأخلاقية والذي يتغلغل في كل مجالات حياة الصينيين المعاصرين اليومية، وفي كل جوانب الهيكل الاجتماعي الخاص بهم. ويشعر الناس بهذا الصدام ويعانون منه دائماً. وعلى سبيل المثال، تظهر الأخلاق القومية العامة، وآداب الوظيفة، وأخلاق أسر المتزوجين، وأخلاق الحياة العامة، وأخلاق العلاقات الإنسانية، وأخلاق العلاقات العامة وغيرها من مجالات أخلاق الحياة تظهر نوعين متعارضين ومتضاربين من وجهات النظر إلى القيم الأخلاقية يتعايشان في مشكلة مقاييس القيم المزدوجة ويجعلان الناس يواجهون المأزق الصعب في اختيار إحدى وجهتي النظر إلى القيم الأخلاقية.

والمشكلة الأساسية في الجانب الأخلاقي لدى الصينيين المعاصرين هي كيفية التغلب على التأثير السلبي لمفاهيم الأخلاق التقليدية تجاه التحديث وتبديده، وتشجيع الأخلاق الجديدة من خلال معارضة الأخلاق القديمة والحث على تعديل مفاهيم أخلاق الناس وتجديدها، وتكوين البيئة الثقافية الأخلاقية التي تساعد على الإصلاح والانفتاح وتسهم في دفع التحديث الصيني إلى الأمام. ولا يمكن الاستقلال النسبي للأخلاق في اتجاه تطورها الذاتي ومنطقها فحسب، بل يكمن أيضاً في رد فعلها إزاء العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. وتستطيع الأخلاق تعجيل أو إبطاء مسيرة التنمية الاجتماعية. كما أشار إنجلز في كتاب «نشأة الأسرة والنظام الخاص والدولة» إلى أن مصدر الأخلاق الرئيسي يكمن في الظروف الاقتصادية والاجتماعية ومصلحة الطبقات، إن الأخلاق تضطلع بدور تعديل تكاثر العلاقات

الاجتماعية التي قد تكونت، والعلاقات الجديدة التي تشكلت حديثاً. ومنذ تطبيق الإصلاح والانفتاح، دخلت الصين في فترة جديدة من بناء التحديث الشامل ويواجه أسلوب الإنتاج وطريقة الحياة لدى الناس ويشهدان التجديد بصورة أكثر، وحقق البناء الاقتصادي الإنجازات الهائلة ويتجه نحو هدف التطوير الكبير. وفي ضوء تلك الأوضاع، تكشف الثقافة الأخلاقية المتوارثة من المجتمع التقليدي سلبياتها يوماً بعد يوم مثل: المفاهيم الأخلاقية التقليدية، والقيم الأخلاقية، والعلاقات الأخلاقية التقليدية، ومقياس السلوك التقليدي، ويظهر ذلك كله الإعاقة والتقييد لتحديث المجتمع يوماً بعد يوم. كما توجد بعض العناصر السلبية لتلك الثقافة التي بدأت تتعرض للنقد والهجوم منذ حرب مناهضة الأخلاق القديمة في حركة «4 مايو» عام 1919. ولكن، مازالت تلك العناصر موجودة في الحياة الواقعية بدرجات متفاوتة من خلال تكوينها الأولي أو تكوينها الثانوي. كما أن هناك بعض العناصر التي توارثت بوصفها من التقاليد الأخلاقية الحميدة والقومية، وتلعب دور التشجيع الإيجابي بدرجات متفاوتة في تحولات التحديث الصيني، ولكن ظهر دورها وتأثيرها السلبي مع بداية بناء التحديث الشامل والعميق. إن تلك العناصر السلبية في الثقافة الأخلاقية التقليدية تقيد أفكار الناس، والعلاقة الأخلاقية، وتعرقل تعميق الإصلاح والانفتاح والمسيرة التاريخية الموضوعية لدفع التحديث الشامل إلى الأمام. ولذلك، مازال يواجه الصينيون مهمة تعديل المفاهيم الأخلاقية والممارسة الأخلاقية وتجديدها بصورة مطردة. ويعني ذلك التخلص من تلك المفاهيم الفاسدة في الأخلاق التقليدية والتغلب عليها، وتشجيع المفاهيم الأخلاقية التي تسهم في التحديث والقيام بالدعاية لها. بالإضافة إلى التخلص من بعض المبادىء الأخلاقية ومعايير السلوك في الأخلاق التقليدية، والدعوة إلى تأسيس المبادىء الأخلاقية ونظام معيار السلوك الذي يساعد على التحديث، والتحرر من وجهة النظر إلى القيم ونظام التقييم في الأخلاق التقليدية، وتشجيع تكوين وجهة النظر إلى القيم الحديثة ونظام التقييم الحديث. ومختصر القول، إن تحقيق أسلوب الحياة المتمدين والسليم يتطلب إيجاد البيئة الأخلاقية التي تسهم في التحديث، بالإضافة إلى تحديث الثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي القومي في الوقت نفسه الذي يتم فيه دفع التحديث كله إلى الأمام.

وفي المرحلة الجديدة التي تشهد التحديث الشامل مازال التطهير والتخلص بصورة مطردة من التأثيرات السلبية لعناصر الثقافة الأخلاقية التقليدية بمنزلة المهمة التي يواجهها الصينيون في مجال المبادىء الأخلاقية. ولكن مع ذلك، وفي الوقت نفسه، أثارت (سببت) عملية تحولات التحديث ذاتها بعض المشاكل الأخلاقية الجديدة التي تحتاج إلى الاهتمام من جانب الصينيين ويعملون على حلها. وعلى هذا النحو، يواجه الصينيون في مجال الأخلاق والمبادىء الأخلاقية مهمة مزدوجة، الأولى: الاستمرار في معارضة الأخلاق القديمة والحث على مهمة التحديث. والثانية: التخلص من الجوانب السلبية التي تجلبها تحولات التحديث نفسها. ويعني ذلك تجاوز مهمة التحديث. وتكمن المشكلة في أن جانبي هذه المهمة متشابكان، وربما تتغلغل العناصر السلبية للثقافة الأخلاقية التقليدية والقيم السلبية للتحديث كل منهما في الآخر وتظهر بعض تكوينات التغيير المجسم الجديد. وسبب ذلك الصعوبات المحددة لعملية التطهير والتمييز التي يقوم بها الصينيون، مما يجعل مهمتهم لإعادة بناء الثقافة الأخلاقية الحديثة والفكر الأخلاقي الحديث الأكثر معاناة وتعقيداً.

وتظهر مشاكل الأخلاق الجديدة التي أثارتها عملية تحولات التحديث ذاتها في الجوانب الرئيسية التالية:

1- إن حركة التحديث وتصنيعها، وعملية التمدين غيرت ظروف معيشة الناس وأسلوب حياتهم تغييراً هائلاً. كما غيرت العلاقة بين الإنسان والطبيعة، والعلاقات الأخلاقية بين الناس. وهذه التغييرات سريعة جداً وطرحت أمام الناس مشكلة التكيف السيكولوجي الأخلاقي وقوة التحمل. ويحتاج الناس إلى وقت محدد لتكوين السيكولوجية الأخلاقية التي تتناسب مع تحولات التحديث المطردة.

2- إن تحولات التحديث جعلت النظرية السطحية لعلاقات التبادل بين الناس والمنافع، وكفاءة الآلات بمنزلة المبدأ الرئيسي المسيطر على حياة الناس، مما ألحق الأضرار بالوحدة الكلية لأنشطة حياة الناس وثرائها وجعلهم يواجهون هيمنة القوة الغربية وخطر التطور من جانب واحد. إن التحديث أتاح إمكانية وظروف التطور الشامل للناس. ولكن، في الوقت نفسه، سبب أيضاً قمع إمكانية التطور الشامل لهم. وعلى سبيل المثال،

مشكلة «اغتراب» الإنسان في المجتمع الرأسمالي الحديث هي مشكلة أخلاقية وتعد أهم مشكلة في تحولات التحديث.

3- تسربت بعض المظاهر الأخلاقية السلبية والفاسدة ومفاهيم الأخلاق في المجتمع الرأسمالي الغربي إلى حياة الصينيين اليومية نتيجة توسيع آفاق الانفتاح وتعميقه.

4- إن ثورة العلوم والتكنولوجيا الحديثة واستخدام إنجازاتها على نطاق واسع لم يغير العلاقة بين الإنسان والطبيعة فحسب، بل غير الإنسان نفسه أيضاً. وظهر «طفل أنابيب الاختبار» و«الموت في سلام» وغيرها من مشاكل علم المبادىء الأخلاقية في الحياة الحديثة وعلم طب المبادىء الأخلاقية.

5- مشاكل علم المبادىء الأخلاقية البيئية وعلم التبيؤ الأخلاقي.

وهناك العديد من المشاكل على هذا النحو التي تظهر دائماً من خلال الأشكال المتنوعة وسببت الحيرة والارتباك الأخلاقي الجديد لدى الناس. ولا مراء في أن المهمة الأساسية التي يواجهها الصينيون المعاصرون هي دفع تحديث المجتمع إلى الأمام بكل قوة. ولكن، تظهر أيضاً في عملية التحديث المشاكل الأخلاقية الجديدة والمتنوعة، التي سببت عرقلة مسيرة التحديث ومقاومتها. وإيجاد الحلول لهذه المشاكل يعتمد على الاستمرار في دفع التحديث إلى الأمام وليس التقهقر إلى المجتمع التقليدي. ويعد كيفية معالجة ذلك الاختيار الصعب من المآزق الأخلاقية لدى الصينيين المعاصرين.

الهوامش

(1) انظر «علم الأخلاق الماركسية» تحرير: جيليلانكو، دار جامعة الشعب الصيني للنشر، طبعة عام 1984، ص 109.

١٩ المشكلة اللاأخلاقية

إن ما يطلق عليه «المشكلة اللأخلاقية» يشير إلى اتجاه معارضة فرض القيود على النفس من خلال الأخلاق ويشجع على ترك النفس وشأنها ويعالج مقاييس أخلاق البشر باستخدام أسلوب العدمية. ويعد جوهر اللاأخلاقية نوعاً من الأنانية المتطرفة، بل حتى يدعو إلى أن كل الوسائل اللاأخلاقية طرق شرعية للسلوك الذاتي مادام يستطيع تحقيق أهداف النفس. ونقول بصفة عامة إن الأخلاق تعد نوعاً من الصفة المميزة لسلوكيات الإنسان التي تتعرض للقيود الاجتماعية، كما أنها نوع من الأوضاع التي تجعل حياة المجتمع البشري ممكناً. وقد نشأت الأخلاق «باعتبارها أحد جوانب تاريخ البشرية» مع حياة البشرية الاجتماعية في آن واحد. ويعد جوهر حياة المجتمع البشري نوعاً من الحياة الأخلاقية. وتتسم الأخلاق بالشكل والمضمون المتباين داخل القوميات المختلفة والمجموعات الاجتماعية، وذلك على الرغم من مراحل التطور المختلفة في تاريخ البشرية. ولكن، تظهر عادة في تاريخ البشرية التيارات أو الاتجاهات الرئيسية اللاأخلاقية في جميع الأشكال المتنوعة وتنأى عن الحياة الأخلاقية والاجتماعية للبشرية

وتشجب كل القيود الاجتماعية، وتزدري جميع المقاييس الأخلاقية وتنتهج أسلوب العدمية ومبدأ النسبية تجاه القيم الأخلاقية. وعلى وجه العموم، تظهر غالباً الاتجاهات غير الأخلاقية في التاريخ في التغييرات الكبرى التي تطرأ على الهيكل الاجتماعي، حيث إن النظام الاجتماعي والأخلاقي القديم قد أشرف على التفكك أو تفكك، وتعرضت معايير الأخلاق والقيم الأخلاقية القديمة للارتياب والإدانة، ومازال نظام الحياة الأخلاقية الجديدة لم يؤسس بصورة كاملة. وفي ضوء تلك الأوضاع تتولد مشاعر الارتياب والتشاؤم بين بعض الأفراد، مما يساعد على حدوث الاتجاهات الأخلاقية. وعلى سبيل المثال، انتشرت مثل تلك اللاأخلاقية لفترة من الوقت في أواخر الإمبراطورية الرومانية. كما شهد عصر النهضة في أوروبا الغربية وثورة الطبقة الرأسمالية المشاكل اللاأخلاقية بدرجات متفاوتة.

ويجتاز الفكر الأخلاقي لدى الصينيين في عملية تحولات التحديث الصيني التحول التاريخي في الوقت الحاضر. كما تعيش الثقافة الأخلاقية والنظام الأخلاقي في الصين عملية انحلال الهيكل وإعادة البناء حالياً. وتعتبر اللاأخلاقية في مثل عصر التجديد الهائل ذاك ظاهرة ثقافية طليقة خارج البناء الاجتماعي الرئيسي وتنتشر في نطاق محدود وتحدث تأثيراً. ولا سيما منذ تطبيق الإصلاح والانفتاح حيث بدأت حركة التحديث في النطاق الأكثر عمقاً واتساعاً بصورة شاملة وعجلت تعديل الهيكل والنظام الاجتماعي وتجديدهما. كما أسرعت بتغيير مفاهيم أخلاق الناس وتجديدها. ولكن مع ذلك - وفي الوقت نفسه - ظهر الشكل الجديد للظاهرة اللاأخلاقية أيضاً.

وظهرت اللاأخلاقية في الحياة الاجتماعية في الصين الحديثة بصورة رئيسية في الجوانب التالية:

١- ضعف مقاييس الأخلاق في بعض المجالات وفقدان فاعليتها من جراء أن الصينيين في الوقت الحاضر يجتازون مرحلة تتسم بنوعين من الثقافة الأخلاقية وتغيير إحلال النظام الأخلاقي، مما جعل الناس يتولد لديهم نوع من الافتقار إلى المفاهيم الأخلاقية التي تتسم بالنظام الكامل والمقاييس التي يعتمدون عليها، وتتواجد التجاوزات الاجتماعية وظاهرة فقدان المقاييس الأخلاقية أحياناً. وتظهر هذه الأحوال في العديد من

جوانب الحياة الأخلاقية. على سبيل المثال، مازالت مشاكل النزعة غير السليمة في مجال وظائف الأخلاق خطيرة نسبياً مثل: «استغلال السلطة من أجل الأنانية» و «محاولة استغلال الوظيفة لتحقيق المصلحة » وغيره من السلوكيات الأخرى. وتلتهم بعض كوادر الدولة ثروتها وتجمع الرشوة وتعيش حياة الفساد، وبعض الأفراد الذين يمارسون الأنشطة التجارية ينسون الفضيلة والعدالة عندما يشاهدون الأموال ويوقعون المستهلكين في الشرَك من خلال السلع المزورة والزائفة ويسعون وراء الأرباح الفاحشة. وفي أخلاق الأسر المتزوجة، مازالت آثار الأخلاق القديمة من «احترام الرجل وازدراء المرأة» وعدم المساواة بينهما تتسم بالتأثير المحدود. ومن ناحية أخرى، ينتشر مفهوم «الحرية الجنسية» انتشاراً محدوداً بل حتى «ظاهرة الطرف الثالث» تتمتع بدرجة معينة من التسامح. وفي أخلاق الحياة العامة، يوجد بعض الأفراد من ذوي الشعور الضحل تجاه الآداب الاجتماعية العامة، ويظهرون العديد من السلوكيات والمداهنة وإقامة الولائم وتقديم الهدايا تودداً، وتعيين الأشخاص بناءً على المحسوبية، والتسلل ومحاولة التقرب من الآخرين والدخول من الأبواب الخلفية، وغيرها من الظواهر الأخرى. بالإضافة إلى أن الحياة دبت من جديد في العديد من الظواهر المغرضة التي اندثرت منذ فترة بعيدة وطفحت الرواسب على السطح مثل: تعاطي المخدرات والقمار والدعارة ودار البغاء والاعتراف بالمحظيات والاحتيال والنصب وبيع النساء والأطفال وتصنيع مواد نشر الخلاعة والفسق وغيرها من الظواهر التي ألحقت الأضرار الخطيرة بالحياة الاجتماعية.

2- انحلال مشاعر العدالة الاجتماعية والخجل، والخلط بين وجهة النظر إلى العزة والذل ووجهة النظر إلى الصواب والخطأ، وتكاد تكون الأحوال النفسية الأخلاقية والاجتماعية مخدرة وفقدت توازنها. وتتكون في المجتمع الذي يتسم بالهيكل المستقر وبمستوى مرتفع إلى حد ما من الطبيعة المتشابهة وجهة النظر إلى الصواب والخطأ ووجهة النظر إلى العزة والذل بشكل يميل إلى التشابه بسبب أن أفراد المجتمع يتمتعون بوجهة النظر الموحدة إلى القيم الأخلاقية. والسلوكيات التي تنأى عن وجهة النظر الأخلاقية هي غير أخلاقية وتتعرض عادة للشجب على نطاق واسع أو تتحمل مسؤولية ضميرها وتشعر بالخزي والعار. ولكن، هناك بعض الأفراد

في الحياة الصينية الاجتماعية الحديثة يفتقرون إلى وجهة النظر البدائية إلى الصواب ووجهة النظر إلى العزة والذل، ويخالفون الآداب الاجتماعية جهاراً ويلحقون الأضرار بالآخرين وبالمصالح الاجتماعية، بل حتى لا يعتبرون ذلك عاراً ويعارضون الشرف. وهناك بعض سلوكيات الناس المخزية التي ربما معلق عليها الآن لافتة مكتوب عليها أسماء الشرف والفخر. وفي الأصل، كان أهم معيار للعلاقات الاجتماعية هو: «وجود تسديد الديون المستحقة». ولكن، الآن مشكلة «الدين الثلاثي» بين المؤسسات (بما فيها مؤسسات القطاع العام والخاص) تأخرت طويلاً دون حل، ويسعى الدائنون وراء المدينين يتوسلون إليهم لدفع الدين.

3- انحلال مشاعر المسؤولية الاجتماعية والإحساس بالواجب والاستخفاف بالمصالح الجماعية الاجتماعية وتفاقم اتجاه الأنانية المتطرفة داخل معايير الحياة الاجتماعية. وتظهر متطلبات الأخلاق الاجتماعية أمام الإنسان الصيني في الشعور العقلاني بالواجبات ومسؤوليته التي يضطلع بها إزاء المجتمع والجماعة ونفسه، ويتحمل التزاماته المحددة تجاه المسؤولية الاجتماعية باعتباره عضواً اجتماعياً. وفي الوقت ذاته، يتحمل أيضاً مسؤولية سلوكه الأخلاقي الذاتي. ولكن، في الوقت الحاضر مثل ذلك الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية والشعور بالالتزام في غاية الضعف بين بعض الصينيين الذين لا يتحملون المسؤولية الأخلاقية في تصرفاتهم الذاتية. كما لا يتحملون الالتزام الاجتماعي الواجب عليهم، ولا يهتمون إلا بمصالحهم الذاتية الحالية، بل حتى لا يتورعون عن مخالفة المقاييس الأخلاقية الاجتماعية وإظهار نزعة الأنانية المتطرفة من أجل تحقيق الأهداف الذاتية وإشباع الرغبات الفردية.

4- تجميد آلية السيطرة على الأخلاق الاجتماعية وتدني فاعليتها وفقدان قوة تأثير وظائف التقييم الأخلاقي ومراقبة الرأي العام. ويجب على المجتمع تأسيس آلية السيطرة على الأخلاق الاجتماعية إذا أراد تشكيل نظام الحياة الأخلاقية المستقرة وتهيئة الجو الأخلاقي الجيد وضمان التطور السليم والمنسجم للحياة الأخلاقية الاجتماعية. وتعتمد السيطرة على الحياة الأخلاقية الاجتماعية على التقييم الأخلاقي ومراقبة الرأي العام بصورة أساسية. ويشير التقييم الأخلاقي إلى الناس الذين يدلون بتعليقهم الجيد

أو السيىء إزاء السلوكيات الأخلاقية للآخرين حسب وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية المستقرة ومقياس الأخلاق. إن التقييم الأخلاقي يجعل الإنسان لديه القدرة على التمييز إذا كان سلوكه يتفق مع مقياس الأخلاق الاجتماعية أو لا، وذلك من خلال انتهاج أسلوب المدح أو الشجب، كما يمكن أن يمده بالمعلومات الخاصة بقيمة السلوكية ويجعله يتأثر بشجب الأخلاق أو مدحها بفضل المشاعر المتشابهة. إن مراقبة الرأي العام الاجتماعي تمدح بعض السلوكيات أو تشجبها وتلعب دور التشجيع أو الإعاقة لسلوك الناس من خلال التعليق على السلوكيات ووسائل النشر الجماهيرية وغيرها من القنوات الرسمية والوسائل التي تقوم بتعديل سلوكيات الناس الأخلاقية والسيطرة عليها. ونظراً لأن الصينيين يواجهون في الوقت الحاضر إحلال الجديد محل القديم في وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية ومعايير التقييم المزدوجة، ولذلك تمر مقاييس الأخلاق الاجتماعية بعملية إعادة البناء الآن، مما جعل التقييم الأخلاقي لدى الناس يفتقر إلى المقياس الأخلاقي الموحد الموثوق فيه. وتظهر وسائل النشر الجماهيرية مستوى معين من الاضطراب في الدعاية ومراقبة الرأي العام، ولا تستطيع أن تجعل الناس يحصلون على المعلومات الفعالة والانطباع المشترك تجاه الشجب أو المدح الأخلاقي. ولذلك يظهر الجمود وفقدان الفاعلية في جانب تعديل سلوكيات الناس الأخلاقية والسيطرة عليها.

5- ظهور التدهور والتشوه في التربية الأخلاقية. تضطلع التربية الأخلاقية بإعداد مفاهيم أفراد المجتمع الأخلاقية ومقياس الأخلاق وغيرها من الجوانب الأخرى حسب القيم الأخلاقية الاجتماعية، وتؤثر في أنشطة الناس الأخلاقية من خلال تشكيل المزايا الأخلاقية لديهم. وفي الوقت الحاضر يواجه الصينيون مشكلة افتقار أحوال التربية الأخلاقية إلى الاستقرار والتوافق دائماً، بل حتى تبرز ظاهرة تلقين المتعلمين الأشياء المتناقضة معاً، وذلك بسبب تعايش مقاييس الأخلاق المزدوجة. ولم يحقق الجو العام الأخلاقي الاجتماعي التحول الرئيسي وتضعف قوة تأثير التربية الأخلاقية عادة من جراء تبلور ظاهرة التجاوزات وفقدان القيم في المجتمع. وفقدت طرق التربية التقليدية ووسائلها قوة جذبها للآخرين، وتجتاز الآن الطرق والوسائل الجديدة والفعالة تجربتها الأولية، ولم تتشكل الشبكة

الموحدة للتنظيم التربوي الأخلاقي في المجتمع بأسره. وتجعل هذه الأحوال التربية الأخلاقية عاجزة عن أن تلعب دورها الوظيفي الكامل.

إن اللاأخلاقية ظاهرة سلبية اجتماعية في عملية التحديث الصيني. وعلى الرغم من أن اللاأخلاقية غير مألوفة، فإن امتدادها وانتشارها أخل بالجو الأخلاقي الاجتماعي العام وألحق الأضرار بالتطور المنتظم والمنسجم للحياة الأخلاقية الاجتماعية، وعرقل البناء الاقتصادي والتحديث الاجتماعي وعرضهما للخطر، ولعب الدور السلبي في أرجاء مسيرة التطور الاجتماعي. ولكن، بروز هذه الظاهرة ليس ارتجالياً إطلاقاً، بل إنها ظاهرة لا يمكن اجتنابها في تحولات التحديث خلال عملية الانتقال والتحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، وتحمل في طياتها الحتمية التاريخية. ويتسم بروز الظاهرة اللاأخلاقية بالأسباب الاجتماعية والتاريخية المعقدة جداً. ونقول بدقة إن الظاهرة اللاأخلاقية التي برزت في الحياة الاجتماعية الصينية تتسم بالأسباب الرئيسية في الجوانب المتعددة التالية:

أولا: إن الثقافة الأخلاقية التقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي في الصين شكلا في عملية التطور التاريخي التي استمرت عدة آلاف من السنين النظام الوظيفي الهيكلي الكامل إلى حد ما والذي يتضمن الفلسفة والقيم والمقاييس الأخلاقية وغيرها من العناصر الرئيسية المتنوعة التي تتبادل التنسيق والانسجام فيما بينها، ورسمت الصورة النموذجية للأحوال النفسية الأخلاقية المستقرة لدى الصينيين، ولعبت الدور الفعال جداً في تنظيم حياة الصينيين الأخلاقية وشكلت الصفات الأخلاقية والشخصية والقومية لديهم وغيرها من الجوانب الأخرى. ولكن تعرض نظام الثقافة الأخلاقية الكامل والمستقر والقوي في عملية تحديث الصين للتحدي والهجوم والارتياب والانحلال السريع في وقت غير طويل. ويعد انحلال ذلك النظام بمنزلة الشرط الأساسي لتحول فكر الصينيين الأخلاقي إلى اتجاه التحديث. ويتسم هذا التحول بمغزى التقدم التاريخي. إن انحلال مثل ذلك النظام الأخلاقي الفعال والمستقر جداً يتسم بالتأثير الخارجي أيضاً. ويعني ذلك تولد مشاعر الشكوكية والعدمية ومذهب النسبية الأخلاقي بين بعض الأفراد الذين يعتقدون أن كل الأخلاق تتمتع بالمغزى النسبي وإن كل المقاييس الأخلاقية يمكن الشك فيها وإنكارها. وتعد تلك المشاعر والأفكار بمنزلة

الأساس الأيديولوجي الذي نجمت عنه الظاهرة اللاأخلاقية. كما أن تلك المشاعر قوية من الناحية الموضوعية بسبب الدور الإيجابي المحدد الذي لعبه تيار الشكوكية الفكري في معارضة الثقافة الأخلاقية التقليدية.

ثانياً: الحقيقة التي يواجهها الصينيون في عملية انحلال الثقافة الأخلاقية التقليدية وإعادة بناء الثقافة الأخلاقية الحديثة التي يجتازونها في الوقت الحاضر هي أنه على الرغم من تفكك الأخلاق التقليدية، فإنها مازالت تلعب دوراً نسبياً في النطاق المحدد. ولا سيما مازالت توجد العديد من العوامل التقليدية المتبقية داخل مفاهيم الناس الأخلاقية وأحوالهم النفسية الأخلاقية التي لم تحقق التجديد تحقيقاً كاملاً كما أن الأخلاق الحديثة التي قيد التكوين الآن تلعب دوراً نسبياً في النطاق المحدد أيضاً. كما أن النظام الذي يتسم بالتكوين الكامل والهيكل الوظيفي المستقر لم يتشكل بعد، ولم تتعمق المفاهيم الأخلاقية الجديدة والقيم الأخلاقية في هيكل الناس النفسي العميق. وعلى هذا النحو، فقد المجتمع النظام الموحد للحياة الأخلاقية وظهرت الأوضاع الفوضوية واللانظامية. إن مقاييس القيم المزدوجة جعلت الناس يشهدون الفوضى والارتباك على صعيد التقييم الأخلاقي. وربما يخضع كل سلوك وظاهرة لنوعين من التقييم المتعارضين، ويتمتع كل تقييم بالدعم والتأييد من وجهة النظر إلى القيم الأخلاقية (التقليدية أو الحديثة). مما جعل الناس يشعرون بأن كل ما يفعلون «معقول» وأخلاقي، أو شعروا عكس ذلك. كما تنتابهم مشاعر فقدان المقياس الأخلاقي الموحد ومعيار القيم وحيرة الافتقار إلى القاعدة والأساس الأخلاقي. وتعد تلك الأحوال بمنزلة الظاهرة اللاعقلانية التي تؤدي إلى ظهور المشكلات النفسية الاجتماعية.

ثالثاً: لقد بدأت حركة التحديث الصيني في ظل الأحوال السلبية والملحة. وفي بادىء الأمر تم «سحب» تلك الحركة إلى داخل تيار التحديث العالمي، ولذا لم تعالج الاستعدادات النفسية للتحولات الاجتماعية العنيفة على نطاق واسع، ويعوزها التمكن العقلاني العام لنزعة تحولات التحديث واتجاهها والموضوع الجوهري للفكر الأخلاقي الملائم للتحديث. ومن ناحية أخرى، أن البناء الاقتصادي لم يتخلص من المركزية إلا في السنوات العشر الأخيرة وأكثر بسبب تعقيدات عملية تحولات التحديث الصيني. ولذلك،

مستوى القوى الإنتاجية الاجتماعية منخفض نسبياً، والاقتصاد التجاري غير متطور، والمستوى الثقافي العلمي والمزايا السيكولوجية لدى أفراد المجتمع ليست مرتفعة. وكانت النتيجة المترتبة على ذلك أن الأحوال النفسية الأخلاقية لدى الناس وسلوكياتهم بعد أن نأت عن مسار التقاليد لم تشكل بصورة عفوية نظام القيم الجديدة للتحديث والمفاهيم الأخلاقية التي تتناسب معه. كما لم تتجه تلك الأحوال بصورة واعية نحو اتجاه التطور الذي يتسم بالنظام المعقول للتحديث، بل ظهرت العديد من التكوينات المتغيرة والمشوهة التي لا تنتمي للقيم الأخلاقية التقليدية أو القيم الأخلاقية الحديثة.

رابعاً: سببت الفوضى العارمة والتحطيم الهائل في فترة «الثورة الثقافية» الأضرار الجسيمة التي لحقت بالنفسية الأخلاقية والشعور الأخلاقي لدى الصينيين. وفي «الثورة الثقافية» طفت كل الحثالة الاجتماعية على السطح. وكانت القوى الشريرة لها اليد العليا بعض الوقت، وحظيت الأشياء المغرضة بالثناء والتشجيع، وتعرضت الأشياء الحميدة للإنكار والوطء بالأقدام، مما نجم عنه الاضطراب الكبير الذي شهدته مفاهيم الناس الأخلاقية، وتطورت اللاأخلاقية إلى مستوى خطير جداً. وتحتاج العواقب النفسية الاجتماعية الناجمة عن «الثورة الثقافية» إلى وقت طويل جداً حتى يمكن معالجتها.

وانتشر اتجاه وتيار اللاأخلاقية الفكري إلى حد ما للأسباب المذكورة آنفاً، وسبب فقدان مقياس وفوضى الأخلاق الاجتماعية، ولم يعرقل ذلك الاتجاه والتيار الفكري مسيرة التحديث الاجتماعي والبناء الاقتصادي فحسب، بل امتد تأثيرها إلى تغيير وتجديد الفكر الأخلاقي والشخصية القومية للصينيين، كما أثرا في انتقال الصينيين وتحولهم إلى اتجاه «المعاصرين». ومن ثم، يعد التغلب على الظاهرة اللاأخلاقية والتخلص منها بمنزلة المشكلة التي يتحتم معالجتها بجدية وحلها في عملية إعادة بناء الثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي في الصين الحديثة.

20 الصينيون يواجهون اختيار الأخلاق

يعد تحول الفكر الأخلاقي الذي اجتازه الصينيون في حركة التحديث بمنزلة تقدم أخلاقي من الناحية الجوهرية. ويتشابه ذلك التقدم الأخلاقي مع التقدم التاريخي في المجتمع الصيني والثقافة الصينية. ولكن، كما أشار ماركس على هذا النحو: «مفهوم التقدم لا يمكن أبداً فهمه انطلاقاً من المغزى التجريدي العادي»[1]. ولا يمكن تعزيز أي تقدم بصورة مطردة وبسيطة، ولكن يتحقق ذلك داخل التناقض. والتقدم الأخلاقي عملية متناقضة جداً في داخلها التراجع والخسارة والتشوه والجمود. ولا تطرأ التغييرات في عملية التطور والتقدم الأخلاقي على المفاهيم الجيدة والسيئة فقط، بل يتشابك هذان النقيضان أيضاً. ويصبح «السيىء» عادة «أداة» ودافعا لتطوير المجتمع إلى الأمام، وتبلى الأخلاق الحميدة العريقة تدريجياً لدرجة أنها تندثر. وبعد أن يتغلب الناس على بعض المشاكل الأخلاقية المعينة وإيجاد الحلول لها، فإنهم يواجهون المشاكل الأخلاقية الجديدة التي لم يعرفوها من قبل داخل أنشطتهم الأخلاقية

الاجتماعية والتي تجسد جوهر التقدم الأخلاقي في مسيرة تطور مثل ذلك التناقض. وقياساً إلى وجهة النظر الديالكتيكية التاريخية الماركسية، فإن التناقض في مسيرة التقدم والتطور الأخلاقي لا يمكن اجتنابه فحسب، بل إنه الآلية المحركة الداخلية للتطور والتقدم. إذن، وقياساً إلى وجهة النظر تلك، فإن الوضع الأخلاقي الصعب الذي يواجهه الصينيون في مسيرة تحولات التحديث الصيني يظهر مستوى معين من النزعة اللاأخلاقية: إنها الظاهرة التي لا يمكن تجنبها في مسيرة التقدم الأخلاقي وتعبر عن التناقض في مسيرة التقدم. أو نقول إن تلك النزعة هي الثمن الضروري الذي يدفعه الصينيون مقابل التقدم الأخلاقي وتجديد الفكر الأخلاقي. وعلى الرغم من أن ذلك كله يجسد القيم السلبية، فإنه يشارك في مسيرة التقدم الأخلاقي لدى الصينيين بصورة واقعية ويلعب داخلها الدور المحدد.

ويظهر الصينيون التقدم الأخلاقي داخل مسيرة تحولات التحديث في العديد من المجالات، والذي يعد من أهم خصائصه - في المقام الأول - تحطيم المفاهيم الأخلاقية على الفكر الذاتي والتقدم الاجتماعي. وينأى الفكر الأساسي للأخلاق التقليدية عن هدف قيم التحديث، وكبل الإنسان الصيني داخل شبكة تنظيم المجتمع التقليدي، وكبت تطوره الشامل وتهذيبه الذاتي وأصبح قوة تمنع الصين من تعزيز التحديث. إن انحلال الأخلاق التقليدية جعل الفكر الصيني يظفر بالتحرر العظيم وبدأ الصينيون طريق التقدم الواسع مع طريق التحرر الاجتماعي وإمكان التطور الذاتي، مما جعل القوة الإنتاجية الاجتماعية في الصين تحقق إمكان التطور على أساس جديد. ثانياً، يظهر التقدم الأخلاقي أيضاً في التنمية المطردة لموضوع المعرفة الأخلاقية لدى الصينيين وفي تكوين الوعي الأخلاقي الذاتي واكتمال الوظيفة الأخلاقية يوماً بعد يوم. وفي الوقت ذاته، وسع التقدم الأخلاقي آفاق إمكان الاختيار الأخلاقي والوعي، وعزز الإحساس بالمسؤولية الأخلاقية لدى الفرد. وفي المجتمع التقليدي، يضطلع الناس بالواجب الأخلاقي، ويتمسكون بالمعايير الأخلاقية والامتثال لنظام الدرجات في المجتمع العشائري والعلاقات الإنسانية بصفة خاصة، مما يضعف الوعي الأساسي الذاتي والشعور الفردي ولا تحتاج القيم الذاتية والأخلاق الذاتية الكاملة إلى السعي وراء الشهرة والجاه. وفي الوقت الحاضر، لا تقوم متطلبات

الفرد بتنفيذ الواجب الأخلاقي بصورة بسيطة، بل تطرح وتحقق الهدف الأخلاقي بصورة مستقلة. وقد أصبح تثبيت القيم الأخلاقية والسعي وراءها تعبيراً عن المبادرة الفردية والفكر المستقل يوماً بعد يوم. ثالثاً، كما يظهر تقدم الصينيين الأخلاقي في الأحوال النفسية الأخلاقية التي تم تكوينها بصورة مبدئية وتتلاءم مع تحولات التحديث بصفة عامة. ناهيك عن قوة التحمل النفسية المحددة إزاء تجديد المفاهيم والقيم الأخلاقية وتغييرات الحياة الأخلاقية والقدرة الكبيرة على قبول القيم الجديدة من خلال الأسلوب المتفائل والمتسامح والمفتوح، وعدم العودة إلى أسلوب المكابرة والمحافظة لصيانة القيم الأخلاقية البالية. وقدم ذلك البيئة النفسية الاجتماعية الجيدة للتطور والتقدم الأخلاقي المستمر.

ويتشابه التقدم الأخلاقي للصينيين مع التقدم والتطور الاجتماعي الصيني. ويعد التقدم الأخلاقي أحد جوانب التقدم التاريخي الاجتماعي البشري. ويستخدم القانون الأساسي للتقدم التاريخي الاجتماعي البشري الأسلوب الخاص ليتجسد في القيم الحياتية والثقافية وفي احتياجات التطور الذاتي وأهدافه ويقرر التقدم الأخلاقي في الوقت ذاته أيضاً. وجعلت حركة التحديث التي استمرت أكثر من مائة سنة ملامح الحياة الاجتماعية الصينية تشهد التغييرات الهائلة وقامت بإعادة رسم الصورة النموذجية الكبرى للصينيين الي تشتمل على إعادة تعديل الثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي لدى الصينيين. ولكن، يجتاز الفكر الحديث للصينيين عملية البناء الهيكلي مثل المجتمع والثقافة الصينية اللذين مازالا يعيشان في المرحلة «الانتقالية». ولذلك، كل ما يعبر عنه الفكر الأخلاقي الحديث الآن يحمل في طياته خصائص الانتقالية وغير كامل وليس كافياً. أن تأسيس النظام الكامل للثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي في الصين الحديثة مازال يحتاج إلى عملية طويلة والجهود المضنية الجبارة التي يبذلها الصينيون.

ويعد تأسيس نظام الثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي في الصين بمنزلة الاختيار الأخلاقي الذي يواجهه الصينيون في الوقت الحاضر. وفي المقام الأول، تعد عملية إعادة البناء الأخلاقي عملية اختيارية. ونقطة الانطلاق الأساسية لهذا الاختيار هي طبيعة المرحلة التاريخية لمكانة الصين الحديثة والتمكن من موضوع العصر الأساسي. وتعيش الصين الحديثة الآن في

الفترة التاريخية للتقدم نحو الانتقال إلى التحديث، والموضوع الأساسي لهذه الفترة هو التحديث الاجتماعي الشامل. ولذا، يجب على الصينيين دائماً التمكن من الموضوع الأساسي لهذا العصر واتجاه التطور التاريخي وتثبيت أهداف قيم التحديث عند ممارسة الاختيار الأخلاقي وإعادة بناء الثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي. وتتماثل الثقافة الأخلاقية التي يسعى الصينيون إلى تأسيسها مع أهداف قيم التحديث وتتلاءم معه وتستطيع أن تلعب دور الدفاع الإيجابي للتحديث، وتكون قادرة على تجسيد موضوعه الفكري الأساسي والفكر الأخلاقي لاتجاه تطور الصينيين المعاصرين. وتختلف تلك الثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي - من حيث الجوهر - اختلافاً كاملاً عن الثقافة الأخلاقية والتقليدية والفكر الأخلاقي التقليدي، كما تتسم بالشكل والمضمون الجديدين. ويحقق تأسيس تلك الثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي انتقال الصينيين من «التقليديين» إلى «المعاصرين» ويصور أحد الجوانب المهمة والنموذجية في الفكر الثقافي والشخصية القومية في الصين الحديثة.

إن تأسيس الثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي في الصين الحديثة يجب أن يؤكد بشدة على أهداف قيم التحديث وينصاع لاتجاه التطور التاريخي للتحديث الاجتماعي. ولكن، لا يتولد مثل ذلك التأسيس من فراغ ولا ينتهج أسلوب العدمية إزاء التوارث الأخلاقي من الناحية التاريخية. وتعد الثقافة الأخلاقية نوعاً من إبداع الأنشطة الفكرية للبشرية، بمعنى أنها تشتمل على المحتوى الذي يجسد خصائص عصرها، وموضوع البشرية الذي يتجاوز العصر. ومن ثم، يتسم التطور الأخلاقي بالاستمرار التاريخي. ولذلك يجب عند إنشاء الثقافة الأخلاقية في الصين الحديثة إجراء التنظيم الجاد للعوامل الإيجابية داخل الثقافة الأخلاقية التقليدية والتي تسهم في التحديث، وتحقق «تعديل قيم» التحديث ومنح الحياة الجديدة لتوارث الثقافة الأخلاقية التقليدية وجعلها جزءاً آلياً وبناءً في الثقافة الصينية الحديثة والفكر الأخلاقي للصينيين المعاصرين. وفي ضوء مقياس قيم التحديث، يعد تنظيم توارث التقاليد واستمرارها من الموضوعات المهمة لأنشطة اختيار الأخلاق لدى الصينيين في الوقت الحاضر.

ويتم إجراء الاختيار الأخلاقي داخل البيئة الأخلاقية المحددة والعلاقات

الأخلاقية، وفي الواقع، يعد الاختيار الأخلاقي بمنزلة الاختيار الذي يتم إنجازه في ضوء البيئة الأخلاقية المحددة والعلاقات الأخلاقية. وتسهم البيئة الاجتماعة الجيدة في قيام الناس بالاختيار الأخلاقي الصحيح ورفع المستوى الأخلاقي في المجتمع قاطبة. كما أن البيئة الاجتماعية السيئة تعيق قيام الناس بالاختيار الأخلاقي الصحيح. وكما أشار بول لافارج Poul Lafargue ، الذي يعد من أوائل الفرنسيين الماركسيين، على النحو التالي:

«يعيش الناس في البيئة المزدوجة: في بيئة الكون أو البيئة الطبيعية، وفي البيئة الاقتصادية أو البيئة الصناعية، التي أوجدوها بأنفسهم ويقررون التأثير المشترك ورد فعل هاتين البيئتين تطور الإنسان والمجتمع البشري».

«إن تغيير الناس إلى الأفضل يحتاج إلى تعديل بيئة حياتهم. ويصنع الإنسان بنفسه بيئته الاجتماعية الذاتية، ولكنها تعد من الأعمال البيئة الأدبية. وعندما تتغير البيئة، يتغير أسلوب الإنسان وعاداته ومشاعره وأحاسيسه في آن واحد»[2].

ولذلك، يعد منح الأفضلية للبيئة االجتماعية التي قام الصينيون بإعادة بنائها (أو اختيارها) من الجوانب المهمة جداً عند قيام الصينيين بتأسيس الثقافة الأخلاقية في الصين الحديثة من جديد، مما يجعل البيئة الاجتماعية تسهم في تحقيق أهداف قيم التحديث وتساعد الصينيين في التطور تجاه «المعاصرين». ومن ناحية أخرى، إن تشكيل الجو الأخلاقي الاجتماعي الجيد وتحقيق الانسجام الذي يتناسب مع الحياة الحديثة، والنظام الأخلاقي المستقر، وتكوين الأحوال النفسية الأخلاقية الاجتماعية السليمة يجعل المجتمع كله يشكل نوعاً ما من البيئة الأخلاقية المتمدينة والسليمة والمتقدمة والجو النفسي الثقافي. ويعد ذلك من أهداف قيام الصينيين بإعادة البناء والاختيار الأخلاقي. إن الإنسان نتاج البيئة وتعتمد خاصيته المميزة والجوهرية على البيئة التي يعيش فيها. ولكن، في الوقت نفسه يستطيع الإنسان تعديل البيئة من خلال الأنشطة الأساسية الإيجابية، ويجعلها بيئة تسهم في التطور الشامل والكمال الذاتي لديه.

إن الاختيار الأخلاقي هو الشكل المحدد لأنشطة الإنسان الصيني المعقولة. وشروط الاختيار الأخلاقي هي: أن تطرح الأحوال الموضوعية احتمالات متنوعة وعملية ويجب على الموضوع الأساسي أن يقرر انتهاج

احتمال واحد داخل الاختيار ونبذ الاحتمالات الأخرى. وعززت تحولات التحديث الانتقال الاجتماعي ومستوى الانفتاح، ووسعت آفاق رؤية الإنسان الصيني ومجال أنشطته توسعاً كبيراً. وفي الوقت ذاته، وسعت مجال إمكان الاختيار الأخلاقي وجسدت للناس احتمالات التطور المتنوعة أيضاً. إذن، كيف يمكن إجراء أفضل اختيار وسط الاحتمالات المتنوعة وجعل اختيار الصينيين ينصاع دائماً لهدف قيم التحديث ويتلاءم معه ويسهم فيه. إن الحل يكمن في تعزيز قدرة الاختيار الأخلاقي لدى الصينيين. ويتطلب تعزيز قدرة الاختيار الأخلاقي تنمية الخصائص السيكولوجية الثقافية لدى الشعب بأسره والفهم الشامل لأهداف قيم التحديث وقبولها، وتحقيق تجديد المفاهيم الأخلاقية الشاملة، وتقوية الوعي الأساسي للشعب والوعي الذاتي. ويعد تأسيس الثقافة الأخلاقية في الصين الحديثة وتصور فكر الصينيين الأخلاقي من جديد بمنزلة قضية الأمة الصينية كلها. كما يجب تعبئة الأمة للمشاركة الواسعة النطاق وتنشيطها في اكتشاف طرق جديدة للشجاعة والجرأة والإرادة، والقيام بالاكتشافات والإبداعات المتواصلة والإيجابية. إن الافتقار إلى التعبئة الاجتماعية الواسعة النطاق والمشاركة الشعبية يقودنا إلى القول بعدم إنجاز تجديد الفكر الأخلاقي والشعور الذاتي لإعادة بناء الثقافة الأخلاقية بصورة شاملة، وإن مهمة تأسيس الثقافة الأخلاقية لا يمكن إنجازها إنجازاً كاملاً في الصين الحديثة.

الهوامش

(1) «الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز»، المجلد 46، الجزء الأول، ص 47.[بالصينية].
(2) «مختارات بول لافارج الأدبية»، الجزء الأول، ص 168 , 364. [بالصينية].

الباب السادس
الرؤية المركبة
عند الصينيين المعاصرين

21 أسلوب التفكير عند الصينيين التقليديين

إن تأثير تحولات التحديث في الصينيين شامل، ولم تقم حركة التحديث الصيني في القرن العشرين بتغيير الأحوال النفسية الثقافية ومفاهيم القيم وعالم المعاني والفكر الأخلاقي لدى الصينيين تغييرا كبيرا فحسب، بل جعلت أسلوب تفكيرهم يشهد التغيير الهائل أيضا. وفي الواقع، يعد تغيير أسلوب التفكير أهم تغيير يجتازه الصينيون في القرن العشرين.

ونقول بصفة عامة، إن ما يطلق عليه أسلوب التفكير العميق أو مايسمى بـ «أسلوب التفكير» هو-حسب مصدره-الأسلوب الاجتماعي العملي الذي يقوم الموضوع التاريخي بتعميمه في داخل الإنسان. وتتوقف خصائص ذلك الأسلوب ودوره ومصيره على العملية التاريخية التي يعتمد عليها في البقاء، ولا يشير أسلوب التفكير إلى مظاهر الفكر وأشكاله، بل يتوافق مع أهداف الأنشطة العملية وموضوع التفكير وطريقته والوحدة الكلية للهيكل والوظيفة في كل عصر. كما أن الأسلوب الفكري هو الأسلوب الشامل للتفكير الذي تحدده مجموعة من المفاهيم

الأساسية وتقيده وتضفي عليه الطابع النموذجي، بالإضافة إلى أنه الوحدة الكلية لأشكال الأنشطة الفكرية المتميزة وطريقتها ونظامها. ويتمتع أسلوب التفكير بالمغزى المهم داخل أنشطة البشر، وشكل الناس معرفة العالم الخارجي من خلال أسلوب التفكير العميق الخاص بهم، وتتوقف ماهية الإنسان ومغزى القيم التي يتحلى بها في العالم الخارجي على ماهية «رؤيته» وماهية «الأساس» الذي تعتمد عليه طريقة معرفته وأسلوبها في التفكير والفهم والتفسير. ويقرر الناس وجهة نظرهم الذاتية إلى الكون والحياة والقيم، وعلاقتهم وروابطهم مع العالم الخارجي، وموضوع أنشطتهم العملية الذاتية وأشكالها في ضوء «رؤيتهم» إلى العالم، وحسسب تفكيرهم الذاتي تجاه العالم الخارجي وفهمه وتفسيره.

ويتمتع أسلوب التفكير بالطابع القومي والعصري، وتوجد في العصور التاريخية المتباينة أساليب التفكير المختلفة. كما توجد العديد من الموضوعات المختلفة في أساليب التفكير بين الأمم المختلفة من جراء البيئة الحياتية والتقاليد الثقافية والشخصية القومية وغيرها من مجالات التباين، وعلى سبيل المثال، توجد العديد من الاختلافات البارزة في أسلوب تفكير الصينيين والدول الغربية. وفي الحقيقة، يوجد الكثير من المجالات التي تجسد أو يرجع مصدرها إلى الصدام في أساليب التفكير المختلفة منذ حدوث الصدام بين الثقافة الصينية والغربية في العصر الحديث. ويتسم الصينيون والغربيون بالمعرفه المختلفة، و«رؤيتهم» إزاء العالم الخارجي متباينة أيضا. ولذلك، تختلف مفاهيمهم ا ألثقافية اختلافا كبيرا، وقد ذكر لينغ يوي تانغ في دراسته حول الاختلاف في أسلوب التفكير الصيني والغربي:

«تهتم الصين بالتطبيق والغرب بالاستنتاج، تهتم الصين بالمشاعر والروابط الوثيقة، ويهتم الغربيون بالمنطق. تهتم الفلسفة الصينية بالاعتماد على النفس والراحة والطمأنينة، ويهتم الغربيون بالفهم الموضوعي والتشريح. يهتم الغربيون بالتحليل، وتهتم الصين بالحدس، يهتم الغربيون بالسعي وراء المعرفة والبحث عن الحقيقة الموضوعية. ويهتم الصينيون بالسعي وراء الطرق المنهجية ويبحثون عن الطرق العملية، ويرجع ذلك كله إلى الاختلاف في أساليب التفكير»[1].

ويرتبط أسلوب تفكير الصينيين التقليديين بأسلوب إنتاجهم وطريقة

حياتهم ارتباطا وثيقا. وفي المجتمع التقليدي الصيني، كان أسلوب إنتاج الناس الأسالسي هو الاقتصاد الطبيعي الذي يتمحور على الزراعة التقليدية، والأسرة هي الوحدة الإنتاجية الرئيسية. إن مثل أسلوب الإنتاج ذلك ربط الناس بالأرض ارتباطا وثيقا وفرض عليهم القيود داخل شبكة رابطة الدم والرحم العشائرية. كما جعل مجال رؤية الناس تتعرض للقيود الضخمة من جراء تخلف المواصلات والاتصالات والانتقال الاجتماعي آنذاك. ويحمل أسلوب التفكير التقليدي الصيني في طياته الطابع البارز للاقتصاد الطبيعي وصغار المنتجين، ويمكن تقسيمه بصفة عامة إلى مستويين رئيسيين باعتباره أسلوب التفكير الاجتماعي. والمستويان الرئيسيان هما: الأول مستوى التفكير النظري الذي يهدف إلى التمكن من المفاهيم التي يكونها الناس ويستخدمونها والتي ترتبط بعلاقات وثيقة متبادلة مع وجهة نظرهم إلى الكون والطبيعة والتاريخ. ويعد ذلك المستوى المرتفع نسبيا من التنظيم والتنظير. والمستوى الثاني هو المستوى المتدني نسبيا الذي يرتبط بصلة متبادلة مع خبرة الناس في الحياة العادية ويظهر في أسلوب التفكير والاهتمام والميول، ويعني ذلك أسلوب التفكير الدنيوي أو العادي. والمستويان المذكوران آنفا ليسا منفصلين تماما في أسلوب التفكير التقليدي الصيني، وأوضاعهما الأساسية غالبا هي أسلوب التفكير النظري الذي يتضمن أسلوب التفكير الدنيوي. ويظهر هذان المستويان من خلال أسلوب التفكير الدنيوي الذي يتضمن أسلوب التفكير النظري ويتعرض لقيوده وتوجيهاته.

ويتحلى أسلوب التفكير التقليدى الصيني بالاتجاهين الرئيسيين، وهما «الشمولية والبديهية» إن مايسمى بـ «الشمولية» هو أن الصينيين يميلون إلى أسلوب الإدراك الشامل ونزعة التفكير الكلي، وتشكل المحاولة العامة للمعرفة الوحدة الكلية وتجعل كل جانب من جوانب المعرفة بلغ أعلى مستوى من الإدراك يحقق الوضع المنسجم، وقد أشار تشانغ داي نيان إلى أنه:

«ما يطلق عليه الاهتمام بالشمولية هو تأكيد مراقبة الأشياء من منظور الزاوية الموحدة. ويعد تأكيد شمولية الكون وعمليته من الخصائص المهمة لوجهة النظر إلى المبادئ السماوية في الفلسفة التقليديه الصينية، وأصبحت وجهة النظر تلك هي التفكير الشامل من جراء استخدامها في الميثودولوجيا (علم المنهج)».

وجاء في كتاب «تغييرشوي الكبير»: إن الحكماء يتسمون بالقدرة على إدراك شممولية الأشياء في الكون من خلال النظر إلى تحركاتها ويتأكد ذلك من خلالى منظور الزاوية الموحدة لتباين الأشياء وتناقضها حيث يتم الحصول على الشمولية أو بعبارة قالها وانغ بي[2] إنه تتم معرفة الأشياء من خلال النظر إلى اختلافها والحصول على الشمولية من خلال النظر إلى تناقضها»[3].

إن الشمولية هي أسلوب تفكير الصينيين «التقليديين». إن مثل ذلك النوع من أسلوب التفكير يتخذ من المبادئ الكلية نقطة الانطلاق، أو يتخذ من الوحدة الكلية مقياسا ويقوم بالتأكيد السمعي والبصري لهدف الأشياء المدركة بالحواس. وعلى سبيل المثال، تؤكد النظرية السلبية-الإيجابية للعناصر الخمسة[4] على علاقات الأشياء المألوفة وشمولية الكون من خلال القدرة على الشعور السمعي والبصري للأشياء، وتتسم هذه النظرية بالتأثير العميق في الثقافة والأيديولوجية والعلوم والتقنية في العصور الصينية القديمة. وتم دمج علم الفلك والطب والكيمياء والفيزياء في تلك العصور في نموذج تكوين النظرية السلبية-الإيجابية للعناصر الخمسة. وبسبب تلك الشمولية، لا يعير الصينيون-بصفة عامة-اهتماما كبيرا بالتفاصيل المحددة عندما يفكرون، وينقصهم أسلوب الدراسة التحليلي وتقديم الأدلة الواقعيه، ولا يسعون وراء التدقيق، ولا يكترثون بالزمن والأرقام. كما يتسمون بالغموض والإجهام، ويركزون على القيام بالتركيب الشامل للظواهر، ويعد مثل أسلوب التفكير ذاك الذي يتسم بالمغزى الإيجابي انعكاسا لمستوى تطور العلوم والمستوى العملي للناس وقتئذ، والوحدة الكلية التي تمكن الناس من هدف معرفتهم، وفهم الروابط المشتركة لتلك الوحدة، وبالضبط كما ذكر إنجلز في دراسته للفلسفة الإغريقية على النحو التالي:

«يعتبر الإغريق العالم الخارجي وحدة شاملة وينظرون إليه من المنظور الشامل لأنهم مازالوا لم يحرزوا التقدم في تشريح العالم الطبيعي وتحليله، ولم تحصل الروابط الكلية للظواهر الطبيعية على الأدلة التفصيلية، وتعد تلك الروابط بمنزلة النتيجة المباشرة السمعية والبصرية بالنسبة للإغريق»[5].

وقد أطلق إنجلز على أسلوب التفكير الشامل لقب «وجهة النظر البدائية

والبسيطة إلى العالم، وتعد هذه التسمية صحيحة من الناحية الواقعية»[6]. وبالطبع، تتناسب هذه المقولة مع أسلوب التفكير في الشمولية التقليدية الصينية. ولكن العصور الصينية القديمة-مثل الإغريق-«لم تحرز التقدم في تشريح العالم الطبيعي وتحليله»، ولذلك توقف التفكير في العلاقات التي تربط العالم بصورة مشتركة في المستوى العام التجريدي. و«(يتصف التفكير التقليدي الصيني بالنقص الكبير من جراء افتقاره إلى أساليب التحليل الكاملة. ويظهر هذا النقص في المقولات، بمعنى أن مقولات الفلسفة الصينية تتسم بالخصائص المميزة من الكلية والشمولية، وتتسم العديد من المقولات الأخرى بمغزى الأنطولوجيا، كما تتحلى بالمغزى الأخلاقي أيضا. ويمكن تمييز هذين المغزيين، ويصعب التفريق بينهما أيضا»[7].

ويتمسك الصينيون بالحدسية في أسلوب المعرفة بسبب الشمولية، وليس المنطق كما هي الحال عند الغربيين. ويكمن الموضوع الأساسي لمعرفة الأشياء المدركة بالحواس في الفهم والإدراك، وليس في التمكن الواضح من المنطق، ويعد الحدس نوعا من قدرة الإنسان على المعرفة ولا يتعرض لقيود القواعد المنطقية، ويقدم التمييز السريع والفهم المباشر والتقييم الشامل لجوهر الأشياء المدركة بالحواس وصفاتها المميزة وروابطها القانونية. ويعد الحدس نوعا من أساليب التفكير ويتناظر مع التحليل الفكري، ويلتزم التحليل الفكري بالقواعد المنطقية الصارمة ويحلل الموضوعات في المستويات المتباينة من خلال الاستنتاج التدريجي بانتظام، ويستخدم اللغة في التعبير الواضح عن عملية التفكير وأسباب التوصل إلى الاستنتاج. ولكن التفكير الحدسي لا يجتاز الاستنتاج المنطقي الصارم ويتوصل إلى الاستنتاج مباشرة، ولا يستطيع الموضوع الأساسي لمعرفة الأشياء المدركة بالحواس أن يدرك عملية التفكير الحدسي بصورة واضحة ولا يستخدم اللغة في التعبير الواضح عن تلك العملية وأسباب الاستنتاج. ولكن كما أشار لينغ يوي تانغ إلى أن: «الحدس ليسى قرارا اعتباطيا فارغا، ودقته عرضة للخطر فقط. ويمكن الشعور بالحدس، ولكن يصعب شرحه بالكلام. والحدس له منهج، إنه المنهج التحليلي غير المستقر من ذي النظرة وحيدة الجانب، ويستطيع النظر إلى الوضع العام نظرة موحدة، ويتوصل إلى الاستنتاج منفردا»[8]. ويتمتع أسلوب التفكير هذا في المجتمع التقليدى الصيني بالتأثير العظيم وأصبح نوعا من أساليب

التفكير المألوفة. وعلى سبيل المثال، فكرة «الاندماج بين الإنسان والطبيعة» في العصور الصينية القديمة لا يمكن تحديد أسمى أهدافها ومفهومها الفني من خلال المفهوم اللغوي. ولكن يمكن الاعتماد على اتجاه قيم الموضوع الأساسي لمعرفة الأشياء المدركة بالحواس داخل نطاق الإدراك وخبرة المعرفة.

وكان مونفوشيوس[9] يدعو إلى أعمال الخير ومعرفة طبيعة البشر ومعرفة السماء، وكان يتسم بالروح العالية وأسلوب الشهامة البالغة والصرامة بينما كان يقول تشونفوشيوس[10]: «أوجد مع السماء والأرض، وأنا والكائنات وحدة واحدة». ويتسم ذلك كله بالمغزى المبهم ويتم إدراكه بالحسد لا بالتحليل النظري المنطقي. لذلك كان الفلاسفة الصينيون يقدرون ويهتمون بأسلوب الحدس. وكان تشونفوشيوس ينتهج مذهب «طريق الذات» أي ممارسة المعرفة المباشرة لمغزى الطاوية وهي معرفة فوق الشعور والتفكير لا تقبل النقاش والكلام، كما أنها معرفة حسية تأملية خفية. ويقول تشانغ تساية[11] إنه تتم معرفة الكائنات بإدراك الذات من خلال وظيفة القلب الكبرى. ويقول تشوشي[12] إن الذات هي مركز وظيفة القلب وسط الكائنات. ويشير ذلك كله إلى مثل أسلوب الحدس المباشر ذاك عند التفكير والتأمل.

ولا يستخدم الصينيون في الاستنتاج التحليل كثيرا بسبب الشمولية والحدسية. ولكن يؤثرون استخدام أشكال قياس التمثيل لأنه Analogy. وفي العصور الصينية القديمة، استخدم الكثيرون طريقة قياس التمثيل التي تحمل في طياتها طابع المقارنة للظواهر البارزة. كما استخدم الرمز وطريقة التشبيه على نطاق واسع وأصبحا من أشكال التفكير المحدد ذي التأثير الواسع والعميق. واستخدم المفكرون الصينيون القدامى الجمل التي على غرار الحكم كثيرا، والعديد من قياس التمثيل والرمز والتشبيه للقيام بالتنظير والشرح. إنها الأشكال النظرية من قياس التمثيل والرمز والتشبيه التي يمكن رؤيتها في كل مكان داخل الحياة اليومية العادية.

إن أسلوب التفكير التقليدي الصيني هو نتاج أسلوب الإنتاج وطريقة الحياة في المجتمع التقليدي، وانعكاس لمستوى الأنشطة العملية لدى الصينيين آنذاك، ويبين أسلوب التفكير ذاك محاولة المعرفة الخاصة للصينيين وجعلهم يحصلون على الفهم الخاص والتفسير تجاه العالم الخارجي وعلاقتهم الذاتية. لقد تمكن الصينيون من مغزى قيم العالم

الخارجي ومنحوا أنشطتهم الحياتية الذاتية مغزى القيم من خلال اجتياز أسلوب التفكير ذاك. ومن ثم، يتسم أسلوب التفكير التقليدي وأسلوب الإنتاج والحياة في المجتمع التقليدي، ووجهة النظر إلى القيم في النظام الثقافي التقليدي وعالم المعاني بالوحدة العضوية، ويلعب أسلوب التفكير بالنجاح والفاعلية داخل نطاق المجتمع التقليدي والثقافة التقليدية. ولكن قياسا إلى وجهة النظر الحالية، يتسم أسلوب التفكير هذا بمحدودية العصر والعيوب الكبيرة، وذلك كما ذكر تشانغ واي نيان على النحو التالي:

«يفتقر الصينيون إلى تحليل الأشياء ودراستها بسبب الاهتمام بالتفكير الشامل، ويغفلون أهمية الأدلة الدقيقة والمحكمة من جراء الإشادة بالحدس. وفي التقاليد الصينية لم يتم ابتكار النظام الكامل لعلم الجبر والهندسة الأوروبي، ولا النظام الدقيق لمنطق أرسطو الشكلي، وفي العصر القديم الأخير، لم تعرف الصين أيضا أسلوب تفكير علم الميتافيزيقا المزدهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر في الغرب، ولا طريقة الأدلة الواقعية العلمية التي بدأها جاليليو، ويجب أن نعترف بأن ذلك هو العيب الكبير في أسلوب التفكير التقليدي الصيني»[13].

ولم يستطع أسلوب التفكير التقليدي الصيني تنمية العلوم الحديثة، بل أعاق ازدهارها أيضا. وتوضح هذه الأحوال أن أسلوب التفكير هذا لا يتلاءم مع الفكر الرئيسي للعلوم الحديثة، لذلك ومنذ العصر الحديث، نجم عن أسلوب التفكير التقليدي الصيني دور الإقصاء الضخم لنشر العلوم والتكنولوجيا الحديثة في الصين، وأصبح عقبة وقاوم قبول الصينيين للعلوم وقيامهم بتطويرها. وليس ذلك فحسب، بل إن تطوير العلوم الحديثة يعد بمنزلة الموضوع الرئيسي في حركة التحديث. كما اصطدم أسلوب التفكير التقليدي بحركة التحديث، ولذلك يتحتم-ويجب أيضا-على أسلوب تفكير الصينيين أن يشهد اللاإصلاح الجذري داخل التيار التاريخي لتحولات التحديث الصيني.

الهوامش

(1) انظر «نظرية لينغ يوي تانغ حول الثقافة الصينية والغربية» تحرير: وان بينغ، دار معهد العلوم الاجتماعية للنشر في شنغهاي، طبعة عام 1989، ص 49-50.

(2) وانغ بي (226-249): من أشهر فلاسفة مذهب شيوانشيوي أحد المذاهب الفلسفية في الصين القديمة (المترجم).

(3) تشانغ داي نيان، تشانغ إي شان «الثقافة الصينية والمناظرة الثقافية»، دار جامعة الشعب الصيني للنشر، طبعة عام 1990، ص 219.

(4) العناصر الخمسة في النظرية السلبية-الإيجابية الصينية هي: المعدن، الخشب، الماء، النار والتراب (المترجم).

(5) «مختارات ماركس وإنجلز»، المجلد الثالث، ص 468 (بالصينية).

(6) «مختارات ماركس وإنجلز»، المجلد الثالث، ص 60 (بالصينية).

(7) تشانغ داي نيان، تشانغ إي شان، «الثقافة الصينية والمناظرة الثقافية»، دار جامعة الشعب الصيني، طبعة عام 1990، ص 220.

(8) المصدر نفسه رقم (1) ص 51.

(9) مونفوشيوس (372 ق. م-289 ق. م): فيلسوف ومفكر صيني عظيم يعتبرالمعلم الثاني بعد كونفوشيوس الذي يطلق عليه المعلم الأول (المترجم).

(10) تشونفوشيوس (369 ق. م-286 ق. م): فيلسوف ومفكر صيني قديم (المترجم).

(11) تشانغ تاي: أديب صيني قديم غير معروف تاريخ الميلاد والوفاة، عاش في عصر أسرة جين الغربية (265-420) (المراجع).

(12) تشوشي (1130-1200): فيلسوف وأديب صيني شهير (المراجع).

(13) تشانغ داي نيان: «الثقافة والفلسفة»، دار التربية والعلوم للنشر، طبعة عام 1988، ص 208.

22 التحديث وتطوير رؤية الصينيين

تغير أسلوب تفكير الصينيين بصورة تدريجية في عملية تحديث الثقافة الصينية الاجتماعية، وفي هذه العملية، وصل تطور القوة الإنتاجية إلى مستوى جديد، وغيرت طريقة الإنتاج الجديدة العلاقة بين الإنسان والعالم الطبيعي، وتبدل مفهومه تجاه ذلك العالم، ووطدت المواصلات الحديثة والاتصالات والتليفزيون وغيرها العلاقة بين الإنسان والعالم الخارجي ووسعت آفاقه، وتحطم هيكل التنظيم الاجتماعي التقليدي وزادت إمكان الانتقال الاجتماعي. وقامت هذه التغييرات بتنمية مجالات أنشطة الناس وتوسيع نطاقها بصورة كبيرة، ومنحت أنشطتهم العملية المضمون والشكل اللذين يختلفان عن المجتمع التقليدي، وفي الوقت ذاته، وسعت هذه التغييرات أيضا مجال رؤية الناس. ولذا، كان لها تأثير عظيم في أسلوب تفكيرهم.

وكانت طريقة الإنتاج الزراعي في الاقتصاد الطبيعي أساس أسلوب التفكير التقليدي الصيني. وتكمن خصائص الاقتصاد الطبيعي في أن الأنشطة الإنتاجية للناس تتعرض لتأثير وسيطرة الفصول

الأربعة ومتغيراتها والطقس المعاكس للمواسم وغيرها من العوامل الطبيعية الأخرى، كما يتعرض الناس لسيطرة العالم الطبيعي بصورة سلبية، وقدرتهم وإمكاناتهم على التأثير في العالم الطبيعي وتغييره محدودة للغاية. ومن ناحية أخرى، ربطت القوة الإنتاجية الزراعية الناس بالأرض ارتباطا وثيقا، وحصرت مجال رؤيتهم حصرا شديدا. وجسد العالم الطبيعي أمام الناس الشمولية الأبدية والقوة السحرية الضخمة، ويعد تحطيم تلك الطريقة الإنتاجية الزراعية التقليدية وتطوير الصناعة الكبرى الحديثة من أهم محتويات حركة التحديث. إن المضمون الاجتماعي لتحولات التحديث يعني الانتقال من المجتمع الزراعي التقليدي إلى المجتمع الصناعي الحديث، ويعد تحقيق التصنيع بمنزلة تغيير الطريقة الإنتاجية في المجتمع قاطبة وثورة كبيرة في تحرير القوة الإنتاجية الاجتماعية. والصناعة الكبرى الحديثة هي أسلوب إنتاج جديد يختلف تماما عن الزراعة التقليدية، ولا تعد الصناعات الكبرى الحديثة مجرد الأنشطة الإنتاجية في ظل أحوال تغيير مضمون الإنتاج وأدواته وعمليته فحسب، بل إنها أيضا الأنشطة الإنتاجية في ظل تعديل العلاقة بين الإنسان والعالم الطبيعي. وقد غيرت الصناعات الكبرى الحديثة مضمون أنشطة الناس العملية وشكلها تغيرا كاملا، وفي الوقت نفسه، غيرت أسلوب ومفهوم الناس تجاه العالم الطبيعي أيضا. ولم يعد الإنسان سلبيا وعبدا يتعرض لقوة هيمنة العالم الطبيعي وسيطرته، بل أصبح سيدا يقهره ويسيطر عليه ويتحكم فيه. وقامت هذه التغييرات بتعديل «صورة العالم» لدى الناس بصورة كاملة. ولذلك تغير أسلوب التفكير الرئيسي للناس أيضا. وكما ذكر إنجلز: «إن ذكاء الإنسان يتطور حسب معرفته بالتغييرات الطبيعية»، وأشار إلى أن:

«تطوير الصناعة يوما بعد يوم جعل كل العلاقات التقليدية تصطبغ بالطابع الثوري الذي يحث على ثورية العقل»[1].

ولا تكمن أهمية التصنيع في تغيير الطريقة الإنتاجية الاجتماعية لدى الناس فحسب، بل تكمن أيضا في تعديل أسلوب أنشطتهم الاجتماعية وطريقة حياتهم بصورة أساسية، والزراعة التقليدية هي نوع من الاقتصاد الطبيعي القائم على التموين الذاتي والاكتفاء الذاتي بصورة رئيسية. وتتألف الوحدة الإنتاجية من البيت والأسرة. وفي ضوء هذه الأحوال، كانت علاقات

الناس الاجتماعية بسيطة نسبيا، ومجال أنشطتهم محصورا بين الأسرة والأرض بصورة أساسية، وعلاقة الجوار بين القرى الطبيعية وعلاقات الأقارب هي النطاق الرئيسي للتبادلات الاجتماعية بين الناس، وهناك الكثيرون من المزارعين الصينيين الذين لم يتركوا قراهم التي يقطنونها جيلا بعد جيل طوال حياتهم. وإذا استطاعوا زيارة المدينة والمحافظة مرة واحدة، فإن ذلك يجعلهم يشعرون بالغبطة كأنهم كانوا في رحلة سفر طويلة. ولكن قامت الصناعات الكبرى الحديثة بتنظيم الألوف المؤلفة من البشر داخل المصنع الكبير ووزعت العمل المتخصص جدا والإنتاج التعاوني، مما جعل العمل في حد ذاته يتسم بالطابع الاجتماعي الكبير وأقامت كل المؤسسات والتخصصات وأقسام الإنتاج علاقات وثيقة فيما بينها، وفي ظل أحوال الأنشطة الإنتاجية تلك، لم يعد انتماء الناس إلى رابطة الدم وقرابة الرحم في العشيرة أو الأسرة، بل أصبح لشبكة التنظيم الاجتماعي الأكثر اتساعا. وباختصار، ومع تغييرات أسلوب إنتاجية العمل، شهدت طريقة التبادلات بين الناس التغييرات الهائلة، كما أن نطاق تبادلات العلاقات الإنسانية ومضمونها وشكلها اختلف اختلافا كبيرا عما كان عليه في الماضي، وحطم ذلك مجال رؤية الناس الضيقة التي كونوها في ظل أحوال الزراعة التقليدية، ومنحهم ذلك فرصة لفهم الحياة الاجتماعية واسعة النطاق.

ومن ناحية أخرى، ساعد التصنيع والتحديث الاجتماعي على تعزيز الانتقال الاجتماعي وإمكاناته. وحطم الانتقال الاجتماعي أوضاع فئة معينة، والمكانة الاجتماعية التي اعتمد عليها بعض أفراد المجتمع لفترة طويلة. كما حطم أسلوب الحياة من الانغلاق والمحافظة حيث كان الناس «يسمعون أصوات الطيور والكلاب فيما بينهم، وحياة الشعب لا تعرف الاتصالات المتبادلة حتى الموت». إن الانتقال الاجتماعي جعل الناس يتمتعون بفرصة الاحتكاك بالأشياء والأفكار والمفاهيم الجديدة وفهمها ومعرفتها، بعد أن كانوا يعيشون في عزلة عنهم أصلا، وخاصة أن انتقال أعداد غفيرة من سكان الأرياف إلى المدن كان يتسم بالأهمية الخاصة من التأثير في أسلوب تفكير الناس، ويعد التمدين نوعا من الظواهر المصاحبة للتصنيع والتحديث الاجتماعي، ومع تطور التصنيع، من المؤكد أن تنتقل أعداد هائلة من القوى العاملة الزراعية إلى مجال الصناعة، ويؤدي ذلك إلى تمركز السكان في

المدن. إن مضمون الحياة الثري وكثافة السكان وإيقاع الحياة السريع والمستوى المرتفع نسبيا من العلوم والتربية والثقافة في المدن وغيرها يغير قوة تأثر الناس بالعالم الخارجي وأسلوب معرفتهم به إلى حد كبير، بالإضافة إلى تغيير مجال «رؤية» الناس وأسلوب تفكيرهم.

وتعد المواصلات الحديثة والاتصالات ووسائل النشر الجماهيرية أكبر مؤثر داخل حركة التحديث لتطوير رؤية الناس وتغيير أسلوب تفكيرهم. وقد ربطت المواصلات الحديثة والاتصالات ووسائل النشر العالم وجعلته وحدة واحدة، وعززت إمكان قيام تبادل وترابط بين الناس بصورة كبيرة، وتطوير وسائل النشر الجماهيرية، وخاصة انتشار التليفزيون وإذاعة أقدار هائلة من الأخبار يوميا، جعلهم يستطيعون فهم الأحوال التي تحدث في كلى بقاع العالم بسرعة وفي الوقت المناسب. وقد غيرت نوعية المعلومات وكميتها وطبيعتها التي تذيعها وسائل النشر الجماهيرية حياة الناس وعلاقتهم إلى حد كبير. كما كان للتبادل والصدام بين الثقافة الصينية والغربية منذ العصر الحديث تأثير مهم في أسلوب تفكير الصينيين. وفي المجتمع التقليدي الصيني، كان الناس يعيشون دائما داخل النظام الثقافي الموحد والمستقر والمغلق. وعلى الرغم من اتصال ذلك النظام المستمر بالتبادل الثقافي مع الدول الأجنبية، فإن ذلك لم يجعل الثقافة الصينية التقليدية تشهد التغيير الهيكلي. بل كان انتشار الثقافة الغربية منذ العصر الحديث يتسم بالطبيعة المختلفة. وفي الحقيقة، كان انتشار الثقافة الغربية بمنزلة صدام بين الحضارة الصناعية والحضارة الزراعية، مما عجل بتفكك المجتمع الصيني التقليدي والنظام الثقافي التقليدي. ومنذ العصر الحديث، انتشرت في الصين العلوم والتكنولوجيا المتقدمة الغربية ونتائجها المادية والمفاهيم الثقافية الأيديولوجية الغربية وأسلوب الإنتاج، وفي عشر السنوات الأخيرة وأكثر، طبقت الصين سياسة الانفتاح الشامل على العالم الخارجي، مما جعل الصينيين لديهم فرصة الاحتكاك بالثقافة العالمية وفهمها بصورة أكبر، ناهيك عن فرصة استيعاب كل النتائج الممتازة للتمدين البشري في أوسع نطاق. إن الانفتاح والتبادل ساعدا على تطوير رؤية الصينيين تطويرا كبيرا، وتعزيز وعيهم العالمي وإدراكهم الدولي.

وقصارى القول، أن حركة التحديث الديني في القرن العشرين غيرت

أسلوب الإنتاج وطريقة الحياة لدى الصينيين وطورت مجال أنشطتهم العملية واتسع نطاقها، ومن ثم، توسعت آفاق رؤية الصينيين توسعا كبيرا وشهد أسلوب تفكيرهم التغيير المهم. ونقول بدقة: إن تأثير حركة التحديث في أسلوب تفكير الصينيين يتجسد في الجوانب الأساسية التالية:

1- التغييرات التي شهدتها أهداف التفكير، قامت حركة التحديث بتوسيع نطاق أنشطة الصينيين، ودخلت العديد من الاهداف الجديدة والمجالات الجديدة والموضوعات الجديدة نطاق مجال تفكير الناس وأصبحت أهداف التفكير الجديد.

2- التغييرات التي طرأت على موضوع التفكير. تدفع حركة التحديث الممارسة الاجتماعية وتطوير القوة الإنتاجية إلى الأمام، وتجسد احتياجات الناس الاجتماعية الجديدة وتجذب الأنظار إليها، وتشكل أهداف الناس الجديدة ومصالحهم الجديدة، ولذلك تعد تلك الأهداف والمصالح بمنزلة الدوافع الجديدة لقيام الناس بممارسة الأنشطة الفكرية.

3- قامت حركة التحديث بتغيير هيكل المعرفة ونظام المفاهيم لدى الناس، وجعلتهم يستطيعون استخدام النماذج والمفاهيم الجديدة في إدراك الأشياء في العالم الخارجي.

4- غيرت حركة التحديث نظام قياس أنشطة الناس الفكرية.

5- عدلت حركة التحديث الهيكل النفسي لأنشطة الناس الفكرية، وحطمت انغلاق أسلوب التفكير التقليدي وركوده، ووطدت انفتاح الأنشطة الفكرية وتحركها. ويعالج الناس الأشياء في العالم الخارجي باستخدام الأسلوب المفتوح ويستطيعون القيام بتعديل أو إصلاح الشكل المحدد لتأملهم الذاتي ونموذجه.

6- عززت حركة التحديث قدرة تأثر الناس ومعرفتهم وإدراكهم وتفسيرهم للعالم الخارجي وعالمهم الذاتي الداخلي.

وفي إيجاز، إن حركة التحديث طورت مجال الناس تطورا كبيرا، وجعلت أنشطتهم الفكرية تشهد التغييرات الأساسية شكلا ومضمونا. ولكن في هذه العملية لعب انتشار العلوم الحديثة في الصين وتطوره الدور الحاسم والمباشر في تغيير أسلوب تفكير الناس. إن العلوم الحديثة أدت إلى معرفة الصينيين وفهمهم وتمكنهم من ثورة الأساليب الفكرية العالمية.

الهوامش

(١) «الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز»، المجلد 38، ص 561 (بالصينية).

23 ازدهار العلوم وثورة في أساليب التفكير

إن القرن العشرين هو عصر تقدم الصينيين نحو العلوم الحديثة وقبولها.

وكما ذكرنا آنفا، لم تستطع المفاهيم الثقافية التقليدية الصينية وأسلوب التفكير التقليدي الصيني تطوير العلوم الحديثة وازدهارها. وليس ذلك فحسب، بل تبتعد تلك المفاهيم وأسلوب التفكير عن الفكر الرئيسي للعلوم الحديثة. ولذلك ظلت الصين قبل منتصف القرن التاسع عشر قابعة في عصر ما قبل العلوم. وبعد منتصف القرن التاسع عشر، بدأت العلوم والتكنولوجيا المتقدمة الغربية الانتشار في الصين بصورة مطردة، ولكن كان ذلك الانتشار في البداية سطحيا ومبعثرا وتعرض للمقاومة العنيفة والإقصاء من جانب المفاهيم الثقافية التقليدية الصينية وأسلوب التفكير التقليدي، ولذا لم تؤثر تلك المفاهيم وذلك الأسلوب في تغيير أسلوب التفكير في المجتمع بصورة كافية. واختلفت الأحوال بحلول القرن التاسع عشر، حيث بدأت بعض الأجهزة التعليمية الجديدة إدخال معارف العلوم الحديثة الغربية وتقديمها في الصين

بصورة منتظمة، ثم ألغت تلك الأجهزة نظام الامتحان الإمبراطوري، وأسست نظاما تربويا حديثا، وأصبحت العلوم الحديثة الموضوع الأساسي في التعليم القومي. وظهر في أثناء حركة «4 مايو» 1919 تقريبا تيار إدخال معارف العلوم الحديثة وتقديمها ونشرها في النطاق الواسع والنظام الشامل، وانتشرت إنجازات العلوم والتكنولوجيا الحديثة بصورة تدريجية في كل مجالات الإنتاج والحياة. ومنذ ذلك الحين حتى الان، يزداد انتشار العلوم والتكنولوجيا الحديثة أكثر فأكثر وأصبحت الموضوع المهم في إنتاج الصينيين وحياتهم. كما أصبحت جزءا من «عالم حياة» الصينيين أيضا، ويؤثر انتشار العلوم وتطورها تأثرا مباشر في المفاهيم الثقافية وأسلوب التفكير لدى الصينيين.

وكان إدخال العلوم والتكنولوجيا الحديثة وتقديمها ونشرها وتطورها في صين القرن العشرين شاملا ومنتظما. ولا يشمل ذلك إدخال وتقديم نظرية التطور، والفيزياء الكلاسيكية، وعلوم الأحياء والكيمياء والفلك والرياضيات وغيرها من الفروع العلمية الطبيعية فحسب، بل يتضمن أيضا علوم الاجتماع والنفس والاقتصاد وعلم الأجناس وغيرها من الفروع العلمية الاجتماعية. ناهيك عن إدخال كلى التيارات الثقافية الاجتماعية والفلسفية، والإنجازات العلمية الغربية الكبرى في القرن التاسع عشر. كما تم إدخال العلوم الحديثة الناشئة في القرن العشرين وتقديمها في الوقت المناسب. وفي الوقت الذي قام فيه الصينيون بإدخال العلوم المتقدمة الغربية، أسسوا بصورة تدريجية نظامهم الذاتي لدراسة العلوم، وطوروا قضية علومهم الخاصة، وأنجبوا جيلا من المثقفين الجدد الذين يتسلحون بمعارف العلوم الحديثة، وشكلوا الوعي العلمي المنتشر على نطاق واسع في المجتمع كله. والان، أصبح نظام مفاهيم العلوم الحديثة ومبادئ علم المنهج بمنزلة أدوات التفكير الرئيسي لدى الناس حتى يتمكنوا من العالم الخارجي، وتغلغل الفكر الرئيسي للعلوم الحديثة في أعماق شعورهم وأصبح نقطة انطلاق أنشطتهم الفكرية والعملية ومقياس قيمهم. ومن ثم، أدى ذلك إلى ثورة في أساليب معرفة الصينيين بالعالم. وقدمت العلوم الحديثة الأساليب الجديدة من أجل قيام الصينيين بمعرفة العالم وتأمله وإدراكه والتمكن منه، ومن بينها الأساليب التي تتسم بالمغزى المهم والخاص في الجوانب المتعددة

التالية:

1- الأسلوب التحليلي، تكمن خصائص أسلوب التفكير التقليدي الصيني في تحقيق الوحدة الكلية السمعية والبصرية تجاه الأشياء المدركة بالحواس في العالم الخارجي. ويستطيع ذلك النوع من الأنشطة الفكرية التوصل إلى المعرفة الغامضة والمبهمة لهدف تلك الأشياء فقط، ولا يستطيع فهم تفاصيلها الكاملة فهما مفصلا. ولكن تتطلب العلوم الحديثة إجراء التحليل العميق المحدد لكلى جوانب الأشياء مما يجعل المعرفة تتميز بالوضوح والدقة. ويعد تأكيد تحليل الأدلة الواقعية من الخصائص الرئيسية للعلوم الحديثة، وأشار إنجلز إلى أن:

«العلوم الطبيعية الحقيقية لم تبدأ إلا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ومنذ ذلك الحين فصاعدا، حققت تلك العلوم التطور السريع يوما بعد يوم، وحللت العالم الطبيعي إلى أجزاء، ووزعت العمليات المختلفة والأشياء المتبابة لذلك العالم على الأقسام المحددة، وقامت بدراسة الكائنات الحية حسب تكويناتها التشريحية المتعددة والمتنوعة، ويعد ذلك بمنزلة الشروط الأساسية للتطور الكبير الذي تم إحرازه وني مجال معرفة العالم الطبيعي في الأربعمائة سنة الأخيرة»[1].

وعلى العكس من التفكير البدائي الشامل، تعد طريقة تحليل الظواهر والوقائع اليقينية بمنزلة تقدم تاريخي حيث دفعت معرفة الناس إلى مستوى جديد ووسعت نطاق مجال معرفتهم، وجعلتهم يحققون تطورا كبيرا تجاه معرفة العالم الخارجى والتمكن منه، وليس ذلك فحسب، بلى رفع الناس هذا النوع من الأسلوب التحليلي إلى مرتبة نموذج التفكير الشائع واستخدموه في معرفة الظواهر الطبيعية والاجتماعية والظواهر النفسية الثقافية، وأصبح مفهوم «التحليل» مصطلحا للتعبير عن الدراسة والتفكير في حياة الناس العادية.

2- الأسلوب المنطقي، يعد الاهتمام بالحدس من الاتجاهات الأساسية في التفكير التقليدي الصيني، ولا يجتاز التفكير الحدسي الاستنتاج المنطقي الدقيق، بل يعتمد على الإدراك. ومن الناحية الجوهرية، يعد الحدس نوعا من أسلوب التفكير اللاعقلاني، بينما الأسلوب المنطقي هو نوع من الأسلوب العقلاني، ويقوم بإظهار جوهر الأشياء ومضمونها الأساسي من جديد،

وذلك من خلال استخدام الشكل النظري والنظام التجريدي. كما أن الأسلوب المنطقي هو أحد الأساليب الرئيسية في العلوم الحديثة، ويشتمل التفكير المنطقي في حد ذاته على: استخلاص صفات الموضوع وخصائصه (الحكم)، والمعرفة المسبقة الموجزة، والمفهوم العلمي الشكلي، والانتقال من المعرفة التي تم الحصول عليها إلى نوع آخر من المعرفة (الاستنتاج). وتوجد كل هذه الحلقات في النظرية العلمية التي تصف الانغلاق النسبي لظاهرة ما ككل وتشرحها، وتتسع تلك النظرية لنظام المعرفة الواسع أيضا. وليست الوظيفة النظرية هي تلخيص منجزات المعرفة التي تم الحصول عليها بانتظار فحسب، بل تفتح الطريق أمام الحصول على المعرفة الجديدة أيضا، ومن التغييرات المهمة التي شهدها أسلوب تفكير الصينيين في القرن العشرين التحول من إهمال التفكير الحدسي المنطقي إلى الاهتمام بالطريقة المنطقية والعقلانية والقيام بالتحليل النظري والفكري للظواهر. ولم يعد الناس يستجيبون للمعرفة الذاتية الشخصية والتعبيرات التي على غرار حكمة إدراك الحقيقة فجأة، ويقومون بإجراء التجريد العقلاني والحكم المنطقي والاستنتاج تجاه كل ما «تنافى مع المنطق»، بمعنى أن طريقة التعبير تلك لا تتفق مع العقل وغير علمية، ولذا لا يمكن إجازتها، وقد أصبحت الإشادة بالعقل، والاهتمام بالمنطق، والتمسك بالعلوم من الأشكال الثابتة للتفكير لدى الصينيين المعاصرين.

3- الأسلوب الديالكتيكي، يتسم التفكير التقليدي الصيني بالأفكار الديالكتيكية البسيطة مثل: طريقة «اعتبار العالم الطبيعي وحدة كلية ومراقبته من خلال المنظور العام»، والطريقة الموحدة لمعرفة الانسجام والتناقض داخل تعدد النوعيات، وتعد هاتان الطريقتان من التفكير الديالكتيكي، ولكن ذلك التفكير الديالكتيكي غير قائم على أسس الطرق العلمية، بل هو أحد أشكال الوحدة الكلية السمعية والبصرية والتفكير الحدصي، وتطور الأسلوب الديالكتيكي الحديث انطلاقا من العلوم الحديثة، وقام إنجلز بتلخيص تطور العلوم والتكنولوجيا في سبعينيات القرن التاسع عشر، وأشار إلى أن خصائصها الأساسية ومتطلبات العصر عكست الروابط المشتركة والحركة الأبدية في العالم الطبيعي التي قررت وجهة النظر إلى الطبيعة في ذلك العصر. ومعنى ذلك أن أسلوب التفكير الرئيسي إزاء

العالم الطبيعي هو: «أن كل الأشياء الصلبة تذاب، وكل الأشياء الثابتة تتلاشى، وكل الأشياء الخاصة التي اعتبرت موجودة إلى الأبد أصبحت أشياء ميتة في طرفة عين، وتم إثبات أن العالم الطبيعي كله يتحرك داخل الحركة والدوران الأبدي»[2]. ويؤيد الأسلوب الديالكتيكي دراسة وملاحظة كل الأشياء وخصائصها وعلاقتها من خلال الروابط المتبادلة والمتحركة، وقد أثبت تطور العلوم الحديثة أن تحليل كل الظواهر الطبيعية والاجتماعية لا يمكن إلا من خلال الأسلوب الديالكتيكي، حتى يمكن معرفة الحقيقة القانونية وقوة تطورتلك الظواهر، والتنبؤ بالمستقبل بطريقة علمية، واستكشاف الطريقة الفعالة لتحقيق المستقبل، ومع تطور العلوم الحديثة وانتشار المعارف العلمية تقبل الصينيون المبادئ الأساسية للأسلوب الديالكتيكي على نطاق واسع، وأصبحت نموذجا لتفكير الناس.

وهناك سببان آخران وراء قبول الصينيين للأسلوب الديالكتيكي في العلوم الحديثة. السبب الأول: أن التفكير التقليدي الصيني يتضمن وجهة النظر الديالكتيكية البسيطة، ولذلك من السهل أن يفهم الصينيون هذا الأسلوب. والسبب الثاني: أن الانتشار الواسع للفلسفة الماركسية جعل وجهة النظر الديالكتيكية تحظى بالانتشار واسع النطاق. وعلى سبيل المثال، أصبح قانون وحدة الضدين، والواحد ينقسم إلى اثنين، وشمولية التناقض وخصوصيته، وتغييرات تطور الحركة من نماذج المفاهيم المألوفة والشائعة لدى الصينيين.

وباختصار، لقد أثر ازدهار العلوم وتطورها تأثيرا كبيرا في أسلوب تفكير الصينيين وجعلهم يشهدون ثورة في مجال الأساليب العلمية. وحل الأسلوب التحليلي والمنطقي والديالكتيكي محل الطريقة السمعية والبصرية للوحدة الكلية والطريقة السمعية والبصرية للإدراك في التفكير التقليدي، وعلى هذا النحو، اختلف أسلوب تأثر الناس بالعالم الخارجي وأسلوب معرفتهم وطريقة تفكيرهم التقليدي. كما اختلفت «صورة العالم» التي جسدتها ظواهر العالم الخارجي للناس والتي «يتأملونها». إن تأثر الصينيين التقليديين والمعاصرين بالعالم الخارجي ومعرفتهم به وإدراكهم له يختلف اختلافا كبيرا، وقد حدد ذلك الاختلاف مفاهيم الصينيين المعاصرين وأسلوبهم وعلاقاتهم بالعالم الخارجي، بالإضافة إلى أن مضمون أنشطتهم

العملية وشكلها يختلف كثيرا عن الصينيين التقليديين.

وعزز ازدهار العلوم تغيير أسلوب تفكير الصينيين، ولكن العلوم ذاتها في تطور وتغيير مستمر، ولذا يتطور أسلوب التفكير ويتغير معها بصورة مستمرة أيضا. ولاسيما في ظل ثورة العلوم الجديدة، ظهرت متطلبات تغيير أسلوب تفكير الناس بصورة بارزة على نحو خاص، وظهرت ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة في العالم بعد الحرب العالمية الثانيه، وقد تأسست مجموعة من العلوم الجديدة في أثناء هذه الثورة على أسس المبادىء العلمية الجديدة، مثل: علم إلكترونيات الكم، والنظرية الفرضية في الرياضيات، والبيولوجيا الجزئية، والنوويات، وعلم البيئة، وعلم البحار والمحيطات، وعلوم الفضاء وغيرها. وترمز هذه العلوم الجديدة إلى القفزة الضخمة في معرفة الناس بالعالم الموضوعي. وأدخلت هذه العلوم وجلبت معها مجموعة من الصناعات الناشئة مثل: الكمبيوتر، وإعداد البيانات، والملاحة الفضائية، والبتروكيمياء، والاتصالات المتقدمة، والمواد شبه الموصلة وغيرها. ومع تطور ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة، تلعب المعرفة والمعلومات والعلوم والتكنولوجيا دورا بارزا ومتزايدا في تطور الإنتاج والمجتمع. ولذا جعلت ثورة العلوم والتكنولوجيا أسلوب التفكير يتجاوز كل الفترات التاريخية السابقة، وحثت الناس ودفعتهم إلى القيام بتعديل وتغيير أسلوب تفكيرهم.

وقياسا إلى إتجاه تطور ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة في العصر الحاضر، سوف يتسم تجديد أسلوب تفكير الناس بالاتجاهات المتنوعة التالية:

ا- ظهور أسلوب التفكير المرتب ترتيبا منهجيا من التحليل المنهجي والدمج الشامل، ويعد أسلوب المنهج من الخصائص الأساسية للعلوم والتكنولوجيا منذ حقبة الخمسينيات. وما يطلق عليه الدراسة المنهجية وأسلوب التفكير عبارة عن منهج يتألف من هيكل العناصر وعلاقاتها، كما أن ذلك المنهج يعتبر الموضوع عنصرا داخل أكثر المناهج اتساعا، ويدرس الموضوع ويتأمله انطلاقا من العلاقات المتبادلة بين العناصر، والمنهج والبيئة، ويعد أسلوب التفكير المنهجي نوعا من أسلوب التفكير الشامل، ولكنه يختلف عن تلك الوحدة الكلية السمعية والبصرية في التفكير التقليدي الصيني وينظر بعين الاعتبار إلى تحليل العلاقات الهيكلية الداخلية والمنهجية.

2- إن الدمج المتبادل بين التحليل النوعي والتحليل الكمي جعل التفكير يتسم بالدقة والانضباط، ومن الخصائص البارزة للعلوم الحديثة تكوين المفهوم الذي يتحلى بالمغزى الكمي واستخدام هذا المفهوم لإجراء التحليل الكمي في دراسة الأشياء في العالم الخارجي، وطرح الأسلوب المحدد في العلاقات الرياضية، ونموذج علم الرياضيات الخاص بوصف ودراسة تحركات الأشياء في العالم الخارجي وقواعد تغييراتها، وعززت ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة تجاه إضفاء طابع الرياضيات على كل الفروع العلمية، ويعد دمج التحليل النوعي بالتحليل الكمي وتحقيق دقة وانضباط التفكير من الاتجاهات المهمة لتطوير التفكير في العصر الحاضر.

3- إن الدمج بين الأدوات النظرية والآلات الحاسبة الإلكترونية ووسائل تكنولوجيا القدرة والذكاء الصناعي جعل أسلوب التفكير يتحلى بالشكل والهيكل والمعلومات.

4- إن الجمع بين القدرة الطبيعية البشرية والقدرة الصناعية جعل الأنشطة الفكرية لدى الناس أكثر ثراء بالقدرة الإبداعية.

5- أصبح الدمج بين تحليل الحقيقة والتنبؤ بالمستقبل أكثر أهمية داخل الأنشطة الفكرية الخاصة بالتنبؤ العلمي في المستقبل[(3)].

ولا يعد تأثير ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة المذكورآنفا تجاه الأسلوب الفكري إلا نوعا من اتجاه التطور، وسوف تنتشر العلوم والتكنولوجيا تدريجيا مع تعميق ثورتها وتعميم منجزاتها. ولكن حظيت بعض الأشكال الجديدة لأسلوب التفكير بالتشجيع والاستخدام من جانب بعض الناس، وأصبحت الأسلوب الرئيسي في أنشطتهم الفكرية الواقعية، وجسد هذا التغيير اتجاه تطور أسلوب تفكير الصينيين، ويساعد-في الواقع-على انتقال مفاهيم حياتهم وموضوع أنشطتهم وأشكالها إلى اتجاه «المعاصرين».

الهوامش

(1) «مختارات ماركس وإنجلز»، المجلد الثالث، ص 60 (بالصينية).

(2) «الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز»، المجلد 25، ص 370 (بالصينية).

(3) انظر: لي هو قو، وو يوان ليانغ: «دراسة تأثيرات ثورة العلوم والتكنولوجيا في العصر الحاضر في أسلوب التفكير»، تحرير: معهد الفلسفة التابع للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، الجزء الثاني، ص 36-40.

24 تأسيس اندماج الرؤية الجديدة

قامت حركة التحديث بتعزيز نطاق أنشطة حياة الصينيين بصورة كاملة، ووسعت آفاق رؤيتهم توسعا كبيرا، وساعد ازدهار العلوم على توسيع مجال معرفتهم بصورة كبيرة، مما أدى إلى ثورة في أساليب تفكير الصينيين وجعل أسلوب تفكيرهم يشهد التغيير الهائل، ويتسم تغيير أسلوب التفكير بالمغزى الأساسي تجاه تحديث الصينيين وتحولهم من «التقليديين» إلى «المعاصرين». وفي الواقع، تكمن أهمية قيم الأشياء والظواهر ومغزاها في الأساليب والنماذج والطرق التي يستخدمها الناس في المراقبة والملاحظة والتفكير، وانطلاقا من أساليب التفكير المختلفة، تجسد الأشياء في العالم الخارجي للإنسان الأشكال المتباينة، ولذا تظهر أمامه القيم والمعاني المتباينة أيضا. ولذلك، شهد عالم المعاني لدى الصينيين ومفاهيم قيمهم والثقافة الأخلاقية والفكر الأخلاقي التغيير في حركة التحديث، واستنادا إلى الأسباب الذاتية، فإن تغيير أسلوب التفكير هو الأساس السيكولوجي للتغييرات التي شهدتها الجوانب المذكورة آنفا. وتقييم أمة ما أو

مجموعة من البشر إذا كانوا يتسمون بالتحديث أو لا. يجب-في المقام الأول-النظر إذا كانوا يتمتعون بالرؤية الثقافية الجديدة أو لا، بالإضافة إلى ما إذا كانوا يمارسون تغيير محاولة المعرفة وأسلوب التفكير من التقاليد إلى التحديث أو لا.

ويعد تغيير أسلوب التفكير أهم تغيير يجتازه الصينيون في حركة التحديث، ولكن لا يمكن تحقيق هذا التغيير أو إنجازه بين عشية وضحاها، ويعد تغيير ذلك الأسلوب هو الأصعب والأعقد بصفة عامة عند مقارنته بالتغييرات الاخرى. وعلى الرغم من أن الصينيين- قياسا إلى الوحدة الكلية واتجاه التطور الرئيسي-خرجوا من هيكل الأسلوب الفكري التقليدي ونموذجه وحققوا التحول من التفكير التقليدي إلى التفكير الحديث، ولكن قياسا إلى انتشار هذا التحول ودرجة عمقه وما يترتب عليه من القول إنه تم إنجاز تحديث الأسلوب الفكري لدى اليمينيين، فإنه من الأفضل أن نقول إنهم يجتازون الآن عملية التحول هذه ويضطلعون بتحقيق مثل ذلك التحول، وفي جانب تغيير الأسلوب الفكري يجسد الصينيون خصائص «الانتقاليين» أيضا.

وظل تحديث أسلوب تفكير الصينيين لم يتحقق من جراء الأسباب الرئيسية في الجوانب المتعددة التالية:

أولا: مازالت تحولات تحديث المجتمع الصيني لم تنجز، ومازال الصينيون قابعين في عملية التغيير الاجتماعي الكبير، ومازالت خصائص المجتمع الحديث لم تنتشر بصورة كاملة، ومازال «عالم حياة» الناس و«الأوضاع الثقافية» تحتفظ بمخلفات الثقافة الاجتماعية التقليدية وآثارها. وربما تلعب هذه الأحوال دورا محددا واضحا أو مستترا في إعاقة تغيير أسلوب تفكير الناس.

ثانيا: إن انتشار حركة التحديث وتطورها في الصين ليس متوازنا، وهناك اختلاف كبير بين المناطق الساحلية والداخلية، والمدن والأرياف، والمثقفين والعمال والمزارعين إزاء التأثر بالتحديث وقبوله وفهمه.

وعلى الرغم من أن تغيير أسلوب التفكير كان واضحا وبارزا جدا انطلاقا من الوحدة الكلية للصينيين، فإنه كان مستوى تغيير الفئات الاجتماعية المختلفة، والمجموعات الاجتماعية متباينا أيضا، وذلك إذا تأملنا ذلك التغيير

من زاوية الطبقات الاجتماعية. ونقول بصورة نسبية إن تغيير مجموعة المثقفين كان واضحا إلى حد ما، وتغيير المجموعات ذات المستوى المعرفي المتدني متفاوتا إلى حد ما أيضا. كما أن تغيير سكان المدن بارز نسبيا وتغيير سكان الأرياف متفاوت بصورة نسبية، وتكمن المشكلة في أن المزارعين مازالوا يمثلون السواد الأعظم من هيكل السكان في الصين، ومازال المعدل القومي لمستوى الثقافه منخفضا نسبيا، ويوجد أكثر من عشرين في المائة تقريبا من الأميين وشبه الأميين الذين يعوزهم الشعور المعرفي الكامل وفهم الموضوع الفكري للعلوم الحديثة والعناصر التقليدية المتوارثة في أسلوب تفكيرهم كبيرة نسبيا. ولذلك، تتسم درجة تغيير أسلوب تفكيرهم بالتأثير الخادع الكبير إزاء تغيير أسلوب المجتمع كله.

ثالثا: ينتمي أسلوب التفكير إلى الأشياء الأيديولوجية والسيكولوجية.

ونقول بصفة عامة، إن تغيير أسلوب التفكير الاجتماعي يتقهقر دائما خلف التغيير الثقافي الاجتماعي ولا يشهد التغيير الجذري الفوري مع تحولات الثقافة الاجتماعية. ومن ثم، يتسم ذلك الأسلوب عادة بالأحوال التالية:

أن أسلوب إنتاج الناس وطريقة حياتهم حديثان، ولكن أسلوب التفكير مازال تقليديا، ومن المحتمل جدا أنهم مازالوا يستخدمون التفكير والطريقة التقليدية في مراقبة الأشياء الحديثة وتأملها وإدراكها، ومن ناحية أخرى، لقد اجتاز أسلوب التفكير رواسب الأجيال المتعاقبة وتغلغل في أعماق الهيكل النفسي للناس وأصبح من الأشياء المعتادة، وشكل نوعا ما من «التفكير المحدد». وفي ذلك التفكير المحدد، ربما يفكر الناس طبقا لهذا النوع من «التفكير المحدد» بصورة طبيعية جدا أو بطريقة غير واقعية. ولذا، وبصرف النظر عن احتمال معرفة الناس الواضحة بأهمية تغيير أسلوب التفكير في الجانب العقلاني، والتمكن بوضوح من اتجاه تغيير أسلوب التفكير ونزعته، لكن مازال من الصعب جدا تحقيق التغيير الأساسي في أسلوب التفكير واستخدام «التفكير المحدد» الجديد ليحل محل «التفكير المحدد» القديم. وعلى هذا النحو، يواجه الصينيون الأوضاع المفتوحة والمتنوعة في مشكلة تغيير أسلوب التفكير، لقد تحطم أسلوب التفكير التقليدي، وأسلوب التفكير الحديث قيد عملية الإنشاء، ويوجد فى أسلوب التفكير الاجتماعي العناصر

المتوارثة التقليدية والعناصر الحديثة أيضا، ناهيك عن تأثيرهما المتبادل والتغيير المجسم المتداخل لديهما. واستنادا إلى وجهة نظر الطبقات الاجتماعية، هناك بعض الأفراد الذين تقبلوا نموذج هيكل الأسلوب الفكري الحديث إلى حد كبير، ولكن هناك أناسا آخرين ربما مازالوا يتمسكون بنموذج هيكل الأسلوب الفكري التقليدي إلى حد كبير أيضا. وفي ضوء وجهة النظر الذاتية، ربما توجد أوضاع تعايش نوعين من عناصر الأسلوب الفكري، ولذلك ظهرت «الرؤية المركبة» في أسلوب تفكير المجتمع الصيني الحديث. وتتسم الوحدة الاجتماعية الكلية أو الطبقات الاجتماعية أو الأفراد بوجهة النظر المركبة والمتعددة ونقطة الانطلاق والجمود في مجال الفكر والرؤية. وربما توجد زوايا التفكير المختلفة في الأشياء والظواهر المتباينة، ومن ثم، تتسم تلك الأشياء والظواهر بمقياس القيم والمعاني المختلفة. وبالنسبة للأشياء والظواهر المتشابهة، من المحتمل أيضا أن توجد زوايا التفكير المختلفة التي تمنح تلك الأشياء والظواهر معاني القيم المختلفة، ويعد انفتاح وتعدد أسلوب التفكير ورؤية الناس المركبة في مجال الحياة الواقعية بمنزلة معايير القيم المزدوجة في المجتمع الصيني الحديث ومن الأسباب الذاتية وراء افتقار عالم المعاني إلى الوحدة الشاملة وتعدد اتجاهات الثقافة الأخلاقية والفكر الاخلاقي.

ونظرا لأن مهمة تحديث أسلوب تفكير الصينيين المعاصرين لم تنجز بصورة كاملة، ولذا تظهر التعددية وأوضاع اندماج الرؤية المركبة والمتكررة في الأسلوب الفكري الاجتماعي. ولكن هناك سببا آخر لاندماج الرؤية المركبة للصينيين المعاصرين. فقد بدأ الصينيون في أوائل القرن العشرين إدخال الثقافة الغربية والعلوم والتكنولوجيا المتقدمة على نطاق واسع، ولكن العلوم الحديثة التي كان الناس يتحدثون عنها آنذاك هي العلوم التي تتناسب مع عصر الصناعة الكبرى بصفة أساسية، وكلها قائمة على أساس مفهوم العلوم الأساسية في القرن التاسع عشر مثل: الفيزياء الكلاسيكية، ونظرية بقاء الطاقة، ونظرية النشوء والارتقاء وغيرها. وقام الصينيون بتعديل الأسلوب الفكري التقليدي وتجديده انطلاقا من الفكر العلمي لمثل تلك العلوم. ولكن ازدهار ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة طرح متطلبات جديدة وتحديات لتغيير أسلوب التفكير، وفي السنوات القليلة الماضية، انتشرت

منجزات ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة في الصين وتطورت. وأقامت الصين الصناعات الناشئة والمصانع العلمية ذات التقنية رفيعة المستوى بصورة متتالية، وأدرك الناس بصورة تدريجية التأثير الجديد ومتطلبات ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة تجاه أسلوب التفكير، وبدأوا إجراء التعديل الجديد والتغيير الكبير على أسلوب تفكيرهم الذاتي ونموذج معرفتهم حسب تلك المتطلبات. وعلى الرغم من أن الأشخاص الذين يدركون حقا الموضوع الفكري لثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة وتأثيراتها في الأسلوب الفكري بمنزلة اتجاه تطور الأسلوب الفكري الاجتماعي ونزعته في الصين الحديثة.

وقياسا إلى ما ذكرناه آنفا، تتجسد تعددية الأسلوب الفكري لدى الصينيين المعاصرين ورؤيتهم المركبة بصورة أساسية في الجوانب الثلاثة التالية:

1- العناصر المتوارثة من الأسلوب الفكري التقليدي.

2- عناصر الأسلوب الفكري الحديث.

3- العناصر الجديدة في الأساليب الفكرية التي جلبتها ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة.

وفي ضوء الأحوال الحالية والجوانب والأنواع الثلاثة من العناصر المذكورة آنفا، يحتل النوع الثاني من العناصر المكانة الأساسية والرئيسية. وعلى كل حال، تتمتع حركة التحديث الصيني بأكثر من مائة سنة من التاريخ، وتأثر الصينيون بتحولات التحديث تأثرا عميقا بصرف النظر عن الفئة والمكانة الاجتماعية التي ينتمون إليها، ولكن تختلف درجات عمق تأثرهم وفهمهم، ولذلك وعلى الرغم من المخلفات المتوارثة في الأسلوب الفكري التقليدي، فإنه لم يعد أسلوب التفكير الرئيسي في المجتمع الصيني (لكن لا نستطيع أن نقلل من خطورة تأثير ذلك الأسلوب الفكري في الحياة الواقعية) بل إن أسلوب التفكير الجديد الذي جلبته ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة، على الرغم من أنه أحدث التأثيرات الإيجابية لاستمرار تعزيز وتوسيع مجال معرفة الصينيين المعاصرين ورؤيتهم، فإنه مازال عاملا قيد الإنماء وفي حاجة إلى الانتشار المستمر والتطوير.

وحطم الصينيون في حركة التحديث هيكل أسلوب التفكير التقليدي ونموذجه، وشكلوا النموذج المتعدد والرؤية المركبة في الوقت الحاضر، ويعد

ذلك في حد ذاته تقدما تاريخيا كبيرا . ويعد أسلوب تفكير الناس من الشروط الأساسية لقيامهم بالأنشطة العملية، إن اتساع نطاق مجال الأنشطة العلمية يتطلب من الناس زيادة قدرتهم المعرفية وتأثرهم بالعالم الخارجي باستمرار، والقيام بالاطلاع الأكثر شمولا على الأشياء في العالم الخارجي والتمكن منها انطلاقا من الرؤية متعددة الأبعاد . ويتطلب ذلك من الناس تحطيم نموذج التفكير الأحادي وهيكل المفاهيم التقليدية وتأسيسا هيكل المعرفة الأساسي ونموذج التفكير والرؤية الثقافية متعددة الأبعاد انطلاقا من الفروع العلمية والجوانب المتنوعة ووجهات النظر المتعددة. وقدم ازدهار العلوم الحديثة وتطورها الإمكانية لتأسيس تلك الرؤية متعددة الأبعاد . لذلك وقياسا إلى اتجاه التطور الرئيسي، يعد انفتاح أسلوب التفكير وتعدده من مظاهر تقدم الصينيين نحو التحديث، كما أنه يعد تغييرا يتسم بمغزى التقدم التاريخي. ناهيك عن أنه إحدى خصائص أسلوب التفكير الحديث أيضا . ومن ناحية أخرى، من المؤكد أن تشتمل عملية تحول الصينيين وانتقالهم من «التقليديين» إلى «المعاصرين» على أحد نماذج التفكير القديمة والمتحطمة، وأسلوب التفكير الجديد قيد الإنشاء. ومن ثم، تظهر مرحلة التعددية الفكرية في المجتمع الصيني. ولكن تعد التعددية وتراكب الرؤية في الوقت الحاضر نوعا من التراكب التاريخي الطولي، وليس تراكب الزمن المشترك العرضي. ويعد ذلك من المعاني غير الكاملة في متطلبات الأسلوب الفكري الحديث حيث الانفتاح والرؤية متعددة الأبعاد .

وجسدت تعددية أسلوب تفكير الصينيين المعاصرين والرؤية متعددة الأبعاد لديهم نوعا من التقدم التاريخي وهيأت الظروف الأساسية لتقدم الصينيين نحو اتجاه تطوير التحديث. ولكن مازال الصينيون يحتاجون إلى تحقيق أسمى درجات التوافق والوحدة الكلية على أساس انفتاح وتعددية أسلوب التفكير وتأسيس «اندماج الرؤية» الجديدة، وذلك في جانب الوحدة الكلية الاجتماعية أو في الجانب الذاتي لأفراد المجتمع. ويعني تأسيس «اندماج الرؤية» الجديدة دمج الرؤية متعددة الأبعاد المتكونة في حركة التحديث مع تعددية نماذج التفكير داخل الهيكل الموحد، وتكوين نقطة الانطلاق الأساسية الاجتماعية أو الذاتية للقيام بالأنشطة الفكرية، وجعل الناس يستطيعون ملاحظة الأشياء في العالم الخارجي وتأملها وإدراكها

من منظور نموذج التفكير ذاته داخل «اندماج الرؤية» الجديدة، واستخدام معيار القيم للحكم على الأشياء والحصول على المعرفة المشتركة الواسعة لمعاني قيمها. ولذلك فإن تحقيق التوافق الكبير في تعددية أسلوب التفكير لا يعد من المهام الرئيسية التي يواجهها الصينيون في عملية تغيير أسلوب التفكير فحسب، بل إنه شرط أيديولوجي لإعادة بناء الفكر الثقافي الصيني الحديث ونظام قيم الصينيين المعاصرين وعالم معانيهم.

وأهم شيء في تأسيس «اندماج الرؤية» الجديدة هو المضي قدما في اتجاه تحديث أسلوب التفكير، ويجب على الصينيين القيام بتحقيق التوافق بين العناصر المتعددة في أسلوب تفكير الصينيين المعاصرين. وما الشيء الذي يعتمد عليه الصينيون لتحقيق ذلك التوافق؟ إنهم لا يعتمدون على الأسلوب الفكرة التقليدي لتحقيق مثل ذلك التوافق، بل إنهم يؤسسون نموذج التفكير الحديث وصورة المعرفة في ضوء المتطلبات الموضوعية لمسيرة التحديث التاريخية واتجاه تطور تحولات الثقافة الاجتماعية، ومن ثم ظلت المشكلة الأساسية في تغيير أسلوب تفكير الصينيين في الوقت الحاضر هي التغلب على العناصر والمؤثرات السلبية في الأسلوب الفكري التقليدي بصورة مطردة، ودفع تحديث أسلوب التفكير إلى الأمام. ولكن قدمت ثورة العلوم والتكنولوجيا الجديدة متطلبات جديدة إزاء تغيير أسلوب التفكير. ولذلك في الوقت الذي يقوم فيه الصينيون بدفع تحديث أسلوب التفكير إلى الأمام يجب عليهم التحلي بحقائق المتطلبات الجديدة والتفكير في تحديث أسلوب تفكيرهم انطلاقا من زاوية التطور المستقبل. وعلى هذا النحو يمكن دفع تغيير أسلوب تفكير الصينيين إلى المستوى والهدف الأسمى، وتقديم الفهم العلمي والمعقول الذي يتلاءم مع تطوير الثقافة الاجتماعية الصينية الحديثة والتمكن من هيكل العالم الطبيعي ونموذجه وأدواته، وذلك ليس من أجل الصينيين المعاصرين فحسب، بل من أجل الصينيين في المستقبل أيضا.

الباب السابع
تطور الشخصية الصينية
في العصر الحديث

25 تطوير الشخصية الصينية في حركة التحديث

ناقشنا في الأبواب السابقة بصورة منفردة التأثيرات الهائلة والتحولات الكبرى أو التغييرات التي أحدثتها حركة التحديث تجاه الأحوال النفسية الثقافية وعقيدة المعاني ومفاهيم القيم والفكر الأخلاقي وأسلوب التفكير وغيرها من الجوانب الأخرى لدى الصينيين. وترشمز التحولات والتغييرات في هذه الجوانب إلى تحول الصينيين الشامل، إنه التحول في فكرهم الثقافي وشخصيتهم القومية. وبعد اجتياز هذه التحولات، يعتبر الصينيون المعاصرون بمنزلة الوحدة الكلية القومية التي تتسم بالملامح الفكرية والشكل الشامل الذي يختلف اختلافاً كبيراً عن الصينيين التقليديين. كما يعتبر الصينيون، بعد أن اجتازوا التجربة القاسية لحركة التحديث، أمة حديثة تتشكل في الوقت الحاضر بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

إن تغيير الشخصية القومية والشخصية الذاتية يؤثر كل منهما في الآخر. وتجسد التحولات الهائلة التي شهدها الصينيون في حركة التحديث التغييرات التي شهدتها الشخصية الذاتية المحددة.

وإذا لم تحدث التغييرات الحقيقية للشخصية الذاتية المحددة، فإن ما يطلق عليه تغيير «الصينيين» يعد نوعاً تجريدياً خالياً من المعاني. ومن ناحية أخرى، إن الإنسان الصيني، باعتباره عضواً في الوحدة الكلية القومية لـ «الصينيين»، لا يمكن أن ينعزل خارج تحولات تحديث تلك الوحدة، وسوف يتأثر دائماً بالتحولات والتغييرات المناسبة التي تشهدها الشخصية الذاتية. ومن ثم، تتضمن دراستنا للصينيين ولتطوراتهم وانتقالهم في حركة التحديث جانبين تربطهما العلاقات المتبادلة. الجانب الأول هو تحليل خصائص الصينيين والتأكد منها والتمكن من الاتجاه العام للتحولات والتغييرات التي يمر بها الصينيون في حركة التحديث، وذلك في جانب «القومية» أو «الطبيعة القومية» أو «الهيكل الرئيسي الاجتماعي للشخصية». وانطلاقاً من علم المنهج، إن هذا النوع من الدراسة هو تجريد نظري لمواد الدراسة المحسوسة والتي تتسم بالمحدودية والثراء، ونموذج تأسيس هيكل «القومية» وتطوراتها. ويعد هذا الجانب بمنزلة دراسة الخصائص المشتركة والشاملة لدى الصينيين. أما الجانب الثاني فهو دراسة الشخصية الذاتية المحددة ويشمل الدراسة المقارنة بين الفئات والطبقات الاجتماعية المختلفة، وأعضاء المجموعات المتباينة والمجموعات الصغيرة. وفي حركة التحديث الصيني، تتسم شخصية كل فرد بالتغيير المناسب. ولكن، الظروف الذاتية وتفاوت البيئة الحياتية تجعل خصائص كل شخصية ذاتية تتحلى بالخصوصية الذاتية. ومتطلبات الطريقة النظرية لدراسة الشخصية الذاتية هي تحديد وتقديم الأدلة الواقعية، وتحتاج هذه الدراسة إلى مراقبة وملاحظة كمية كبيرة من مواد الدراسة الحيوية، ولا سيما القيام بمشروع ذاتي دراسي مفصل لعملية نمو بعض الشخصيات النموذجية. وتعد الدراسة في هذا الجانب هي دراسة الخصوصية الإنسانية وخصوصية الآخرين، وتسهم في إدراكنا لتأثير حركة التحديث المحدد إزاء الشخصية الذاتية، وتساعد على تعزيز التطور السليم للشخصية الذاتية لدى أفراد المجتمع. وفي الوقت نفسه، تغْني معرفة الجانب الأول وتعمقه وتحدده.

ولكن دراسة الشخصية الذاتية في غاية التعقيد. ويتسم نمو الشخصية الإنسانية وملامحها بالخصوصية. وبالنسبة لدراسة أي إنسان يمكن تأليف كتاب حول السيكولوجية الذاتية وتاريخ تطور الشخصية لديه. إن دراسة

الجانب الأول لا يمكن أن تحل محل دراسة الجانب الثاني، وبالتالي دراسة الأشياء المشتركة والشائعة عند الصينيين لا يمكن أن تقوم مقام الدراسة الذاتية للجانب الأول أو الجانب الثاني. ولذلك، لا نستطيع في هذا المقام سوى مناقشة تأثير حركة التحديث على الشخصية الذاتية للصينيين واتجاه التطور والتغيير الناجم عنها، بالإضافة إلى دراسة الاتجاه العام لتطور الشخصية الذاتية عند الصينيين في حركة التحديث، وذلك انطلاقاً من منظور نظرية الشخصية.

ونقول ببساطة إن ما يسمى بـ «الشخصية» هو صورة الإنسان الكاملة[1]. وتعد «الشخصية» مفهوماً لدراسة «الإنسان» وتحديداً له. ويتحلى «الإنسان» بصفتين مميزتين رئيسيتين باعتباره كائناً موجوداً، هما: الصفة الطبيعية والصفة الاجتماعية. ويتمتع الإنسان بكل المميزات النظرية والبيولوجية والاجتماعية، وأشار ماركس إلى أن: «الإنسان يعتبر ذاتاً خاصة، وخصوصيته تجعله كائناً ذاتياً، ويصبح أيضاً كائناً اجتماعياً حقيقياً ومنفرداً»[2]. والشخصية هي صورة الإنسان الكلية التي يجسدها في الحياة الاجتماعية، وفي تلك الصورة الكلية، يقيم الناس الصفات الاجتماعية للإنسان ومميزاته الخاصة ويميزون بينه وبين الآخرين.

وتتسم الشخصية بالخصائص الهيكلية. ويعد تشكيل هيكل الشخصية وتأسيسه بمنزله تكوين الشخصية وتطويرها بصفة أساسية. ونقول بصفة عامة إن هيكل الشخصية يشمل تقريباً الجوانب الأربعة التالية:

1- نموذج السلوك: ويعد ذلك الجانب الظاهري للشخصية الذي يظهر المرء فيه ذاته ويعبر عن خصائص شخصيته المميزة. وهذا الجانب محسوس وخارجي ويتضمن بصورة أساسية نموذج سلوك الإنسان في ظل الأحوال المختلفة. ويحكم الناس على شخصية الإنسان ويقيمونها حسب نموذج التصرفات الخارجية له. ولذلك، يجسد هذا الجانب ملامح الشخصية.

2- الاتجاه: ويشير إلى الخصائص الإيجابية لسلوك الإنسان وتصرفاته تجاه البيئة الاجتماعية. ويمكن تقسيم ذلك الاتجاه إلى مستويين هما، الأول: الذي يقرر إيجابية الإنسان ويشتمل على الاحتياجات والدوافع والاهتمامات وغيرها. والثاني يقرر اتجاه الوعي والميول لأنشطة الإنسان ويشمل المثل العليا والعقيدة الثقافية ووجهة النظر إلى العالم وغيرها.

ويقرر ذلك الاتجاه سلوك وإيجابية الإنسان وقوة الاختيار لديه، ويجعل الناس ينظمون سلوكهم الذاتي من خلال السلوكيات المختلفة والإيجابية ذات الدرجات المتباينة، ويتمتعون بالهدف والاختيار لممارسة رد الفعل إزاء الحقيقة الموضوعية.

3- الخصائص النفسية: وتشمل القدرة والمزاج والطبع، وهي أسلوب لدمج خصائص الإنسان النفسية بمميزاته الخاصة. والقدرة هي ملامح القدرة الكامنة لإنجاز نوع ما من النشاط. والمزاج هو قوة أنشطة الإنسان النفسية وسرعتها واستقرارها ومرونتها واتجاهها وغيرها من العوامل الأخرى. أما الطبع فهو المميزات المستقرة التي يجسدها الإنسان في التعامل مع الأشياء وأسلوب التصرف. وتعد القدرة والمزاج والطبع وغيرها من الخصائص النفسية بمنزلة العوامل المستقرة إلى حد ما داخل هيكل الشخصية وتعبر عن الأنشطة النفسية والنموذجية والسلوك لدى الإنسان.

4- الوعي الذاتي: وهو جانب التكيف الذاتي للشخصية. ويشمل المعرفة الذاتية والتقييم الذاتي، والمراقبة الذاتية، والسيطرة الذاتية وغيرها. ويتسم الوعي الذاتي بالمميزات العقلانية ويتبوأ أسمى المستويات داخل هيكل الشخصية وتكوينها واختيارها وتطويرها.

ومن الجوانب الأربعة المذكورة آنفاً يمكن أن نعتبر الجانب الأول هو الهيكل الظاهري أو الهيكل الخارجي للشخصية. أما اتجاه الشخصية والخصائص النفسية والوعي الذاتي فنعتبرها الهيكل المستتر أو الهيكل العميق للشخصية. إن هيكل الشخصية وحدة كاملة وشاملة، والهيكل الخارجي والهيكل العميق للشخصية، والعوامل داخل الهيكل العام للشخصية تربطهم العلاقات المتبادلة والتناسق المتبادل ويتفاعل بعضها داخل بعض. إن الهيكل الخارجي للشخصية يعتمد على هيكلها العميق ويجسده أيضاً. وتتبع الانطباعات المتعددة الظاهرية للشخصية من أعماقها. إن فهم الشخصية يجب أن يتعمق في هيكلها العميق حتى يمكن إدراك أسلوب أعمالها وسلوكها الرئيسي. ويعتمد تعديل الهيكل الفكري العميق للشخصية على تعديل هيكل السلوكيات الظاهرية. ويعد ذلك بمنزلة التفاعل المتبادل بين الهيكلين حتى تتشكل بشكل محدد الصورة الكلية لشخصية الإنسان التي تتطور بصورة مستمرة.

إن تفسير معالم هيكل الشخصية يعد نوعاً من التجريد للشخصية. وهيكل الشخصية الرئيسي لدى السواد الأعظم من البشر متشابهة.ولكن، هناك اختلافات بين كل من: توزيع وتنظيم هيكل الشخصية لدى كل إنسان، والعلاقات التي تربط بين عناصر هيكل الشخصية، والمستوى الوظيفي الذي تضطلع به تلك العناصر داخل الشخصية. ويظهر ذلك أن العناصر داخل هيكل الشخصية لا تندمج مع بعضها البعض، ومن ثم تكونت نماذج الشخصيات المتباينة لدى العديد من البشر.

إن الاختلافات المتعددة المذكورة آنفاً تظهر بصفة خاصة لدى الإنسان الذي يعيش في البيئة الثقافية الاجتماعية المتباينة. وتوجد في البيئة الثقافية الاجتماعية المتشابهة-بالطبع-الفوارق البارزة والمختلفة بين الشخصيات الفردية. ولكن يتحلى الناس الذين يعيشون في البيئة الثقافية المتشابهة تقريباً بعالم المعاني ومفاهيم القيم المشتركة. ولذا، توجد العديد من الجوانب المشتركة في شخصياتهم. ويكون اختلاف الشخصيات بارزاً بصفة خاصة في الأحوال الثقافية الاجتماعية المختلفة. وذلك لأن الشخصية هي النتاج الثقافي. وتعتبر الثقافة البيئة الرئيسية لحياة البشرية وتتمتع بالصورة النموذجية الكبرى وقوة الاختيار تجاه الشخصية. وتقدم الثقافة للناس نظام القيم والمعايير وشبكة المعاني، وتقوم بتصميم الشخصية الذاتية ورسم الصورة النموذجية لها إلى حد كبير من خلال «التعميم» أو «تكيف الأوضاع وفقاً للحاجة الاجتماعية». ويتغلغل المضمون الثقافي أو يتراكم في كل جوانب تشكيل هيكل الشخصية الذاتية. وكما أشار العالم الأمريكي Edward T. Hau إلى أن:

«الثقافة هي بيئة حياة الإنسان. وتتعرض كل جوانب حياة البشر لتأثير الثقافة بالتأكيد، وتتغير نتيجة التغييرات الثقافية. ويعني ذلك أن الثقافة قررت وجود الإنسان وجسدت أسلوبه الذاتي (يشمل التعبير عن المشاعر والأحاسيس)، وأسلوب التفكير، وطريقة السلوك، وأسلوب حل المشاكل، وطريقة تخطيط وإنشاء المدن، وتأسيس نظام النقل وحركته، والعلاقة بين الاقتصاد والحكومة ولكن.... يعد ذلك-في ظل الأحوال العامة-بعض الجوانب الثقافية المعتادة والأكثر وضوحاً، وتحظى بنصيب ضئيل في الجانب الدراسي، وتؤثر في تصرفات الناس من خلال الأسلوب الأكثر عمقاً ودقة»[3].

وقياساً إلى وجهة النظر تلك بين الثقافة والشخصية، تعرض تكوين الشخصية الذاتية وتطويرها لدى الصينيين «التقليديين» لقيود الثقافة الصينية التقليدية وتأثيرها الكبير. وقد ناقشنا-في الباب الثاني من الجزء الأول من هذا الكتاب-العلاقة بين الثقافة الصينية التقليدية و «التقليديين» واتجاه الخصائص الأساسية للشخصية التقليدية. ونقول باختصار، إن الشخصية الذاتية للصينيين «التقليديين» تتمتع ـ بصفة عامة ـ بملامح الشخصية من التسلط والنفوذ ونموذج تطور الانطواء الذاتي. وقامت مفاهيم القيم وشبكة المعاني والفكر الأخلاقي في الثقافة التقليدية، والنظام العشائري وأسلوب الإنتاج وطريقة الحياة في المجتمع التقليدي برسم الصورة النموذجية لاتجاه الشخصية وتقويتها. ويقودنا ذلك إلى القول إن الشخصية الذاتية لـ «التقليديين» تتلاءم مع الثقافة الاجتماعية التقليدية بصفة عامة. وتتجسد في شخصية الصينيين «التقليديين» الفكر الرئيسي للثقافة الصينية التقليدية. ولكن، كما ناقشت الأبواب السابقة من هذا الكتاب مرات عديدة، إن حركة التحديث جعلت أوضاع حياة الصينيين والأحوال الثقافية تشهد التغييرات الهائلة. ومن ناحية، بدأ نظام الثقافة التقليدية في الاندثار والانحلال، ولم يعد تيار الثقافة الرئيسي أو الأساسي في المجتمع، والثقافة الحديثة التي تتناسب مع حركة التحديث يتأسسان في الوقت الحاضر. إن التحول في أوضاع الحياة والتغييرات الهائلة في مضمون وشكل تكيف أوضاع الصينيين حسب الحاجات الاجتماعية جعلت شخصية الصينيين الذاتية تجتاز التطور المهم.

ولا يعد تطوير شخصية الصينيين في حركة التحديث تغييراً تجتازه الأقلية أو بعض الأفراد، وإنما هو تغيير تجتازه الآن الغالبية العظمى من الأفراد، بل حتى يمكن القول إن جميع الصينيين يجتازونه أيضاً. وتأثرت مجالات حياة الصينيين في ظل الخلفية الكبرى لتحولات التحديث بالتغيرات الثقافية الاجتماعية الضخمة التي شهدها الاتجاه النفسي الذاتي والشخصية، ولذا قامت تلك التغييرات بإجراء التعديل على الشخصية الذاتية وإعادة رسم صورتها النموذجية. كما يعد تطوير شخصية الصينيين نوعاً من التغيير الهيكلي الذي يشتمل على كل جوانب هيكل الشخصية، ولا يعد ذلك التغير تعديلاً أو تكميلاً جزئياً ومنفرداً. ونقول بدقة، إن الصينيين

في حركة التحديث يتمتعون بالتغيير المناسب في كل جوانب هيكل الشخصية. وعلى سبيل المثال، في جانب نموذج السلوك، حددت الثقافة التقليدية للإنسان الصيني مجموعة من معايير السلوك الموحد التي عكست المتطلبات الأساسية للنظام العشائري والتنظيم الاجتماعي في المجتمع التقليدي، وشكل الإنسان الصيني سلوكياته وملامحه حسب فهمه لهذه المعايير وقبوله لها. وتتناسب مثل تلك السلوكيات مع طريقة الحياة ودور العلاقة في المجتمع التقليدي. وعندما شهدت الثقافة الاجتماعية التحولات الواسعة النطاق، تحطمت معايير السلوك القديمة، وتأسست المعايير الجديدة تدريجياً. وفي ضوء تلك التغييرات، والتغيير الذي يطرأ على دور المجتمع، يقوم الناس أيضاً بتعديل سلوكهم الذاتي وفي جانب اتجاه هيكل الشخصية، يشهد النطاق الواسع لمجال أنشطة الناس العملية والاحتياجات الذاتية والدوافع والاهتمامات التغييرات الكبيرة بسبب تغييرات الحياة الاجتماعية. وخاصة في ظل الزيادة الشاملة لمستوى الحياة المادية والفكرية في المجتمع، تزداد احتياجات الناس تدريجياً من المستوى المنخفض نسبياً يوماً بعد يوم. ومن ناحية أخرى، تشهد المثل العليا والعقيدة ووجهة النظر إلى العالم وغيرها من الأيديولوجيات التغييرات نتيجة التحديث، وتحظى عقيدة معاني الثقافة الحديثة والمثل العليا الثقافية والشخصية المثالية ووجهة النظر الجديدة إلى العالم بالثناء والتأييد من قبل الناس بصورة تدريجية. وفي جانب خصائص الشخصية النفسية، تختلف قدرة الصينيين المعاصرين ومزاجهم وطبعهم اختلافاً كبيراً عن «التقليديين». كما أن هذا التغيير واضح بصفة خاصة في الوعي الذاتي للشخصية. وأشار العالم الأمريكي ماسلي Masle إلى أن: «التقاليد الثقافية للأفكار تؤثر في كيفية قيام الذات بمعرفة نفسها، ومن ثم تؤثر أيضاً في كيفية قيام تلك المعرفة بإحداث التأثير المتبادل مع تشغيل آلية المعالجة الأساسية لتكوين هيكل الشخصية»(4). والوعي الذاتي هو وعي الإنسان بوجود شعوره الذاتي، ومعرفته بكل أحوال عقله وجسمه وتفكيره النفسي وعملية أنشطته ومضمونها ونتائجها والتعلم منها والتأثر بها وتقييمها. وقام الصينيون في حركة التحديث بتنمية الوعي الذاتي الإيجابي تدريجياً، وعززوا «الاحترام الذاتي» و«الإحساس بالكفاءة» على نطاق واسع، ويتسمون بالوعي الكافي النسبي تجاه الخصوصية الذاتية

والقيم الفردية. ولذلك طوروا الشخصية الذاتية التي تتحلى بخصائص المعاصرين وتتلاءم مع العملية الموضوعية لتحولات التحديث الصيني.

ويعد تطوير الشخصية الذي اجتازه الصينيون في حركة التحديث بمنزلة عملية اختيار الشخصية أيضاً. ويعتبر ذلك اختياراً مزدوجاً بين الثقافة والشخصية. ومن ناحية، يعد ذلك اختيار الثقافة الاجتماعية للشخصية الذاتية، ويتطلب نظام المعاني الثقافية الحديثة ومفاهيم القيم نموذج الشخصية الجديدة الملائم والذي يجسد المضمون الفكري والرئيسي لتلك المعاني والمفاهيم، ويرسم الصورة النموذجية لتلك الشخصية من جديد من خلال تغيير مضمون وشكل تكيف الأوضاع حسب الحاجات الاجتماعية. ومن ناحية أخرى، يقوم الفرد حسب متطلبات الأوضاع الثقافية الجديدة باختيار هدف الشخصية المثالية الذاتية وطريق تطوير الشخصية. وأدت التحولات الثقافية الواسعة النطاق إلى تحديد نظرية التعددية الثقافية، وأظهرت «الإمكانية» الكبيرة لاختيار الناس. ولذلك، تتسم الثقافة الحديثة بالانفتاح الكامل تجاه رسم الصورة النموذجية للشخصية. ويقوم الصينيون الآن باختيار شخصيتهم الذاتية وضعها من جديد في ضوء مثل تلك الأحوال البيئية.

الهوامش

(1) انظر كتابي المتواضع: «علم اختيار الشخصية»، الباب الثاني، حيث ناقشت هذا الموضوع، دار الشعب للنشر في مقاطعة لياولينغ، طبعة عام 1991.

(2) «الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز»، المجلد 42، ص 123. [بالصينية].

(3) اقتباس من كتاب «الانتشار المتبادل بين الثقافات المتعددة الجنسيات» من تأليف: لاري ساموفاي Larry A. Samovay وغيره، مكتبة سان ليانغ، طبعة عام 1988، ص 26.

(4) ماسلي: «الثقافة والذات»، دار الشعب للنشر في مقاطعة تشجيانغ، طبعة عام 1988، ص7.

26 أفول نجم الشخصية المتسلطة ونمو الشخصية الذاتية

يعد أفول نجم الشخصية المتسلطة التقليدية ونمو الشخصية الذاتية الحديثة أبرز تجسيد لتطور شخصية الصينيين في حركة التحديث.

والشخصية المتسلطة هي من خصائص الشخصية المألوفة لدى الصينيين «التقليديين». وناقش الباب الثاني الجزء الأول من من هذا الكتاب الخصائص الأساسية للشخصية المتسلطة. ونقول باختصار، إن الشخصية الصينية التقليدية تتسم باتجاه الانصياع للسلطة دون قيد أو شرط والاتكالية وقانون السيطرة على الآخرين والقمع الذاتي. وتعد تلك الشخصية المتسلطة بمنزلة نتاج الثقافة الاجتماعية التقليدية.. إن نظام الدرجات المقسم تقسيماً صارما في المجتمع العشائري، والثقافة الأخلاقية التي تتمحور على علاقة رابطة الدم والقرابة العشائرية تفرض على الناس الامتثال للسلطة دون قيد أو شرط والإيمان بها. ويتسم الاتجاه القديم لتقديس القيم في الثقافة التقليدية

بالتأثير الهائل إزاء تعزيز نزعة الشخصية المتسلطة. وكما ذكر وي جنيغ تونغ:

«إن الاتجاه القديم لتقديس القيم شكل بعض ملامح القومية الصينية حقاً، مثل الشخصية المتسلطة ونزعة المحافظة على القديم أو مقاومة التغيير، ويتضمن ذلك الاتجاه أهم العوامل الثقافية العريقة وغيرها. وفي البدء كان ذلك النوع من اتجاه القيم يؤثر في تصوير الشخصية. وبعد أن يتبلور الشكل النهائي لصورة الشخصية النموذجية تصبح طبائع تلك القيم القوة الأساسية لحماية مثل اتجاه القيم وانتشاره. وربما كان التأثير المتبادل بين تلك الطبائع الركيزة الأساسية لعدم اندثار التقاليد الكونفوشيوسية الصينية الموغلة في القدم»[1].

وفي تحولات التحديث تحطم النظام العشائري وعلاقة الدرجات في المجتمع التقليدي، وتعرضت وجهة النظر إلى القيم في الثقافة التقليدية للنقد العنيف والإنكار. وفي ظل هذه الأحوال، أفل نجم الشخصية المتسلطة التقليدية يوماً بعد يوم. ومع تعميق حركة التحديث، تأسست الشخصية الذاتية الحديثة التي تتناسب مع المسيرة التاريخية الموضوعية للتحديث بصورة تدريجية.

وما يسمى بالشخصية الذاتية يعد نوعاً من الشخصية التي تتعارض مع الشخصية المتسلطة في التقاليد الصينية. ومن الملامح الأساسية للشخصية المتسلطة ضعف الوعي الأساسي الذاتي والاعتماد على شبكة العلاقات العشائرية والاجتماعية والاتكال على السلطة والامتثال لها ورسم الصورة النموذجية لسلوك الشخصية الذاتي والسيكولوجي بصورة تامة طبقاً لمبدأ «السلطة هي القانون». ومن ثم نقول بدقة إن الشخصية الصينية التقليدية مازالت لم تتخلص من الأوضاع غير الناضجة. وظل الإنسان الصيني يفتقر إلى مؤهلات التمتع بالاستقلال الذاتي ولا يستطيع تجسيد حياته الذاتية وقيمه إلا في ضوء الاعتماد على شبكة العلاقات الاجتماعية التقليدية. وعلى العكس من ذلك تهدف حركة التحديث الصيني في تخليص الفرد من مثل أوضاع الاتكال وتحصل قدرته الذاتية الكامنة وقيمه على الوظيفة الكاملة وتحقق الإنجازات. وتعد الشخصية الذاتية التي تتناسب مع التحديث بمنزلة التأكيد على وعي الفرد ومبادرته الذاتية إزاء شخصيته الذاتية.

وتبين الصفات الأساسية للشخصية الحديثة قدرة الفرد على تغيير أنشطة حياته الذاتية إلى هدف الوعي الذاتي، ولذا يستطيع أن يدرك أنشطة حياته الذاتية. وتعتبر الشخصية بمنزلة الملامح والصفات الخاصة والصورة الكاملة للفرد، وتظهر الوعي الذاتي لأنشطة حياته الواعية. ولا تتحدد الشخصية انطلاقاً من فرض القيود عليها فحسب، بل تحددها الأشياء التي تصنع إيجابيتها الخلاقة أيضا. ويمنح الفرد حياته الذاتية القائمة وشخصيته الاتجاه والمغزى.

ويتضمن الموضوع الأساسي للشخصية الحديثة المغزى الفعال والإبداع الإيجابي والواعي الذاتي والمبادرة الذاتية. ونقول بصورة محددة إن ذلك الموضوع الأساسي يشتمل بصورة رئيسية على الجوانب الثلاثة التالية: الدور الفعال، والإبداع، والمبادرة الذاتية. وما يطلق عليه «الدور الفعال» هو أن الإنسان لا يقبل الصورة النموذجية الثقافية بصورة غير واعية وسلبية، بل يقوم بـ «تعميم» التأثير الثقافي من خلال الأنشطة الإيجابية الأساسية من أجل وجوده الذاتي والسيكولوجي الواعي. كما يستخدم وظائفه العضوية للإفادة من الأشياء التي تقبلها بصورة تامة. ويعتمد الإنسان اعتماداً كبيراً على الثقافة الاجتماعية من أجل تنمية ذاته وتطويرها، وليس من أجل الثقافة الاجتماعية ذاتها. ويتمتع الإنسان بالوعي تجاه شخصيته الذاتية ويعرف البيئة الثقافية التي تعيش فيها ذاته. كما يتسم بالهدف المحدد إزاء تأسيس الشخصية الذاتية وتطويرها ويستطيع أن يجعل إرادته الذاتية وسلوكه يمتثلان للهدف الذي حدده وأدركه بنفسه. وحياة الإنسان هي الجهود المضنية التي يبذلها لتحقيق هذا الهدف. و «الإبداع» هو أسمى تعبير للدور الفعال الواعي الأساسي. وصنع الإنسان ذاته أثناء الأنشطة التي يمارسها من أجل تغيير الطبيعة وإبداعه في العالم، وتستطيع ذاته أن تغير نفسها وترسم الصورة النموذجية الذاتية وتصنع جوهرها. ويعد صنع الإنسان لشخصيته الذاتية أهم إبداع داخل الأنشطة الإبداعية كلها. وكما ذكر ماركس: «إنه كلما ابتعد الإنسان عن المعنى الضيق للحيوان، ازداد وعيه في صنع تاريخ ذاته»[2]. و «أوضاع الإنسان العادية هي الأوضاع التي صنعها بنفسه وتتلاءم مع مشاعره»[3] وتعبر «المبادرة الذاتية» عن الإنسان «سيد ذاته ونفسه» وتجعل النفس معيار تقييم كل علاقات الحياة طبقاً لجوهر

الذات. ولذلك، وطبقاً للمتطلبات الذاتية، يجتاز الإنسان هدف تأسيس ورسم الصورة النموذجية لشخصيته الذاتية في حرية ومن تلقاء نفسه وبصورة مستقلة. وليس مثل الشخصية التقليدية التي تستخدم المعيار الخارجي لتقييم حياتها الذاتية. وتحلي الإنسان بالمبادرة الذاتية يمكن أن يجعله يمتلك الدور الفعال والإبداع، ويستطيع أن يستفيد من سلطة اختيار ذاته بصورة معقولة، ويرسم الصورة النموذجية لذاته بصورة فعالة. و نقول إن المغزى الحقيقي للشخصية الحديثة يكمن في مبادراتها الذاتية التي تشمل مغزى الاستقلال والحرية وتقرير المصير. وفي الوقت نفسه، تدل على مسؤولية الإنسان تجاه ذاته.

وتتسم الملامح الرئيسية للشخصية الذاتية بالموضوع الأساسي، وأنشطة الإنسان الأساسية هي الأنشطة الفعالة والمبدعة والتي يقررها من تلقاء نفسه. ويختلف هذا النوع من الشخصية عن الشخصية المتسلطة التقليدية اختلافاً كبيراً. وأفول نجم الشخصية المتسلطة التقليدية وتأسيس الشخصية الأساسية الحديثة هو محك تطوير شخصية الصينيين في حركة التحديث. وربما يمكن القول إن يقظة الوعي الأساسي ونضجه أهم تغيير اجتازه الصينيون في حركة التحديث.

ومن ثم، وعلى النقيض من الشخصية المتسلطة التقليدية، يتسم الصينيون الذين اجتازوا التجربة القاسية في حركة التحديث وإعادة رسم صورتهم النموذجية بالوعي الذاتي الإيجابي الذي يشمل بصورة أساسية «الاحترام الذاتي» و«الإحساس بالقدرة». ويعد «الاحترام الذاتي» نوعاً من تأكيد الإحساس بالذات وقبولها واحترامها من خلال الأسلوب الإيجابي. ولا يعتقد الإنسان الذي يتحلى بالاحترام الذاتي والشجاعة بأنه يتفوق على الآخرين، بل يتمتع بالثقة الذاتية والإيمان بنفسه في قدرتها على التغلب على نقائص الذات. و «الإحساس» بالكفاءة هو إيمان الإنسان بقدرته الذاتية والكامنة التي يحصل عليها من أجل التغلب على الطبيعة والبيئة الاجتماعية. واحتياج الإنسان للتغلب على البيئة يدفعه إلى اكتساب الكفاءة. ويعد إحساس الإنسان بالكفاءة بمنزلة النضج الحتمي لديه. ويتمتع «الاحترام الذاتي» و«الإحساس بالكفاءة» وغيرها من الوعي الذاتي الإيجابي بالمغزى المهم جداً في تأسيس الشخصية الذاتية. وكما أشار العالم النفسي الأمريكي

روجرس R.C. Rogers إلى أن:

«المفهوم الذاتي الإيجابي قدم الظروف المواتية تماماً التي تجعلنا نعالج الحياة معالجة صحيحة، وشكل أساس قوة الشخصية العظيمة...»[4]

ويعد «الاحترام الذاتي» و«الإحساس بالكفاءة» تأكيداً وإثباتاً لتماثل شخصية الإنسان وكليتها وخصوصيتها وإبداعها، بالإضافة إلى تأكيد «القيم الذاتية» وإثباتها بصورة كافية. وأشار عالم الاجتماع النفسي الأمريكي تشارلز هورتون كولي Charles Horton Cooley إلى:

«يعد المفهوم الذاتي إلى الأبد نوعاً من الوعي في خصوصية حياة الإنسان أو اختلافها. ويجب أن تتسم حياة الآخرين المختلفة بالهدف والجهود المضنية حتى يمكن تحقيقها. وإذا واجهت جهود الإنسان المضنية ورغباتها الشديدة الأشياء التي تتفق مع اتجاهه أو لا تنسجم مع إدراكه للتبادل مع الآخرين، فإنه يتمسك بها تمسكاً شديداً. إن مثل الجهود المضنية التي أكثر ما يحتاج الناس إليها تحث على تجسيد خصائص السلوك الذاتي لتعزيز الاختلاف الذاتي الذي تتطلبه الحياة العامة».

«ويحتاج الإنسان داخل كل عملية إنتاجية عالية المستوى نسبياً إلى المعرفة والثقة بالنفس. ونقول بصورة محددة إن الإنسان يشعر بأن نفسه تمتلك شيئاً ما يتسم بالقيم، وفي الوقت نفسه يتحلى تجاه إبداع تلك الصفة وتبادلها وتحقيقها، ويستطيع التمكن منها وتنقيتها من الشوائب وتنظيمها ودمجها من خلال اجتياز فترة طويلة من التفكير العميق في الاهتمام بالذات. ووجود مثل هذه الكفاءة يجعل ذاته تتخلص من المحاكاة من ناحية، وتنبذ التقلبات من ناحية أخرى. وبذلك يستطيع مواجهة الذات الحقيقية، بمعنى عدم الشعور بالخجل ولا بالغرور والغطرسة أيضاً. ولذلك يجب على كل إنسان ذكي أن يتحلى بالشعور الذاتي القوي. كم يجب عليه أن يشعر بالغبطة إزاء إجهاد تفكيره في خصائصه الذاتية وتركيز اهتمامه على مميزاته الفردية، ويستغل ذلك في تعلم الكمال وتنظيم ذاته المميزة والتعبير عنها»[5].

ويعد الوعي بالخصوصية الذاتية والقيم الفردية الكافية وإثباتها من الجوانب المهمة في الشخصية الحديثة. وفي المجتمع الصيني التقليدي، أظهرت الشخصية الذاتية خصائص مبدأ «السلطة هي القانون» من جراء

ضعف الشعور الأساسي والوعي الذاتي، ولم تظهر الشخصية التي حظيت بالمدح والثناء الاجتماعي والذاتية المتميزة والتي تلتحم مع الجماهير. ولا يسعى الناس وراء القيم الذاتية، بل يؤكدون الاعتماد والاتكال على السلطة ونظام الدرجات والعلاقات العشائرية. وفي حركة التحديث، حظيت خصوصية الشخصية الذاتية بالاعتراف والاحترام نتيجة يقظة الوعي الأساسي لديت الصينيين ونضجه. ولا داعي للفرد أن يبحث عن الذات المميزة التي تتشابه وتتماثل مع الآخرين مرة أخرى. كما لا توجد ضرورة لأن يخفي شخصيته المميزة مرة أخرى أيضاً. بل ينمي طاقته الكامنة الذاتية ويحققها بصورة كاملة أثناء البحث عن الذات المميزة، ولذا يحقق التطور الشامل للكفاءة الذاتية. وفي السنوات العشر الأخيرة، أصبح مفهوم «الذات المميزة» و «القيم الفردية» و «تحقيق الذات» من المفاهيم العادية في حياة الناس. كما أصبحت من المفاهيم شائعة الاستعمال وتحظى بالمعرفة الاجتماعية المشتركة ونقطة انطلاق محاسبة النفس واختيار الشخصية الذاتية. ومن ناحية أخرى، قدم تطور الحياة الاجتماعية الحديثة وانفتاح نظام الثقافة الاجتماعية وتعدد الإمكانية الواقعية التي يمكن أن تعطي الكفاءة والخصوصية الذاتية دورها الكامل.

وقصارى القول، بدأ الصينيون المعاصرون في عملية تحولات التحديث الصيني إدراك مغزى قيم الشخصية الذاتية والقيام بالبحث والاكتشاف الإيجابي لتحقيق القيم الذاتية، وذلك نتيجة أفول نجم الشخصية المتسلطة التقليدية. وأياً كانت صعوبة هذا الاكتشاف واحتمال وجود بعض الأخطاء المعينة في المجتمع وسوء التفاهم في البحث عن الذات، فإن هذا البحث والاكتشاف هما في حد ذاتهما الوعي الذاتي الإيجابي وأسلوب الحياة الإيجابية، ويجسدان اختيار الشخصية الإيجابية، ويرمزان إلى إنشاء الشخصية الأساسية التي تتلاءم مع التحديث. ولكن، شخصية الصينيين الأساسية، مثل حركة التحديث الصيني التي مازالت قابعة في مرحلة الانتشار والإنجاز، تعيش في عملية التأسيس، وربما غير كاملة وناضجة في العديد من الجوانب، وربما كان تطورها مازال غير متناسق ومتوازن. وفي بعض الأحيان مازال يوجد احتمال رؤية بعض ظلال الشخصية المتسلطة التقليدية. ولكن، على كل حال، جسدت مثل الشخصية الأساسية اتجاه

تطور الشخصية الذاتية لدى الصينيين المعاصرين. كما جسدت الأسلوب الإيجابي واختيار الصينيين لتأسيس الشخصية الذاتية في حركة التحديث.

الهوامش

(1) وي جينغ تونغ «الكونفوشيوسية والصين الحديثة» دار الشعب للنشر في شنغهاي، طبعة عام 1990، ص 32.

(2) «مختارات ماركس وإنجلز»، المجلد الثالث، ص 457. [بالصينية].

(3) «الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز» المجلد 20، ص 536. [بالصينية].

(4) اقتباس من كتاب «علم نفس الحياة» من تأليف: جيمس لوجو James O. Lugo وجيرالد هيرشي Gerald L. Hershey، دار الشعب للنشر في كانتون، طبعة عام 1987، ص 358.

(5) تشارلز، «الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعي» دار هوشيا للنشر، طبعة عام 1989، ص 114، 115.

27 الاستجابة السيئة والشخصية المريضة

تعتبر تحولات التحديث بمنزلة التغيير الكبير للثقافة الاجتماعية داخل أوضاع حياة الصينيين. ولم يكن هذا التغيير الثقافي الاجتماعي جزئياً وفرعياً، بل كان التغيير الكبير الشامل والكامل. كما كان بمنزلة التحول والانتقال من تكوين ثقافي اجتماعي ما إلى تكوين ثقافي اجتماعي آخر. ومن المؤكد أن يؤدي التغيير الكبير في أوضاع الحياة إلى التغيير في الشخصية الذاتية للصينيين، ثم يكون هناك التطور من الشخصية المتسلطة التقليدية إلى الشخصية الذاتية الحديثة. وتشهد شخصية الصينيين في حركة التحديث التغيير الهائل في الوقت الحاضر. ومازال اندثار الشخصية المتسلطة ونمو الشخصية الذاتية يعتبران التطور الشامل لشخصية الصينيين واتجاه تطورها. وتتسم أحوال كل فرد في المجتمع بالاختلاف الكبير، فهل مستوى التغيير الذي شهده كل فرد في مسيرة تطوير الشخصية في حركة التحديث يتوافق مع المسيرة الموضوعية لحركة التحديث أو لا؟ أو حدثت بعض الأخطاء المعينة والاستجابة السيئة. وهل أدى

مستوى ذلك التغيير في التطوير السليم والإيجابي للشخصية أو حدثت بعض العقبات النفسية وظهرت أعراض الشخصية المريضة. ويختلف ذلك كله باختلاف الأفراد. والأسباب الأساسية وراء ظهور هذه الاختلافات أو الأخطاء هي:

1- اختلاف مجال أنشطة حياة الأفراد (في المدن والأرياف، والمناطق الساحلية والداخلية) واختلال توازن تطوير وتحديث المجالات المختلفة.

2- اختلاف الطبقات والفئات والمجموعات الاجتماعية التي ينتمي لها الأفراد، وتباين التغييرات والتأثيرات التي تجتازها الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة في حركة التحديث.

3- اختلاف درجة تأثر الأفراد بحركة التحديث وتحولات الثقافة الاجتماعية وإدراكهم وقبولهم لتلك التحولات.

4- اختلاف درجة وعي الأفراد وتفاعلهم وإبداعهم عند قيامهم باختيار الشخصية الذاتية وإعادة رسم صورتها النموذجية أثناء الاستجابة لتحولات التحديث. وعكس هذا الاختلاف التفاوت في الوعي الأساسي ومستوى تطوير الوعي الذاتي.

5- قدمت حركة التحديث الإمكانية الكبيرة لتطوير الشخصية الذاتية، ويتعدد ويتنوع الأشخاص في جانب مصداقية المثل العليا للشخصية وتصميم معيار تطوير الشخصية الذاتية واختيار نموذج التطور وأسلوبه.

6- إن حركة التحديث عملية تاريخية طويلة في الصين اجتازتها عدة أجيال، وهناك اختلاف بين كل جيل من حيث نقطة الانطلاق في الحياة وقبول تعلم تكيف الأوضاع حسب الحاجات الاجتماعية، واختلاف أساس قبول نموذج التحديث لكل جيل، وغير ذلك كثير.

إن تطوير شخصية الصينيين في حركة التجسيد يجسد الأوضاع المختلفة والمستويات المتباينة من جراء الأسباب المذكورة في الجوانب السابقة وغيرها من الأسباب الأخرى. وهناك بعض الأفراد الذين يستطيعون الاستجابة للحياة الحديثة بوعي نظراً لدرجة تأثرهم بحركة التحديث وإدراكهم وقبولهم لها المرتفعة نسبياً، ويعدلون الهيكل النفسي الثقافي الذاتي حسب متطلبات التحديث. ولذا يطورون الشخصية الذاتية الحديثة. وربما كان هناك بعض الأفراد الذين ربما لا يفهمون حركة التحديث ولا يتقبلونها ويتولد لديهم

شعور الإقصاء والمقاومة من الناحية النفسية. ولذلك، استجابتهم سيئة لتحولات تحديث الثقافة الاجتماعية، ويسببون العقبات النفسية والقلق أو أعراض الشخصية المريضة.

وتعد مشكلة الاستجابة السيئة وأعراض الشخصية المريضة ظاهرة مصاحبة لا يمكن تجنبها في مسيرة تحولات التحديث. ومما لا شك فيه أن النتائج المباشرة لتحولات التحديث سببت في المقام الأول - عدم توافق الشخصية. وقد تكونت خصائص شخصية «التقليديين» وميولها في ظل أوضاع الثقافة الاجتماعية التقليدية. ورسمت الثقافة التقليدية «هيكل الشخصية الرئيسي» القومي أو «الشخصية الاجتماعية»، وجسدت قيم تكوين تلك الثقافة ومغزاها ومعيارها. وتقبل «التقليديون» تصميم الثقافة التقليدية الأولى للشخصية وقاموا باختيار نظام الأهداف الذاتية حسب معايير تصميم الثقافة التقليدية. ومن ثم يتلاءم نموذج الشخصية السليمة للتقليديين مع الثقافة التقليدية. ولكن بدأ نظام الثقافة التقليدية في ظل الصدام مع حركة التحديث في الاندثار والانحلال، ولم يعد الثقافة الرئيسية أو الأساسية في المجتمع. وشعر الناس في ظل هذه الأحوال بأن أوضاع حياتهم تتعرض للتخريب، وأن المعايير التي اعتمدوا عليها تتعرض للهجوم أيضاً، ولم تعد «التطلعات المرتقبة» للأفراد شائعة وفعالة. لقد تحطمت الأشياء المألوفة لديهم، والعديد من الأشياء التي يواجهونها غير مألوفة بالنسبة لهم. وباختصار، إنهم شعروا بنوع ما من «فقدان المعاني». إنهم يشبهون «المهاجرين» في الثقافة، ويشعرون في كل مكان بعدم الارتياح والانسجام وعدم القدرة على التعود والتفاهم. ولذلك، تولد لديهم القلق والهم النفسي والقمع أو الصدام النفسي. وتسبب ذلك فيما يطلق عليه «أزمة الشخصية». وقد ناقش عالم دراسات التحديث الأمريكي سيريل. أي بلاك مثل تأثير حركة التحديث على الشخصية الذاتية بصورة تفصيلية وأشار إلى أن:

«تأثير التحديث على استقرار الشخصية ومصداقيتها يجعل الإنسان يشعر بالقلق. وشكّل المجتمع التقليدي خصائص الشخصية المستقرة إلى حد ما انطلاقاً من بيئته، ويجتاز التراث الثقافي في ذلك المجتمع العديد من السنين والتغييرات البطيئة جداً. لكن القدماء هم المتعهدون المعترف

بهم لذلك التراث الثقافي. ويتربى الأطفال في الجو الآمن داخل الأسرة والجيران، ويشعرون بالغبطة عندما يقيمون علاقات مباشرة مع أفراد تجمعاتهم الاجتماعية. ولكن يبتعدون عن الأفراد الذين يتحلون بالتراث الثقافي المختلف إلى حد ما. وتساعد هذه البيئة والعلاقات على تكوين مشاعر المصداقية القوية والثقة بالنفس. ولذلك، لا تعرف الغالبية العظمى من أفراد المجتمع التقليدي سبب الشعور بالقلق الذي أصابهم نتيجة الصدام بين المعايير والقيم.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن تعديل البيئة النفسية الأساسية التي تم تكييفها للإنسان بسبب العصر الذي يعيش فيه، وربما كان من النادر جداً وجود الشخصية العدوانية والسلبية والمصاب بخلل عقلي والمجنون، لكن شهدت بيئة تكيف الإنسان التغييرات الهائلة في مسيرة التحديث، وضعفت سرعة التوارث التقليدي الذي تحول إلى المعايير والقيم الأساسية غير المحددة. وتتعرض البيئة التي تربى فيها الأطفال ومعايير أعدادهم لتأثيرات التيارات المتنوعة بصورة مباشرة. وغير التمدين هيكل الأسرة وفك التجمعات الأهلية المتمركزة في الأماكن، وهجر المزارعون الأرياف وهرولوا إلى المدن وسافروا إلى الخارج أيضاً. إن «مكننة» العمل الجسماني والتغييرات التي شهدتها العلاقة بين الرجل والمرأة تؤثر تأثيراً عميقاً على المصداقية القديمة لدور الرجل والمرأة المختلف عليه منذ عدة قرون.

ومقارنة بالمجتع التقليدي، فإن الإنسان في المجتمع الحديث الذي لم يتعرض كثيراً لهيمنة بيئته - يقودنا ذلك إلى القول بأنه - أكثر حرية. ولكنه في الوقت ذاته مسلوب الحيلة لتحديد أهدافه الذاتية. وفي عصر الاضطراب الكبير، يستعد الإنسان للتخلى عن حريته الذاتية من أجل أهدافه القيادية. وذلك ما يطلق عليه فقدان مميزات مصداقية الإنسان في المجتمع التغييرات السريعة. وتميل البيئة الحديثة إلى إضفاء الطابع الذري على المجتمع وتجعل أفراده يفقدون الإحساس بالتعايش والشعور بالانتماء، والافتقار إلى ذلك لا يمكن أن يجعل الإنسان يشعر بالرضى إزاء تحقيق ذاته. ويعتبر عدد قليل من الأفراد الشعور الذاتي من عدم الأمان والإحساس بالقلق والهم رمزاً للعصر الحديث. وذلك يمكن أن يقتفي أثر الانشقاق الاجتماعي العميق الذي جلبه التحديث بصورة مباشرة»[1].

وتشهد بيئة حياة الناس في ظل تحولات تحديث الثقافة الاجتماعية الواسعة النطاق التغييرات الواضحة إلى حد ما. وعلى هذا النحو، تتغير السيكولوجية والسلوكيات بصورة غير مناسبة في الثقافة الأصلية والاجتماعية المنسجمتين، وينتاب الناس عادة الشعور العنيف من القلق والهم والصراع الداخلي، وما ينجم عنه من عقبات الوعي الذاتي للشخصية الأساسية.

إن «عقبات الشخصية» هي عدم النضج أو التشوه الذي تشهده عملية تطوير السيكولوجية والناجم بصورة مشتركة عن الأسباب البيولوجية والنفسية والبيئة الاجتماعية وغيرها من الأسباب الأخرى، مما يجعل الوظيفة النفسية للإنسان مضطربة وغير مستقرة ويؤدي ذلك إلى أن الإنسان يعالج الأشياء المحيطة به من خلال أسلوب الاستجابة السيئة ويصدر عنه رد الفعل العاطفي القوي ويسبب الاختلاف في أسلوب التفكير والسلوك ويعرقل تحقيق نمو الشخصية وأهداف التطور. وتجسد تلك الأحوال الخطيرة أعراض الشخصية المريضة والشخصية المعارضة للمجتمع.

وتتسم عقبات الشخصية بالعديد من الأشكال التي تؤثر في سيكولوجية الإنسان من أهمها الأنواع التالية:

١- النكسة: إن النكسة هي تعرض الجهود المضنية التي يبذلها الإنسان لاكتشاف ذاته للعراقيل، وربما يتولد عن تلك الجهود مشاعر القلق والاضطراب والتوتر العصبي عندما يصيبها الفشل. وقد يوجد لدى الناس احتمال الإخفاق إذا ظلوا يعالجون الحياة اليومية من خلال أسلوب التفكير والسلوك التقليدي في ظل أوضاع التحولات الواسعة النطاق التي تشهدها الثقافة الاجتماعية. إن تحطيم «الأسلوب التقليدي» يجعل الناس يتولد لديهم الشعور بالنكسة. والنكسة هي المشاعر الجليلة التي يشعر بها الإنسان عندما يتعرض للعقبات أثناء تلبية الحاجات وتحقيق الأهداف. وعندما تتعرض أهدافنا للمقاومة من جراء بعض العقبات المعينة، فإن العقبات أو المقاومة تمنع تقدمنا نحو الأهداف المحددة أو نفتقر إلى الأهداف المعقولة، مما يؤدي إلى النكسة. ويشعر الإنسان في أوضاع النكسة بالعقبات الكبرى عند تلبية حاجاته الأساسية أو بلوغ أهداف تطلعاته الذاتية، ويزيد مغزى

الهدف وقوة المقاومة من حدة النكسة.

ويصدر عن البشر المختلفين ردود الفعل المتباينة تجاه أوضاع النكسة، ويقوم بعض الذين يتحلون بقوة التحمل القوية نسبياً أو بالقدرة الذاتية التي اجتازت التعزيز، بتحسين الأسلوب الذاتي في مواجهة النكسات من أجل التغلب على العقبات أو تعديل اتجاه الجهود المضنية وتعلم انتشال النفس في مأزق النكسة أو الخضوع للعقبات والاعتراف بالإخفاق الذاتي. ومعالجة النكسة على هذا النحو يبدد أحوال التوتر العصبي النفسي الناجم عنها. ولكن هناك أيضاً بعض البشر الذين يتغيرون في مواجهة النكسة وينتابهم الشعور بالقلق والاضطراب وعدم الأمان ومشاعرهم أكثر توتراً وينتهجون أسلوب رد الفعل العنيف. إن البشر الذين ينتهجون أسلوب الهجوم على الأفراد والأشياء الخارجية أو يحولون أسلوب الهجوم تجاه الذات الداخلية يبددون مشاعر التوتر العصبي الذاتي من خلال تأنيب الذات. ولكن، ينجم عادة عن مسيرة الهجوم على الذات العقبات المعنوية والسيكولوجية الأكثر خطورة، بل تحدث التحول في اتجاه الشخصية ومظاهر مرضها.

2- الصدام: إن ما يسمى بالصدام هو عدم قيام الإنسان بتحديد الاختيار بسبب وجود نوعين أو أنواع مختلفة من تناقض التطلعات وما تجلبه من أوضاع التوتر العصبي حيث الآلام والمعاناة. والصدام هو تجسيد لنوعين أو عدة أنواع من تطلعات الإنسان الموجودة داخله. ولا يستطيع الإنسان أيضاً أن يمارس الاختيار بين نوعين متعارضين من التطلعات لأنه يقع في مفترق الطرق، ويتغير ويصبح متوتراً ومهموماً. وهذا المأزق هو الصدام السيكولوجي للإنسان بصفة أساسية. ولكن يتخذ هذا الصدام السيكولوجي العوامل البيئية أساساً له. وفي ظل أوضاع تحولات الثقافة الاجتماعية الواسعة النطاق وتحول الثقافة الصينية الحديثة و«ثنائية هيكلها»، تظهر الثقافة التقليدية والحديثة ووجهة نظرهما إلى القيم العديدة من التناقضات والصدامات التي من المؤكد أن تحدث التأثير الهائل في الشخصية الذاتية وتعزز الصدام النفسي لأفراد المجتمع. أو نقول إن الصدام النفسي لديهم يعد نوعاً من انعكاس الصدام بين الثقافة الاجتماعية ووجهة النظر إلى القيم إلى حد كبير.

3- الضغط النفسي: إن ما يطلق عليه الضغط النفسي يشير إلى النكسة والصدام والتهديدات الداخلية والخارجية التي يتعرض لها الإنسان والتكوينات النفسية غير المتوازنة الناجمة عن العقبات، واستخدام ذلك الضغط النفسي في مجابهة إخفاق الأسلوب الروتيني للتهديد. ويشكل كل إنسان في عملية مجابهة التهديد الأسلوب الذي يتسم بخصائصه الذاتية وعُرف نجاح التعامل على الناس. وعندما يتحطم النموذج الذاتي لمجابهة التهديد، يتولد عنه الضغط النفسي داخل الإنسان. وعندما تشتد قوة الضغط النفسي تجعل الوظيفة الجسدية والنفسية للإنسان تتعرض للتأثيرات الخطيرة، ولذا تسبب لسلوكه واختياره العقبات. وعلى هذا النحو، يكون الضغط النفسي هو السبب وراء الأسلوب غير المنسجم وعوامل الاضطراب.

ويمكن أن يحدث الضغط النفسي نتيجة الأشياء المحزنة والمؤلمة والخطيرة والتي تسبب القلق أو غيرها من الأشياء الأخرى التي تجعل الإنسان يشعر بالضيق. وتعد النكسة والصدام بمنزلة مصدرين مهمين لتكوين الضغط النفسي، بالإضافة إلى أن الأعباء الداخلية والبيئية من المصادر المهمة التي تحدث الضغط النفسي أيضاً. ومن ناحية، يتمسك الصينيون بصورتهم الذاتية ويطلبون أهداف المثل العليا فائقة الحد من داخل نفوسهم، ولا يدخرون وسعاً في سبيل السعي وراء النجاح، مما يزيد من أعبائهم الداخلية. ومن ناحية أخرى، ينجم عن متطلبات البيئة ومسؤولية المجتمع والجماعة والالتزام الأسري ووجود الآخرين ومقارنتهم الأعباء الضخمة التي تؤدي إلى الضغوط النفسية الخطيرة. ولا سيما في ظل أحوال التغيير الثقافي الاجتماعي الكبير حيث أصر الصينيون على الصورة الذاتية الأصلية التي لا تتناسب مع الوقت الحاضر، ومن الصعب جداً السعي وراء تحقيق أهداف المثل العليا، مما يجعل الإنسان الصيني أكثر تعرضاً للشعور بالضغط النفسي.

وعلى الصعيد النفسي للإنسان، تعد النكسة والصدام والضغط النفسي من الأشكال المتعددة التي تظهر في عقبات الشخصية، وعندما تتجمع داخل الآلية السيكولوجية للإنسان تعرقل الوظيفة النفسية المعتادة وتقاوم النمو العادي للشخصية. ويعد وجود تلك العقبات بمنزلة العوامل الكامنة

غير السليمة لدى الشخصية. وقد ينجم عن الأحوال الخطيرة عقبات الشخصية المريضة. وما يطلق عليه «الشخصية المريضة» هي الشخصية التي تستجيب استجابة سيئة لمتطلبات الثقافة الاجتماعية. وإذا جسد تعديل النظام الفكري للإنسان العقبات أو الشذوذ فإن ذلك يجعل سلوكه الخارجي لا يتفق مع القانون والأخلاق، ولا يتناسب مع متطلبات قيم الثقافة الاجتماعية ويصبح شخصاً غريباً، أو يمكن القول إنه يتسم بأعراض الشخصية المريضة. وينتمي إلى نطاق أعراض الشخصية المريضة الأمراض العقلية والتشوهات الشخصية، ناهيك عن بعض البشر الذين لا يقتربون من الآخرين، ويتصفون بالمشاعر الفاترة، ويشوهون صورة الآخرين، ولا يستطيعون مجابهة الحياة، ويصيبهم التوتر العصبي وسرعة الانفعال دائماً، والسلوك المتصلب ويفتقرون إلى القوة الإبداعية، ويتحلون بالنزعة الاستبدادية في الحياة. ويشكل اتجاه سلوك هؤلاء البشر أسلوب الأعمال غير المناسب وغير المسموح به تجاه النفس والمجتمع. كما أنهم ليسوا من المجانين، ولا يوجد لديهم عيب الافتقار إلى القدرة. ولكنهم شاذون في جانب المشاعر والأحاسيس والشخصية والعادات، ويعوزهم إحساس العدالة ومفاهيم الأخلاق، وقدرة السيطرة على الذات واهية. ولذلك، لا يحظى هؤلاء البشر بالترحيب من جانب المجتمع. وترى الدراسات العامة أن أعراض الشخصية المريضة تتضمن بصورة أساسية الأنواع التالية: الشخصية المنحرفة، الشخصية المنفصمة، شخصية التمسرح، شخصية احترام وحب الذات ، الشخصية المعارضة للمجتمع، الشخصية الوسيطة، الشخصية المنطوية، الشخصية الاتكالية، الشخصية القمعية، وشخصية الهجوم السلبي وغيرها من الشخصيات الأخرى. وظهرت أعراض الشخصية المريضة إلى حد كبير في عملية تحولات تحديث الثقافة الاجتماعية الصينية من جراء الاستجابة السيئة لبعض البشر الصينيين.

وتعتبر أعراض الشخصية المريضة بمنزلة أوضاع استجابة الإنسان الصيني السيئة لتحولات الثقافة الاجتماعية. كما أن خصائص وأعراض الشخصية المريضة ليست مشكلة فردية فحسب، بل إنها مشكلة اجتماعية أيضاً. إن معالجة البشر الصينيين الذين يتسمون بأعراض الشخصية المريضة، ومساعدتهم على التغلب على تلك الاتجاهات والأعراض الشخصية

المريضة، واستعادة الشخصية السليمة أو الاقتراب منها تلعب دوراً مهماً في تأسيس شخصيتهم السليمة وانسجام المجتمع واستقراره. ويعد ذلك من المشاكل التي يبذل الصينيون جهودهم المضنية لإيجاد الحلول لها في عملية تقدمهم نحو التحديث.

الهوامش

(1) سيريل. اي. بلاك، «القوة الدافعة للتحديث»، دار الشعب للنشر في مقاطعة سيتشوان، طبعة عام 1988، ص 42-43.

28 معايير الشخصية السليمة عند الصينيين المعاصرين

شهدت أحوال حياة الصينيين في ظل صدامات حركة التحديث التغييرات الواسعة النطاق، مما حفز الشخصية الذاتية للصينيين على أن تحدث التغييرات المناسبة أيضاً. إن الاتجاه الأساسي والرئيسي لتطوير الشخصية في حركة التحديث هو الانتقال من «التقليديين إلى «المعاصرين»، ومن الشخصية المتسلطة التقليدية إلى الشخصية الذاتية الحديثة. وفي الوقت الحاضر، تقوم الغالبية العظمى من أفراد المجتمع في عملية التقدم نحو التحديث بفهم فكر التحديث وقبوله بصورة تدريجية، ويعدلون شخصيتهم الذاتية ويختارونها ويعيدون رسم صورتها النموذجية طبقاً لمتطلبات التحديث واتجاهه. كما يؤسسون الهيكل النفسي ونموذج السلوك اللذين يتناسبان وينسجمان مع المسيرة التاريخية للتحديث، ويطورون الشخصية السليمة الإيجابية. ولكن يعد نوع الشخصية الذاتية واتجاهها بمنزلة نتيجة لاختيار الفرد إلى حد كبير، وهل يستطيع الفرد في ظل تحولات التحديث الواسعة النطاق أن يشكل شخصيته الذاتية ذات

الاستجابة الجيدة؟ إن يتوقف ـ في المقام الأول ـ على اختياره. وكما ناقشنا في البحث السابق، إذا استجاب الهيكل النفسي الذاتي استجابة سيئة لتغييرات الثقافة الاجتماعية، فإن ذلك يؤدي إلى عقبات الشخصية أو أعراض مرضها.

لكن، انطلاقاً من الاتجاه التاريخي لتقدم الصينيين نحو التحديث، فإنهم يريدون في حركة التحديث اجتياز الانتقال من الشخصية التقليدية إلى الشخصية الحديثة وتأسيس الأحوال النفسية الثقافية الاجتماعية ذات الاستجابة الجيدة والشاملة، وتطوير الشخصية السليمة التي تتسم بالكمال العام والشامل. وإذا كان يوجد لدى السواد الأعظم من أفراد مجتمع ما عقبات الشخصية ذات الاستجابة السيئة أو أعراض الشخصية المريضة، فإن ذلك المجتمع في حد ذاته غير صحي ويعاني من مظاهر المرض، وربما لا تتقدم الأمة نحو التحديث حقاً. ومن ثم، ليست مشكلة الشخصية السليمة أمراً شخصياً فحسب، بل هي أمر اجتماعي أيضاً. وتعتبر الشخصية السليمة من الواجبات المهمة التي يضطلع بها الإنسان تجاه ذاته وسعادة المجتمع. واختيار الشخصية السليمة مطلب لحياة الإنسان وللمجتمع أيضاً. ويتسم كل إنسان باعتباره عضواً اجتماعياً، بواجب اختيار الشخصية السليمة ويتحمل مسؤولية هذا الاختيار. وكما أشار أحد العلماء الأمريكيين إلى أنه:

«تتمتع الصحة بالقيم الشاملة لدى الناس تقريباً. ولكن يعالج الكثيرون صحتهم الذاتية باستخدام أسلوبهم المتهور. وأياً كان اعتراف الناس بأن الصحة هي التي تستحق التطلع إليها باشتياق، فإن من الصعب إقناعهم بأن مراعاة الإنسان لصحته ترجع إلى ذاته بكل تأكيد. وتظهر الغالبية العظمى من الأفراد الحجج المتنوعة والمتعددة، ويخصون الآخرين بالبحث عن الصحة الجيدة. ويستطيع الذين لا يتحملون مسؤولية مراعاة صحتهم تدمير صحتهم الذاتية في حرية. ولذا، يعد الجسم الكامل بمنزلة حياة، ولا يخشى من هنا مخالفة أحدس الواجبات الأخلاقية. ولكن الثمن المقابل لهذه الحرية هو إنكار حياة الذات بشراسة»[1].

وتعد الشخصية السليمة من واجبات الإنسان. ويقوم الصينيون في حركة التحديث بإعداد شخصيتهم السليمة بصورة إيجابية، ويجعلون أنفسهم

قادرة على التكيف الجيد مع الحياة الاجتماعيةوالحفاظ على الانسجام الداخلي واكتمال الشخصية، ويتسمون بالمغزى المهم تجاه الفرد والمجتمع. ويضطلع الصينيون بمسؤولية اختيار شخصيتهم السليمة وتعزيزها بصورة حقيقية من أجل تطوير الذات وتحديث المجتمع حتى يكونوا أفراداً أصحاء ومنسجمين ومتطورين حقاً.

إذن، ما هي الملامح التي تسم بها ما نطلق عليه «الشخصية السليمة»، أو ما المعايير التي نستخدمها في تقييم الشخصية الذاتية إذا كانت سليمة أو لا؟ ونقول بصفة عامة إن الشخصية السليمة هي نوع من الشخصية التي يتحلى الإنسان فيها بالقدرة على الاختيار الذاتي والمبادرة الذاتية وقوة التأثر الموضوعية والعميقة تجاه الحقيقة التي يعترف بها من خلال أسلوب اللين والتسامح والانسجام معها. وفي الوقعت ذاته، يتمسك بالفكر المبدع المتقد. ويتمتع البشر الذين يمتلكون مميزات الشخصية السليمة بالقدرة على التكيف نسبياً، والعلاقات الإنسانية الطيبة، ويتخذون موقعاً إيجابياً ومتفائلاً من الحياة والمستقبل. ولذلك يعطون الدور الكامل لقدرتهم الذاتية بصورة كاملة إلى حد ما. وباختصار إن ما يطلق عليه «الشخصية السليمة» هو الشخصية التي تتطور بانسجام داخل الآلية النفسية الداخلية، وتزخر بدرجة عالية من الفاعلية من جانب الأنشطة الخارجية.

وقياساً إلى وجهة النظر هذه، يجب على الشخصية السليمة لدى الصينيين المعاصرين التي تتناسب مع أهداف وقيم حركة التحديث أن تتحلى ببعض الخصائص التالية:

1- القدرةعلى الاختيار الذاتي والمبادرة الذاتية للشخصية. ويسيطر الصينيون على حياتهم الخاصة بصورة واعية، ويستطيعون تحمل المسؤولية في الدراسة والحياة ومصيرهم الذاتي، ولديهم الإحساس الواضح بالمسؤولية تجاه الحياة، ويعتمدون بصورة أكبر على قدرتهم الذاتية ونظام القيم لاختيار طريق حياتهم الخاصة والمثل العليا لشخصيتهم وصورتهم الذاتية. كما يستطيعون في عملية قبول الأفكار والأعمال أو رفضها القيام بالاختيار في حرية في ظل الأوضاع الخالية من الإكراه والقمع.

2- إدراك الأوضاع الحقيقية الذاتية والشعور بالغبطة تجاه الاعتراف بهذا التفاهم وقبوله. أو نقول إنهم يطبقون مبدأ الإقرار الذاتي، بمعنى

إنهم يعترفون بالقدرة والكفاءة الذاتية. كما يعترفون بأحوالهم الطالحة والعوامل المقيدة. ولكن، لا يعد الإقرار الذاتي معالجة الذات والبيئة بصورة سلبية. ونقول بصفة عامة إن الشخص السليم يتمتع بالأفكار الإيجابية والتعريف الذاتي الإيجابي تجاه نفسه وعالم الحياة. ويعتبر الصينيون أنفسهم أفراداً يملكون القدرة ويحبون الآخرين ويحتاجون إليهم ويستقبلونهم بحرارة، ويعيشون في عالم البشر الذي يستطيعون مجابهته.

3- التمتع بقوة التنمية الذاتية والتعبير الذاتي. إن الإنسان الصيني الذي سوف يظهر العديد من الملامح التي تجسد الشخصية السليمة، يستطيع أن يبرز هذه القوة أيضاً. ويعني ذلك أنه يجعل نفسه تتمتع بالمغزى المهم من أجل الآخرين الذين يعرفهم معرفة كاملة.

4- التميز بخصائص توسيع نطاق التجربة. ليس لدى الصينيين القدرة على قبول التجارب التي تقدمها الحياة فحسب، بل يستطيعون استخدام هذه التجارب في فتح مجالات جديدة للمعرفة ووسائل التعبير، وذلك لأنهم يتمتعون بالشخصية المرنة. ومن المؤكد أن يتناسق هيكل شخصيتهم مع تجاربهم، ويتغير بصورة مستمرة حتى ينصهر مع التجارب الجديدة.

5- تثبيت الأقدام في العالم الواقعي بصورة راسخة والتحلي بالقدرة على التكيف مع الأوضاع الراهنة. ويدل التكيف مع الأوضاع الراهنة على أن أفراد المجتمع يستطيعون في عملية التأثير المتبادل بين العوامل المتنوعة التي تشكل البيئة التمسك بالمكانة الذاتية تمسكاً كاملاً وتحقيق أهدافهم الذاتية، ويحافظون على العلاقات الوثيقة الخلاقة والمستمرة والمتواصلة بين الذات والحقيقة.

6- العلاقات الإنسانية الطيبة والتشبع بمشاعر العطف والفكر المتسامح والقدرة على التعامل مع الآخرين بصورة ودية، والعمل والانسجام داخل الجماعة.

7- الاهتمام الاجتماعي العميق والمشاعر الاجتماعية. يكن الصينيون للبشرية نوعاً من المصداقية العميقة والعطف ومشاعر الحب. ويشتركون بحماس في الأنشطة المختلفة والمتنوعة، ويصادقون العديد من الأصدقاء، وتطلعاتهم واسعة، ويميلون إلى الأسلوب الإيجابي على الصعيد السياسي والاجتماعي.

8- دوافع الإبداع القوية والكفاءة الإبداعية المحددة، ومعالجة الأشياء المتعددة من خلال أسلوب الإبداع دائماً.

9- يتقن الشخص البالغ السليم المهارة الفنية المتعلقة بالعمل، ويتحلى بروح المسؤولية للاعتراف بالواجب، وبروح تكريس الذات للعمل.

10- التوجه نحو المستقبل بثبات دائماً. إن الصينيين لا يحنون إلى الماضي، ولا يبادلون المستقبل بالحاضر أيضاً. بل يدركون في كل لحظة أن حياتهم تتقدم إلى الأمام باستمرار، ويجب توجيه اتجاههم نحو أهداف المستقبل ومسؤوليته، وتشجيع الحياة الحالية وتوجيهها من خلال الآمال المعقودة على المستقبل.

ويعد ذلك بمنزلة الخصائص العامة ومعايير تقييم الشخصية السليمة واختيار الصينيين لتلك الشخصية. ولا تتوافر هذه الخصائص والمعايير لدى الصينيين بصورة كاملة. ولكن يمكن تحقيقها في الواقع من خلال اجتياز الاختيار والجهود المضنية المستمرة. وإن الشخصية السليمة هي نتيجة اختيار الإنسان إلى حد ما. وتتوقف المعايير التي يستخدمها الصينيون في الحكم على الشخصية السليمة «والشخصية المريضة» والقدرة على تكوين تلك الشخصية إلى حد كبير على اختيار الإنسان الصيني. وكما ذكر أرش فرومن:

« ...... يتوقف القرار الكامل على الإنسان وقدرته على الاهتمام بحياته وسعادته بصورة جادة ورغبته في مواجهة المشكلة الأخلاقية بينه وبين المجتمع، وشجاعته في أن يصبح ذاتاً ويعيش من أجلها» و «مهمة الحياة الأساسية هي تأسيس الذات التي تصبح إنساناً ينسجم مع قدراته الكامنة، وتعد الشخصية الذاتية بمنزلة أهم نتيجة للصراع مع الحياة»[2].

وكما ذكر ماسلو A. H. Maslow :

«يمكننا اعتبار عملية تكوين الجسم السليم سلسلة من أحوال حرية الاختيار التي لا ينهاة لها أبداً. ويواجه كل إنسان هذه الأحوال في كل لحظة من حياته»[3].

«يعد تحقيق الذات بمنزلة عملية الإنجاز المتواصل. ويدل تحقيق الذات على أنها تجعل كل اختيار يصبح اختياراً لنمو الذات»[4].

ويواجه الصينيون في عملية التقدم نحو التحديث الموضوع المهم لاختيار

الشخصية. ويعد ذلك بمنزلة خروج الصينيين من المجتمع التقليدي حتى يتقدموا بقوة وحيوية ويصبحوا «معاصرين» بصورة تدريجية في ظل التغلب المستمر على جميع عقبات تطوير شخصيتهم، والمضي قدماً في تعزيز الاختيار الذاتي لخصائص الشخصية الذاتية السليمة لديهم وإعادة رسم صورتها النموذجية.

الهوامش

(1) صموئيل غلوفيز Samuel Gloves ، «الصحة نوع من الالتزام»، اقتباس من «علم الأخلاق والحياة الواقعية»، تأليف: نولان R. L. Nolan، دار هواشيا للنشر، طبعة عام 1988، ص 199.

(2) أرش فرومن، «البحث عن الذات»، دار جامعة يانبيان للنشر، عام 1987، ص 311, 386.

(3) ماسلو، «اكتشاف وجود علم النفس»، دار الشعب للنشر في مقاطعة يونان، طبعة عام 1987، ص 43.

(4) ماسلو، «حدود قمة الطاقة البشرية»، دار الشعب للنشر في مقاطعة يونان، طبعة عام 1987، ص 52.

الباب الثامن
التحديث والصينيون المعاصرون

29 تحديث المجتمع وتحديث البشر

تناولت الأبواب السابقة من هذا الكتاب تحليل بعض الملامح التي شكلت الصينيين المعاصرين خلال عملية الانتقال من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، وذلك في جانب الأحوال النفسية والاجتماعية، وعقيدة المعاني والمفاهيم الثقافية، ووجهة النظر إلى القيم، والفكر الأخلاقي، وأسلوب التفكير، وتكوين الشخصية وغيرها من الجوانب الأخرى. وتحمل هذه الملامح في طياتها مضمون وشكل المرحلة «الانتقالية»، وصفات «البشر التقليديين» و«البشر العصريين». ولذا نطلق على الصينيين المعاصرين بإيجاز لقب «الانتقاليين»، ويوضح مفهوم «الانتقاليين» أن الصيحيين يجتازون الآن الانتقال من «الأفراد التقليديين» إلى «الأفراد العصريين»، ويعيشون في العملية التاريخية الانتقالية الكبرى، وقامت حركة التحديث في القرن العشرين بإعادة رسم ملامح الصينيين على نطاق كبير جدا. وشهد الصينيون تغييرا وتجديدا في طبيعة الأمة والفكرالثقافي في أثناء استجابتهم وقبولهم للتحديث، إن الصينيين يسيرون الآن صوب

التحديث.

إن المغزى الرئيسي لحركة التحديث في المجتمع الصيني هو تحديث البشر الصينيين، والبشر هم ركيزة تحديث المجتمع الذي يتحقق تحديثه من خلال أنشطته، ويعد تحدزيث البشر بمنزلة الشرط الضروري لتحقيق تحديث المجتمع. وتوضح الكثير من الأبحاث أن البشر أهم عامل في حركة التحديث، وإذا لم يتم تحديث البشر، يعد تحقيق تحديث العلوم والتكنولوجيا والاقتصاد والسياسة مستحيلا تقريبا. كما تصبح في أغلب الأحيان المفاهيم الثقافية التقليدية المتراكمة في التكوين العميق لسيكولوجية الناس، وأسلوب تفكيرهم واتجاه قيمهم عقبات ضخمة لتحقيق تحديث المجتمع، أو تشوه مغزى التحديث وهدفه، وتدفع حركة التحديث إلى طريق الضلال. وعلى سبيل المثال، شهدت حركات التحديث في بعض الدول النامية الصعوبات والأوضاع المتعرجة، ويكمن تذليل تلك الصعوبات في إذا كان يرغب الزفراد في تحقيق مسألة التحديث أم لا. إن أسلوب التفكير التقليدي وأسلوب الأعمال والعادات والتقاليد ومفاهيم القيم، أو بكلمة أخرى أن قوة الثقافة التقليدية تكبل حركة الشعب وتعميق تطور المجتمع، والأحوال في الصين على هذا المنوال. ففي عملية تطبيق الإصلاح والانفتاح وبناء التحديث الشامل الذي بدأ في عام 1978، واجهت الصين أيضا الكثير من العقبات والصعوبات، وظهرت العديد من المشكلات التي يكمن معظمها في جانب الطبيعة النفسية الثقافية للبشر الصينيين. وأصبحت السيكولوجية الثقافية التقليدية المتخلفة عامل إعاقة لمسيرة تحديث المجتمع الصيني، وأشار العالم الشيلي سالازار باندي إلى: «أن التخلف وعدم التطور ليسا عبارة عن مجموعة من الأدلة الإحصائية التي تستطيع أن ترسم الخطوط الكبرى لصورة المجتمع الاقتصادية فحسب، بل إنهما نوع من الحالة النفسية أيضا». وأجرى إلكس إنكلز دراسة عميقة حول مشكلة تحديث البشر، واعتبر تخلف الدولة نوعا من الحالةالنفسية القومية أيضا. ويرى أن حصول دولة ما على الاعتراف الخارجي وقبولها عضوا في الأمم المتحدة لا يمكن إطلاقا أن يؤسس دولة قومية حديثة، وإذا ظلت حياة شعب دولة ما تشبه الحياة الماضية، فإن هذه الدولة عاجزة عن دخول القرن العشرين، وأشار إلى أنه:

«إذا ظلت السيكولوجية القومية والفكر القومي محصورين في الشعور التقليدي بصورة صارمة، فإنهما يشكلان عوائق خطيرة لتطوير المجتمع والاقتصاد».

«وإذا كان شعب دولة ما يفتقر إلى الأساس السيكولوجي الحديث واسع النطاق القادر على منح الأنظمة قوة الحياة الحقيقية، وإذا كان البشر الذين يستخدمون النظم الحديثة ويطبقونها مازالت سيكولوجيتهم وأفكارهم وسلوكهم وأعمالهم لم تجتاز التغيير إلى التحديث، فإن النتيجة المأساوية للإخفاق وانحراف التطور لايمكن تجنبها، وتتحول النظم الحديثة الأكثر كمالا وأسلوب الإدارة وتكنولوجيا الفن الصناعي الأكثر تقدما في أيدي حفنة من التقليديين إلى أكداس من الأوراق المهملة».

«إن صفات التقليديين جعلتهم يتغاضون عن الأوضاع الراهنة السيئة أو يتقبلونها، ويشتبثون طوال حياتهم بمراكزهم والأوضاع التي يعيشون فيها ولا يطلبون التجديد، إن بعض تلك النظم البالية التي أكل عليها الدهر وشرب تجعل من الصعب على الأفراد أن يتحملوها غالبا، ويعتمدوا سرا على طبيعة هؤلاء التقليديين، ويستمروا في المكابرة لفترة طويلة، ويستغيثون بالشعب عندما يداهمهم الموت. ويجب أن نطلب من الشعب أن يغير تفكيره إلى التحديث حتى تتحطم هذه القيود الراسخة ويشكل أسلوبا عصريا، ووجهة الظر إلى القيم، وأفكار الأعمال وأسلوبها، ويصهر ذلك كله في بوتقة صفاته الأساسية»[1].

ومن ثم، إذا أردنا تحقيق التحديث الاجتماعي الشامل، يجب أولا تغيير خصائص السيكولوجية الثقافية للبشر، وتحقيق تحديث البشر يكون أيضا من خلال تغيير «البشر التقليديين» الذين يتوافقون مع الثقافة الاجتماعية التقليدية إلى «بشر عصريين» يسايرون الثقافة الاجتماعية الحديثة.

ويجب أن يكون هذا التغيير، الذي يعد بمنزلة تطورا أساسيا لطبيعة الأمة والفكر الثقافي شاملا. كما أنه تغيير يتسم بالشمولية والكلية بدءا من السيكولوجية الاجتماعية وعقيدة المعاني، والمفاهيم الثقافية، ومفهوم القيم، والفكر الأخلاقي، وأسلوب التفكير حتى تكوين الشخصية والجوانب الأخرى، ويقدم هذا التغيير جيلا من طراز جديد يتميز بالتوافق لمتبادل مع الظروف الاجتماعية الجديدة، والحياة الاجتماعية الجديدة، ويعد

الجيل الجديد بمنزلة ظهور «الأفراد العصريين» الذين يهيئون الظروف المهمة لبناء تحديث الحياة الاجتماعية الجديدةوالتمسك بها. وناقش إلكس إنكلز بإسهاب أهمية تحديث الأفراد بالنسبة لتحديث المجتمع، وأشار إلى أنه:

«يجب على النظم المتقدمة الحديثة التي تسعى إلى إحراز النجاح وتحقيق النتائج المرجوة الاعتماد على استغلال المزايا الحديثة للشخصيات الحديثة داخلها. ولا يوجد في أي دولة سوى سيكولوجية شعبها وسلوكه وأعماله تستطيع أن تتزامن مع تقدم كل أشكال تحديث التطور الاقتصادي، وتنسجم معه وذلك حتى يمكن تحقيق تحديث هذه الدولة حقا».

«والآن إذا لم يمر شعب أي دولة بمثل هذا التغيير في السيكولوجية والشخصية ودفعهما نحو التحديث، واعتمد على المعونة الخارجية واستيراد التكنولوجيا المتقدمة والنظم الديمقراطية، فإن ذلك كله يخفق في أن يجعل الشعب يتغير من دولة متخلفة وينضم إلى مصاف الدول الحديثة التي تملك قدرة التطور الذاتي باستمرار».

«إن الأفراد عامل جوهري في مسيرة تنمية تحديث الدولة كلها، ولا يمكن أن نطلق على دولة ما لقب دولة حديثة حقا إلا عندما يكون شعبها من العصريين، وتتغير سيكولوجية الشعب وأعماله إلى الصفات الحديثة، ويحقق العاملون في أجهزة الإدارات الثقافية والاقتصادية والسياسية الحديثة نوعا من التحديث يتوافق مع تطوير العصرنة.

«إن تحديث الأفراد يعد عاملا لا يمكن الاستغناء عنه لتحديث الدولة. وهذا العامل ليس نتاجا ثانويا لنهاية عملية التحديث، بل إنه شرط مسبق لتحديث النظم ويعتمد عليه تطوير الاقتصاد لفترة طويلة لإحراز النجاح»[(2)].

«إن تحديث البشر ليس أسلوبا ومطلبا أساسيا للتحديث الاجتماعي فحسب، بل إنه في الوقت نفسه أحد أهداف عملية تغيير التحديث الاجتماعي أيضا. إن تحول التحديث الاجتماعي يغير بيئة حياة الشعب التي تعد بمنزلة الظروف التي تساعد على تحقيق تحديث الأفراد. إن «البشر العصريين» ليسوا القوة المؤازرة والشروط المهمة للتحديث الاجتماعي فحسب، بل إنهم نتيجة عملية التحديث الاجتماعي ذاتها أيضا. ونظرا لأن تحولات التحديث ذاتها تدل على تغيير البشر، فهي تعد أيضا تغييرا في

مفاهيم البشر وقيمهم ومقاييسهم ومعانيهم، والتحديث في المقام الأول يعد نوعا من الاتجاه الأيديولوجي والحالة الفكرية، ويوضح شكل وطريقة استخدام الناس للفكر الثقافي الجديد والمتطور. ومن ثم سيكون «الصينيون المعاصرون» النتيجة المنطقية والحتمية لحركة التحديث في الصين. وكما ذكر إنجلز في حديثه عن حضارة وثقافة المجتمع الإقطاعي في القرون الوسطى في أوروبا بعد زوال الإمبراطورية الرومانية:

«بصرف النظر عما إذا ظهرت الأربعمائة سنة هذه أنها مضت سدى ودون فائدة، ولكنها تركت نتيجة مهمة وهي تحديث الأمة الأوروبية، بمعنى أن الإنسانية في أوروبا الغربية حققت شكلا جديدا وتأليفا جديدا لتاريخ المستقبل»[(3)].

وقد استمرت حركة التحديث في الصين أكثر من مائة سنة، وفي خلال هذه الفترة، ولاسيما في الأربعين سنة التالية لتأسيس الصين أو أكثر من ذلك، طرأت على ملامح المجتمع الصيني تغييرات في غاية العمق، وعلى الرغم من أن تطور حركة التحديث في الصين كان شاقا وصعبا ومتعرجا ودفع الثمن غاليا، حتى كان مؤلما أحيانا، وعلى الرغم من أن عملية التغيير لم تنجز بعد، وظهرت ملامح «التركيب الثنائي» و«الانتقالية» في المجتمع والثقافة، فإنه بعد مرور مائة سنة أو يزيد، تفككت أوصال نظام الثقافة الاجتماعية التقليدية في الصين، وتم إرساء أسس التنظيم الاجتماعي الحديث والنظام السياسي بصورة أساسية، وغيرت التكنولوجيا والعلوم الحديثة وتيار التصنيع القوة الإنتاجية الاجتماعية والهيكل الاقتصادي بصورة كبيرة، وعجلت مَدَيْنة الريف بتعزيز فئات المجتمع وسهولة انتقال الأفراد، وطرأت تغييرات كبرى على أسلوب حياة الشعب. ومختصر القول، إن بيئة الثقافة الاجتماعية في الصين المعاصرة تختلف اختلافا كبيرا عن بيئة الثقافة الاجتماعية لحياة الصينيين التقليديين، ويدل اجتياز إصلاح حركة التحديث والبيذة الثقافية الاجتماعية الجديدة على إيجاد الظروف البيئية الموضوعية للمعاصرين، وتوضح خصائص الصينيين «الانتقاليين» في العصر الحديث أن حركة التحديث منحت الصينيين مستوى مرتفعا جدا من خصائص العصريين. إن عملية «الانتقال» بالنسبة للصين في العصر الحديث هي أنه مع تعميق حركة التحديث وتعزيز التطور الكامل

لظروف البيئة الثقافية الاجتماعية، فإن ذلك يجعل ملامح «الصينيين التقليديين» تضعف تدريجيا، وتقوي صفات «الصينيين العصريين» تدريجيا أيضا، ثم يتحقق في النهاية التحول الرئيسي من «الصينيين الانتقاليين» إلى «الصينيين العصريين».

إن حركة التحديث أوجدت البيئة الثقافية الاجتماعية الجديدة، وقدمت إلى حد ما الشروط الموضوعية من أجل إعداد «الصينيين المعاصرين». ونقول بصورة محددة إن بيئة الصينيين المعاصرين تشتمل على العوامل التالية التي لها تأثير مهم وخاص على تحديث الإنسان الصيني:

أولا: تحديث التعليم، منذ أن ألغت الصين نظام الامتحان الإمبراطوري في عام 1905، تعمل على تطبيق نظام تحديث التعليم بصورة تدريجية، وأسست نظاما لتحديث التعليم يشتمل على التعليم العادي والتخصصات العليا واستمرار تعليم الكبار، وأصبح قبول تحديث التعليم واجبا أساسيا للمواطنين، وتظهر العديد من الأبحاث أن التعليم عامل مهم لتحقيق تحديث أفراد المجتمع. إن مستوى التعليم الذي يتلقاه الإنسان يقرر بصورة مباشرة مستوى تحديثه وخصائص ذلك التحديث. إن تأثير المدرسة في تحديث الإنسان بعيد المدى جدا، ولا يجعل التعليم في المدارس الإنسان يولع بطلب العلم فحسب بل يجعله أكثر قدرة على انتهاج أسلوب العقل للتعامل مع الحياة، وإنشاء مفاهيم جديدة للقيم. ناهيك عن أن المعارف التي يتلقاهابصورة رسمية في المدارس تلعب دورا مباشرا في تشكيل تحديثه ويمتد تأثيرها إلى سلوكه في الجوانب الأخرى.

ثانيا: أن الصناعات الكبرى بدأت بفضل الأجهزة التكنولوجية العلميةالحديثة، وأن طرق إنتاج الصناعات الكبرى ومزايا الأنشطة الإنتاجية في المصانع، وخصائص أشكال التنظيمات لها تأثير مهم في تحديث البشر، وفي قطاع إنتاج الصناعات الكبرى الحديثة، تقوم مقاييس التكنولوجيا، والمعايير الموضوعية للإنتاج وأهدافه، والطلب الصارم لتحقيق الأرباح، والتقسيم الدقيق للعمل، وإدارة التشغيل وغيرها، بمنح المصانع مميزات مستقرة وثابتة وتطلب من الشعب أن يسايرها ولا يذعن لها. وتقسم كل تنظيمات قطاعات الإنتاج في المصانع العمل تقسيما صارما، وتشكل سلطة الأجهزة الإدارية وكل أنواع التقنيات المتخصصة هيكلا محددا

للعلاقات بين الأفراد، ويتمتع نظام الجوائز والجزاءات عادة بالمعيار الموضوعي والدقيق جدا. وكل ذلك يجعل المصانع أكثر الظروف البيئية قدوة، وخبرة شخص ما في مصنع حديث لها تأثير مهم جدا في تكوين تحديثه. فعلى سبيل المثال، تزيد المصانع من الشعور بالفعالية لدى الفرد والمجتمع، وتغذي شعور الإبداع والبراعة في قبول الأشياء الجديدة، وتعزز التخطيط والشعور بأهمية الوقت والتعاون وغيرها، ويعتبر إنجلز المصانع بمنزلة المدرسة التي تدفع تحديث الناس إلى الأمام، ويؤكد الدور المهم الذي تلعبه الصناعات الكبرى الحديثة في تحديث الإنسان، ويشير إلى أنه:

«بغض النظر التباين الشديد في الخلفيات الثقافية بين الدول، والبشر الذين ينبثقون من داخل تلك الثقافات المختلفة، وبما أن البشر الذين يعيشون في بيئة تحديث الصناعة والبيئات الحديثة الأخرى، يتفاعلون مع تلك البيئات بصورة رئيسية، والتغيير الذي يطرأ على شخصية الإنسان الذي يجتاز تلك البيئات يتولد عنه حالة فكرية وأسلوب لأنشطة الأعمال يتسمان ببعض الذيوع والانتشار ويصبح ذلك الإنسان العصري»[4].

ثالثا: وسائل النشر الجماهيرية الحديثة: تستخدم الثقافة الحديثة وسائل النشر الجماهيرية كوسائل وأدوات للتطور والتعميم. إن تطور وسائل النشر الجماهيرية مثل المواد المنشورة والصحف والإذاعة وتعميم التليفزيون بصفة خاصة، لها تأثير متعدد الجوانب في تحديث البشر، وتمد وسائل النشر الجماهيرية الشعب بمقدار وافر من المعلومات وتجعل لديه الفرصة للاحتكاك بالعديد من الأشياء الجديدة وتعرُّفها. ومن ثم تساعد على تعزيز قدرة الشعب ورغبته في قبول الأشياء الجديدة. كما تسهم وسائل النشر الجماهيرية في فتح آفاق جديدة لرؤية الشعب، مما يساعد على إعداد الشعب ويتسم سلوكه بالتسامح والانفتاح وتكوين وجهات النظر المتعددة إلى القيم الثقافية. كما أن نوعية المعلومات التي تنشرها وسائل النشر الجماهيرية وسرعتها وطبيعتها تغير العلاقات بين الناس، وتنشط التفاهم المتبادل والترابط بينهم. وكما ذكر العالم الأمريكي كوشمان D. Kushman:

«كلما زاد احتكاك واستخدام الإنسان لوسائل النشر المتقدمة، فإن ذلك يجعلنا أكثر فهما للاختلافات المتعددة الموجودة بيننا واحتياجات الاعتماد

المتبادل»[5].

إن التعليم الحديث والمصانع ووسائل النشر الجماهيرية لها تأثير مهم في تنشيط تحديث البشر الصينيين، وليس ذلك فحسب، بل في الواقع إن الثقافة الاجتماعية والاقتصاد والسياسة وغيرها من الجوانب الأخرى في الصين الحديثة التي اجتازت تحولات حركة التحديث تساعد على تحديث الصينيين، وتسهم في توفير الظروف البيئية لإعداد «الصينيين العصريين». ولكن مازالت الصين حتى الآن قابعة في العملية الانتقالية من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، وتتسم بخصائص «التركيب الثنائي»، ولم تؤسس بعد النظام الشامل لتحديث الثقافة الاجتماعية. وتوجد عوامل صالحة وأخرى طالحة لتحديث الأفراد في بيئة حياة الصينيين المعاصرين. حتى إن نتائج التحديث التي تبلورت في التعليم الحديث والمصانع ووسائل النشر الجماهيرية يتخللها أيضا بعض الأشياء السلبية التقليدية، مثل بعض الموضوعات المتخلفة السلبية التي تقوم بالدعاية لها وسائل النشر الجماهيرية والتعليم، بالإضافة إلى أن بعض العناصر غير الحدثة داخل إدارة المصانع الحديثة، تعمل كلها على فرض القيود على تطوير الأفراد من الناحية الموضوعية، وتؤثر تأثيرا سلبيا في تحديثهم. ومن ثم مازال يكمن تحقيق التحول الكامل للصينيين من «الأفراد التقليديين» إلى «الأفراد العصريين» وتحقيق التحديث الشامل لهم في التغيير الكامل لبيئة حياتهم، والتحول الكلي للثقافة الاجتماعية الصينية إلى التحديث. وهذا يتطلب المضي قدما في دفع تحديث المجتمع إلى الأمام وتحقيق تحديثه بصورة شاملة.

وعلى هذا النحو، تواجه الصين مشكلتان هما: إن تحديث الإنسان الصيني شرط لا يمكن الاستغناء عنه لتحديث المجتمع كله، ودون تحديث البشر الصينيين لا يمكن تحديث الحياة الاجتماعية كلها من ناحية، ومن ناحية أخرى إن تحديث الصينيين والظروف الاجتماعية الموضوعية الحديثة تربطهما العلاقات المتبادلة. والافتقار إلى الظروف الاجتماعية الموضوعية التي يمكن أن تنشىء الصينيين العصريين يجعل من المستحيل تحقيق تحديث الإنسان الصيني أيضا، وتعد هاتان المشكلتان الصعبتان المنطقيتان بمنزلة تناقضات في الثقافة الصينية الحديثة. ولكن من الناحية العملية، نجد أن تحديث الأفراد وتحديث المجتمع يؤثر كل منهما في الآخر، وعاملين متلازمين

للأسباب والنتائج. ويتزامن تحقيق تحديث الفرد مع تحديث المجتمع. وتعد حركة التحديث بمنزلة المسرحية التاريخية المفعمة بالحيوية، والصينيون هم شخصيات تلك المسرحية ومؤلفيها أيضا.

وعندما يدفع الصينيون حركة تحديث المجتمع إلى الأمام وتتغير البيئة الحياتية الخاصة بهم، فإنهم يغيرون في الوقت نفسه طبيعتهم الذاتية أيضا، ويحققون تحول طبيعة الأمة والفكر الثقافي إلى التحديث.

الهوامش

(1) إلكس إنكلز، «تحديث الإنسان»، دار نشر سيتشوان الشعبية، طبعة عام 1985، ص 3, 4, 6.

(2) انظر المصدر السابق، ص 6-8.

(3) «مختارات ماركس وإنجلز»، المجلد الرابع، ص151-152 [بالصينية].

(4) انظر المصدر رقم (1)، ص93.

(5) كوشمان، «دور الاتصال في علاقات البشر»، انظر مجلة «المقتطفات» عام 1989، المجلد الثالث، ص 29.

30 الاستناد إلى نظرية الغربيين: «الإنسان العصري»

يعد «الإنسان العصري» بمنزلة هدف قيم التحديث لدى الصينيين. ويكمن مغزى «الانتقالية» في الصين الحديثة في الانتقال إلى «الإنسان العصري». والآن يسير الصينيون في اتجاه الصينيين المعاصرين.

إذن، ما شكل «الإنسان العصري» الذي يبحث عنه الصينيون ويعتبرونه هدفا لتحديث أنفسهم؟ وما خصائصه؟ إن الصينيين يعتبرون «الإنسان العصري» هدف اختيارهم. ولذا يجب في المقام الأول أن يكون لديهم الثقة في التعميم الصحيح والواضح نسبيا للملامح الرئيسية لشكل «الإنسان العصري» وجوهر صفاته المميزة.

إن تحديث البشر ظاهر عالمية، وفي نطاق انتشار التحديث العالمي، تمر كل دولة تقع في تشكيلة العالم الحديث بالتحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، ولذلك يوجد بها مشكلة تغيير طبيعة الشعب وتجديدها وتحقيق التحديث، ولكن هناك بعض الدول التي خطت خطواتها الأولى نحو التحديث في وقت مبكر نسبيا،

وحلت مشكلة تحديث شعبها بهدوء وأناة إلى حد ما، ولكن تبدو هذه المشكلة للسواد الأعظم من الدول النامية ملحة بصفة خاصة. وهناك العديد من الدول النامية التي عجلت خطوات تحديث المجتمع، ولاسيما بعد حقبتي الخمسينيات والستينيات، ولذا تغيرت طبيعة شعوب هذه الدول، وبرزت مشكلة تحقيق تحديث الأفراد فيها بصورة جلية. وفي ضوء هذه الخلفيات، أجرى لفيف كبير من علماء الغرب الدراسات الواسعة والمنهجية حول مشكلةتحديث البشر، وطبقوا طرق التحليل في العالم الحديث، وقدموا كل المقاييس والنماذج «للإنسان العصري». وتقدم أبحاث علماء العرب وتنبؤاتهم «للإنسان العصري» قيما تزيد من وعي الصينيين، وجديرة بأن يعملوا على غرارها وهم يبحثون وينقبون عن «الصينيين العصريين».

ويعد إلكس إنكلز الذي قدم مقاييس «الإنسان العصري» أشهر عالم في مجال دراسة تحديث البشر و«الإنسان العصري». وبعد أن أجري العديد من التحريات الميدانية حول ما حققته الدول النامية في عملية التحديث وقدم تحليلا لأحكامه الشخصية، لخص الملامح الرئيسية الثانية عشر التالية «للإنسان العصري»:

١- يتسم الإنسان العصري بالاستعداد والرغبة في قبول خبرة الحياة الجديدة ومفاهيم الأفكار الجديدة وأسلوب الأعمال الجديدة التي لم يشهدها من قبل، وعند مقارنته بالإنسان التقليدي نجد أن الأخير لا يرغب في قبول الأشياء الجديدة والأفكار الجديدة.

2- الاستعداد لقبول إصلاح المجتمع وتغييره. يستطيع الإنسان العصري أن يتقبل بسرور إصلاحات وتغييرات المجتمع المحيط به، ويتقبل بحرية أكبر فرص التعبير التي كانت محظورة على غيره ويتمتع بها الآن، وبكلمة أخرى إن الإنسان العصري ليس مكابرا كثيرا، ويسعده أن يواجه تحقيق التغيير. وبالنسبة للآخرين ينتهج الإنسان العصري أسلوبا غير تقليدي في التفكير وإنجاز الأعمال والتغيير ولا يتدخل بوقاحة في شؤون الغير. وباختصار. إنه لا يتشبث كثيرا بالتقاليد.

3- يتميز الإنسان العصري بتسلسل الأفكار في اتساع الأفق والعقل المفتوح والاحترام والرغبة في التعايش مع الآراء المتباينة في كل الجوانب. ولا يظهر الإنسان العصري رأيا ذاتيا للبيئة التي يعيش فيها مباشرة فحسب،

بل يستطيع أن يقدم أفكاره حول الشؤون الخارجية وشؤون البلاد أيضا، ولكن التقليديين يهتمون فقط بالأشياء القليلة التي تحقق المصالح الشخصية الحيوية.

4- يهتم الإنسان العصري بالحاضر والمستقبل، عصريا تارة، وتقليديا تارة أخرى. ويتمتع الإنسان العصري بالمفهوم العميق لأهمية الوقت، ويسعده أن يرى أمام مرمى البصر الحاضر والمستقبل، ولا يرغب في التمسك بالتقاليد والماضي، كما يستطيع أن يرث على أحسن وجه التراث الجيد من التقاليد من جهة، ومن جهة أخرى يستطيع أيضا أن يتحرر من قيود الأشياء القديمة التي فرضتها التقاليد.

5- يتمتع الإنسان العصري بالإحساس الذاتي القوي الفعال، حيث إنه مفعم بالثقة في قوة الأفراد والمجتمع ويهتم بتحقيق الفاعلية في إنجاز الأعمال.

6- التخطيط، إذ يميل الإنسان العصري إلى وضع خطة طويلة الأمد في الحياة العامة وفي حياته الخاصة.

7- المعرفة، حيث يهتم الإنسان العصري بالتفكير في حقائق الأمور، ويبذل أقصى جهده في سبيل كسب المعرفة عند تكوين الأفكار أو الآراء الخاصة بالعالم المحيط به. إن تشكيل الأفكار والآراء لدى الإنسان العصري قائم على هذا الأساس، ويتحمس لاستكشاف المجالات التي لا يعرفها. ويسود المعاصرين جو مفعم باحترام المعرفة.

8- يمكن الاعتماد على الإنسان العصري ولديه الإحساس بالثقة.

9- يهتم الإنسان العصري بالتقنيات المتخصصة حيث يتمتع بأساس نفسي قوامه الرغبة في أن يتقاضى الأجور المختلفة حسب ارتفاع مستواه.

10- يرغب الإنسان العصري عن طيب خاطر في أن يجعل ذاته والأجيال القادمة أن تختار الوظائف البعيدة عن احترام التقاليد، ويتحدى موضوع التربية والتعليم وحكمة التقاليد.

11- يتميز الإنسان العصري باحترام الذاات، والتفاهم والاحترام المتبادل مع الآخرين.

12- يدرك الإنسان العصري الإنتاج والعملية الإنتاجية.

ويرى إلكس إنكلز أن تحديث البشر ظاهرة فكرية ثرية المضمون ومتعددة

الجوانب، وفي الواقع إن التحديث في المقام الأول عملية تغيير السلوك النفسي ووجهة النظر إلى القيم والأفكار. ويجب ألا نفهم كل أن ما يسمى «حديث» هو شكل من أشكال النظام الاقتصادي أو النظام السياسي، بل إنه ظاهرة فكرية أو سلوك نفسي، ولذا ظهور «الإنسان العصري» دليل مهم على تحقيق تحديث المجتمع. وظلت مقاييس «الإنسان العصري» التي قدمها إلكس إنكلز آنفا تعد نظرية موثوقا فيها إلى حد ما في علم الاجتماع ونظرية التحديث، وخاصة أنه أجري الكثير من التحريات الميدانية والأبحاث الواقعية حول تغييرات التحديث في العديد من الدول النامية، إنها أبحاث عززت صحة نظريته وصدقها نسبيا.

ولكن أبحاث إلكس إنكلز تنطلق من هيكل نظريته في علم الاجتماع لتصميم إحدى مقاييس «الإنسان العصري». وبالإضافة إلى نظريته ومقاييسه، هناك أيضا العديد من علماء الاجتماع ومحالات فروع العلم التي تنكب على استكشاف «الإنسان العصري». وعلى سبيل المثال، هناك بعض المتفائلين في علوم المستقبل الذين يتصورون أنه سوف توجد أعداد كبير من «المواطنين الناضجين» الذين يتحملون «المهمة الشاقة للمستقبل»، ويتمتعون بـ «مبادرة الاشتراك في السياسة»، و«الجرأة على التخيل» و«لديهم إيجابية تطوير الثروات المادية في المجتمع». وقدم عالم الاجتماع الألماني بلينتا R. Bellentta الملامح الرئيسية للإنسان المثالي في «عصر التغيير» المستقبلي و«عصر التقدم الثقافي» في الجوانب الخمسة التالية، كما تجسد هذه الملامح أيضا تجاه تطور «الإنسان العصري».

1- الإنسان العصري واع وقادر على استخدام الطرق العلمية لمعرفة الظواهر الفيزيائية والاجتماعية.

2- الإنسان العصري ناضج ويستطيع التخلص من القيود التقليدية، ويتمتع بالبحث المستقل في الحياة.

3- يتحلى الإنسان العصري بروح الإبداع، بمعنى أنه يرى أن العالم من صنع الإنسان، أو على الأقل ساهم في تكوينه.

4- يتمتع الإنسان العصري بالقدرة على استيعاب التكنولوجيا.

5- الإنسان العصري إنسان فعال، بمعنى أنه يرفض حدود الحياة والبلدة، والأديان والطبيعة الاجتماعية، كما أنه إنسان نشيط إلى الحد الأقصى

حسب قدرته الذاتية ورغباته وظروفه.

وطرح العالم النفسي الأمريكي روجيرس المتخصص في علم النفس الإنساني بعض الأفكار حول عالم المستقبل والإنسان المستقبلي. ويرى أن عالم حياتنا يواجه الآن سلسلة منالتغييرات الكبرى، وفي الوقت نفسه نستقبل فرصة عظيمة، كما يعتقد أن شباب عصرنا في ظل تلك التغييرات التاريخية سوف يصبح عدد كبير منهم من «الإنسان الجديد»، ويتحدون مع أفراد الجيل الأكبر سنا الذين يستطيعون استيعاب المفاهيم الجديدة، وسوف يشكلون ركيزة عالم المستقبل. ولخص روجيرس ملامح إنسان المستقبل (الإنسان الجديد، الشباب الجديد) في الجوانب الآتية:

1- الأسلوب المفتوح. ويعني الانفتاح على العالم الداخلي والخارجي، حيث لا ينفتح إنسان المستقبل على التعلم بالتجربة الشخصية فحسب، بل ينفتح أيضا على طرق الملاحظة الجديدة، والأساليب الجديدة، والأفكار والمفاهيم الجديدة.

2- الإخلاص. يهتم إنسان المستقبل بالاتصالات لأنها تعد في الحقيقة نوعا من الوسيلة ويرفض التزييف والخداع والرياء.

3- أسلوب الشك في العلوم والتكنولوجيا. لا يثق إنسان المستقبل في استخدام العلوم والتكنولوجيا الحديثة لقهر الطبيعة والبشرية جمعاء، ومن ناحية أخرى، يؤيد بحماس العلوم عند استخدامها (مثل التغذية الاسترجاعية البيولوجية) لتعزيز الوعي الذاتي وسيطرة الإنسان على نفسه.

4- التوق إلى الكمال. إذ لا يرغب إنسان المستقبل في أن يعيش في عالم مفكك الأوصال حيث الانقسام بين الجسد والقلب، والحكمة والعواطف، الذاتية والجماعية، العمل واللهو، وغيرها. ويسعى وراء تحقيق الكمال في الحياة، والأفكار والمشاعر والقدرة الفيزيائية والكفاءة النفسية وغيرها ويدمجها جميعا في مجال التعلم بالتجربة الشخصية.

5- الحاجة إلى العلاقات الوثيقة. يبحث إنسان المستقبل عن العلاقات الوطيدة والأشكال الجديدة للأهداف المشتركة، كما يبحث عن الأشكال الجديدة للاتصالات عن طرق الحوار والمناقشة أو من خلال أسلوب الأعمال والسلوكيات، ناهيك عن الاتصالات العاطفية أو العقلانية.

6- يعتبر إنسان المستقبل إنسانا عمليا، حيث يتميز بالوعي الشديد إزاء التغييرات المستمرة في الحياة، والإدراك الجاد للتغييرات التي تطرأ على البشر، ويرحب بتحمل مخاطر أسلوب الحياة، والجرأة على استقبال التغييرو بصورة إيجابية.

7- الاهتمام والرعاية. يستطيع إنسان المستقبل أن يعامل الناس بصدق وإخلاص في أوقات الشدة الحقيقية، ويعد ذلك نوعامن الرعاية المهذبة يؤديها بكل وسيلة ممكنة وخالية من المواعظ ولا تخضع للتحكيم.

8- الأسلوب تجاه الطبيعة، يكن إنسان المستقبل شعورا قويا من الاهتمام ومراقبة الطبيعة، ويتميز بالوعي للتكيف مع البيئة وحريص على إقامة صلات مع الطبيعة التي يحصل من خلالها على السعادة، ولا يبذل كل جهده في سبيل إخضاعها.

9- مناهضة التمسك بالأساليب القديمة. يشمئز إنسان المستقبل من أي أجهزة بيروقراطية عقيمة وغير مرنة. ويعتقد أن الأجهزة أنشأها الإنسان، وليس العكس بالعكس.

10- الثقة الداخلية. يثق إنسان المستقبل في التعلم بالتجربة الشخصية، ويتمسك بأسلوب الشك تجاه القوة الخارجية، ويحكم على أخلاقه الشخصية، ويرى من تلقاء نفسه عدم احترام المقاييس اللامعقولة وغير الشرعية.

11- عدم الاهتمام بالأرباح المادية لا يعير إنسان المستقبل اهتماما للمتعة المادية والمكافآت، ولا يسعى وراء اكتناز الأموال واعتلاء المراكز، وربما يعيش حياة ميسورة، ولكن هذا النوع من الحياة بالنسبة له ليست ضرورية.

12- التطلع إلى الحياة الفكرية ينتمي إنسان المستقبل إلى الباحثين، ويرغب في البحث عن المغزى والهدف الذي يفوق مغزاه وهدفه الشخصي، ويأمل في أن يعيش حياة داخلية آمنة، ويعبد الشخصيات البطولية التي تنبثق من الحياة الفكرية، وفي بعض الأحيان يستطيع التعلم من وحدة وانسجام الكون في التغيير الأيديولوجي.

ويرى روجيرس أن الخصائص المذكورة آنفا «للإنسان الجديد» (الإنسان العصري) في عالم المستقبل هي أهم العناصر في العالم الجديد (المجتمع الحديث)، وتحديث المجتمع يرتكز على «الإنسان الجديد» وأشار إلى أنه:

«في الوقت الحاضر تهب رياح التغيير العلمي والاجتماعي والثقافي على المعمورة التي سوف ترغمنا على دخول العالم الجديد، وهو عالم الغد، والإنسان في هذا العالم الجديد يتحلى بالأهمية، إنه إنسان الغد الذي رسمنا صورته.

وهذه هي الصورة العامة لعالم المستقبل الذي يرتكز على الإنسان، ويمكننا اختيار ذلك العالم، ولكن بغض النظر عما إذا اخترناه أو لا، فإنه يبدو من المؤكد أنه سوف يغير ثقافتنا إلى حد ما، ويكون التغيير على امتداد اتجاه التطور نحو الأكثر إنسانية»[1].

إن دراسات إلكس إنكلز، وبلينتا، وروجيرس وغيرهم حول «الإنسان العصري»، وتصوراتهم لمقاييسه، تقدم للصينيين مقياسا يتسم بالمغزى التنويري والإلهامي لاستكشاف «الصينيين المعاصرين». والتحديث عملية ذات طابع عالمي، وهناك بعض الملامح المشتركة لحركات التحديث في كل الدول، وبالمثل هناك أيضا بعض الخصائص المشتركة أو المتشابهة «للإنسان العصري» في جميع الدول، ولكن دراسات إلكس إنكلز وغيره من العلماء تنطلق من «مجال رؤية» الثقافة الغربية لتقييم «الإنسان العصري» وتميزه، ولذا يمكن أن نعتبر هذه الدراسات مجرد مقاييس لنظرية «الإنسان العصري في الغرب». وإذا كانت بعض الخصائص التي حددوها «للإنسان العصري» صحيحة ودقيقة، فإنها جاءت نتيجة التطور التاريخي للثقافة الغربية، ولذلك لا يمكن أن نعتبر تلك الخصائص المقياس الوحيد أو النموذج القياسي «للإنسان العصري». ومن ناحية أخرى، هناك بعض الاختلافات بين هؤلاء الباحثين الذين قدموا مقاييس «الإنسان العصري»، وتظهر تلك الاختلافات في مجالات فروع العلوم المختلفة ووجهات النظر (الطرق) الأكاديمية، وذلك لأن أي مقاييس تعد نوعا من تأكيد «الذاتية» تجاه موضوع ما، وقدمت مجالات فروع العلوم المختلفة أو وجهات النظر (الطرق) الأكاديمية أبحاثا تتباين فيها وجهات النظر حول دراسة الموضوع، ولذلك تحمل وجهات النظر تلك في طياتها «حكما مسبقا شرعيا» محددا، ومن ثم تتباين المقاييس التي قدمتها «للإنسان العصري». وفي الواقع، من المستحيل أن يوجد نموذج قياسي وحيد من الناحية الذاتية، وتغييرات التحديث في كل الدول والأمم هي تغييرات تحديث الثقافة الاجتماعية فيها. وعلى الرغم من أن تلك

التغييرات الثقافية الاجتماعية من المؤكد أنها تتقبل بعض عوامل أو عناصر الثقافة الأجنبية (خاصة الثقافة الغربية الحديثة التي تطورت أولا). فإن عملية «التحديث» ليست عملية «إضفاء الطابع الغربي» بصورة كاملة. إن تغييرات تحديث الثقافة لا تعني إطلاقا الإنكار الكامل للثقافة التقليدية أو نبذها، ولذلك تحمل عملية التحديث في أي دولة أو أمة الملامح المميزة لها. كما تتميز الثقافة الجديدة في أي دولة أو أمة بالملامح المميزة لها أيضا، وهناك تفاعل متبادل بين الاتجاهات المتعددة وتنويع حركات التحديث، كما توجد الأنواع المتعددة من «الإنسان العصري»، ويتسم «الإنسان العصري» في الدول المختلفة والأمم المتباينة بالخصائص المختلفة أيضا.

الهوامش

(1) Rogers, C.R. aWay of being, Boston, 1961, P. 356.

31 اختيار الصين: «الشعب الحديث»

وفي ضوء ما ذكرناه في المبحث السابق، كيف يجب علينا أن نبحث عن مقاييس تطور التحديث لدى الصينيين، وكيف نوجز ملامح «الصينيين المعاصرين»؟

إن نقطة الانطلاق المبدئية في الفلسفة التاريخية الماركسية تعتبر الخصائص الاجتماعية المميزة للبشر بمنزلة صفاتهم الجوهرية، ويمارس البشر الأنشطة الحياتية في ظل الظروف التاريخية المحددة وداخل النطاق المحدد من العلاقات الاجتماعية، ويقرر مستوى تطور الثقافة الاجتماعية مدى تطور البشر. ومن ثم، لا يمكن لأي دراسة أو معالجة للبشر أن تقتصر على مناقشة الخصائص الجوهرية التجريدية لديهم، بل يجب الربط بين البشر والخلفية البيئية المحددة للحياة، وعند مناقشة الصينيين التقليديين، يجب أن نبدأ من تحليل المجتمع التقليدي الصيني والثقافة التقليدية والتمكن منهما، ونفهم الصينيين التقليديين ونتعرفهم من خلال أحوال الثقافة التقليديةوالمجتمع التقليدي. أما بالنسبة لفهم

الصينيين المعاصرين والثقة فيهم، فيجب أن يكون في ضوء الخلفية الواسعة لتحديث الثقافة في المجتمع الصيني، وتعرف ملامح الصينيين الانتقاليين من خلال «التركيب الثنائي» لمظاهر الثقافة الاجتماعية الصينية الحديثة والمرحلة «الانتقالية». وبالمثل يجب علينا الربط بين معالجة الصينيين المعاصرين وتطلعات الثقافة الاجتماعية الصينية في المستقبل، ولاسيما أن الإنسان الصيني المستقبلي وتطلعات الثقافة الاجتماعية الصينية منسجمان، وهدف حركة التحديث هو بناء المجتمع الحديث بصورة تامة، وفي الباب الثالث من هذا الكتاب ناقشنا خصائص المجتمع الحديث. وجملة القول أن شكل المجتمع الحديث يختلف تماما عن المجتمع التقليدي، كما أنه مرحلة لوضع جديد يشهد تطور التاريخ الاجتماعي، وفي المجتمع الحديث تكون الصناعات الكبرى الحديثة أساس أسلوب إنتاج المجتمع والهيكل الاقتصادي، ويستخدم ذلك المجتمع التكنولوجيا والعلوم الحديثة وإنجازاتها على نطاق واسع، ويؤسس طرازا جديدا من تنظيم الهيكل الاجتماعي والنظام السياسي، ويصنع الثقافة والحضارة الجديدة، ويدل المجتمع الحديث على تطلعات المجتمع الصيني المستقبلي، وحياة «الشعب الصيني الحديث» التي يبحث عنها الصينيون، وأحوال التقدم الصيني وظروفه وأساسه، ويتولد المجتمع الصيني الحديث المستقبلي من «الشعب الصيني الحديث». وفي الوقت نفسه، يوجد «الشعب الصيني الحديث» أيضا في ظل الظروف البيئية للمجتمع الحديث، ولذلك فإن أي معالجة «للشعب الصيني الحديث» يجب ربطها مع طموحات المجتمع الصيني في المستقبل، واتجاه التطور التاريخي لحركة التحديث الصيني.

ومن ناحية أخرى، إن «الشعب الصيني الحديث» هو ثمرة تحديث الصينيين، والنتيجة المترتبة على انتقال الصين وتحولها من «الأفراد التقليديين» إلى «الأفراد الانتقاليين». ويعد ذلك بمنزلة التجديد الذاتي للصينيين. وبكلمة أخرى، إن «الشعب الصيني الحديث» هو مرحلة خاصة لتطوير الصينيين، ولذلك تحتم عليهم تلك المرحلة التمسك ببعض الملامح الرئيسية للشعب الصيني، والإنسان بطبيعته يرتبط بالتاريخ الاجتماعي، وينجم عن حتمية التطور التاريخي للمجتمع تطوير الأفراد. ولكن هذا النوع من التطور (حتى ولو كان مثل التغيير في الطبيعة الرئيسية للمجتمع

عند الانتقال من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث) يجب ألا يفهم بأنه توقف تاريخي، بل إنه تقدم اجتماعي للأساس الأصلي، ولذا يتسم بنوع من الاستمرار المحدود والإرث. وعلى مدى آلاف السنين للتطور التاريخي، ترسب داخل الهيكل النفسي العميق للصينيين الفكر الثقافي وطبيعة الأمة، كما توجد أيضا بعض العناصر داخل ذلك الهيكل التي استمرت لفترة أطول، وجعلت استمرار الميراث الثقافي التاريخي للصينيين في كل زمان يتمسك بالأسلوب والمزاج الخاص للأمة، والصينيون هم من البدء حتى النهاية صينيون. ولذلك طبيعة «الشعب الصيني الحديث» هي «إنسان جديد» تختلف طبيعته عن «الإنسان التقليدي» من جهة، ومن جهة أخرى، هناك الاستمرار المحدد والإرث بين «الشعب الصيني الحديث» و«الصينيين التقليديين»، كما يتميز ذلك الاستمرار والإرث بالقومية الخاصة للصينيين. ويجب علينا الربط بين معالجة «الشعب الصيني الحديث» وتاريخ الشعب الصيني، والبحث عن ملامح «الشعب الصيني الحديث» من زاوية التعرف الصحيح والدقيق لكل جوانب تاريخ الصينيين، بالإضافة إلى معرفة الحقائق التاريخية وعملية التطور ومدار التطور التاريخي لديهم.

إذن، نتأمل هذه المسألة من الزوايا الاجتماعية والتاريخية، ويمكننا بصفة عامة أن نوجز ملامح «الشعب الصيني الحديث» في الجوانب التالية:

١- يجب أن يتحلى أفراد «الشعب الصيني الحديث» بالإدراك الحسي العميق لتحولات الثقافة الاجتماعية لتحديث الصين، ويتعلموا من الممارسة العميقة أن حركة التحديث ذات مغزى مهم لمصير الأمة الصينية، ويتميزون بالإدراك العميق لعملية تحولات الثقافة الاجتماعية واتجاهاتها، ويؤازرون الثقافة الحديثة بوعي، ويكرسون جهودهم لخوض غمار الإصلاح وقضية التحديث وتأييدهما، ويتمتعون بالسيكولوجية الجيدة الملائمة لاتجاهات تطور تحديث المجتمع والثقافة. وهذا يعني القول بأن «الشعب الصيني الحديث» يعتبر التحديث الهدف الذاتي الذي يحظى بالتأييد والثناء من جانبه، ويدرك ويتقبل قيم الثقافة الحديثة ومغزاها، كما يتقبل تصميم التحديث الأولي للشخصيات ويطور شخصياته ويحقق الكمال لها في ضوء ذلك التصميم. ويجب على «الإنسان العصري» أن يتمتع بالوعي لتأييد قيم الثقافة الحديثة، وليس مجرد أنه يعيش في الظروف البيئية للثقافة

الاجتماعية الحديثة ثم يصبح «إنساناعصريا». وبالضبط كما أشار كارل جوستاف يونغ إلى أنه: «لا يستطيع الإنسان أن يعتمد فقط على أنه يعيش في العصر الحديث، وبالتالي تتوافر لديه المؤهلات ليطلق عليه الإنسان العصري. ولذا يقولون إن كل إنسان يعيش في الوقت الحاضر، يمكن أن نعتبره إنسانا عصريا، وفي الواقع إن الإنسان العصري هو الذي يملك أكبر قدرة على الإدراك الحسي للعصر الحديث»[1].

ولذلك يختلف «الشعب الصيني الحديث» عن «التقليديين» الذين يعتبرون «الانسجام» و«الاستقرار» الهدف الأسمى، ولديه القدرة القوية النسبية على التكيف مع تغييرات تطور المجتمع، استنادا إلى الشعور التاريخي العميق والوعي التقدمي والإدراك والتطور وتغييرات المغزى التاريخي لديهم، كما يتميز ذلك الشعب أيضا بالحاسة الشديدة النسبية وأسلوب الترحيب الحار بالأشياء الجديدة، والمفاهيم الجديدة، والأفكار الجديدة، ويؤازر بنشاط ويشترك بحماس في كل ما هو مفيد للإصلاح وتغييرات التقدم الاجتماعي.

ومن ثم، يتحلى «الشعب الصيني الحديث» بالروح الإيجابية للإبداع والتقدم، ويختلف الصينيون عن «الأفراد التقليديين» الذين قنعوا بالواقع ورضوا بنصيبهم وشعروا بالطمأنينة. إن الصينيين ينقبون ويبحثون باستمرار، ويتقدون حماسة للتقدم، ويفتحون مجالات جديدة للحياة بطورة مطردة، انطلاقا من إيجاد أفضل الظروف المواتية للحياة. كما أنهم ليسوا من المحافظين والقانعين بحالتهم الحاضرة، ولكن لديهم شعورا إيجابيا لتخطي الصعاب، وبذل الجهود المضنية دائما لتجاوز حالتهم الراهنة، والكفاح لتحقيق التطور الأكبر، وكما قال دانيل بيل:

«إن أعمق الصفات الطبيعية للإنسان العصري هي: أن يتجاوز نطاق ذاته، ويتسم بروح التطور اللانهائية»[2].

وأشار هينتنجتون إلى أنه:

«تتجسد أبرز الاختلافات بين المعاصرين والتقليديين في آرائهم حول العلاقة بين الإنسان وبيئته، وفي المجتمع التقليدي، يتقبل الإنسان بلا قيد أو شرط بيئته الطبيعية أو الاجتماعية، وكل ماهو موجود في الوقت الحاضر، سوف يوجد أيضا في المستقبل: كل شيء تقرره السماء، ويجب أن يكون كذلك، ومحاولة تغيير الكون ونظام المجتمع الثابت السرمدي ليست تدنيسا

للإله فحسب، بل تذهب أدراج الرياح أيضا. ويكمن السبب في عدم تغيير المجتمع التقليدي في أن أفراد المجتمع عاجزون عن تخيل وجود التغيير. وعندما يدرك هؤلاء الأفراد كفاءتهم الذاتية، ويبدأون التفكير في أنهم يستطيعون تعرف الطبيعة والمجتمع، ثم يعتقدون أنهم يستطيعون بلوغ هدفهم الذاتي من خلال السيطرة على الطبيعة والمجتمع، فإن التحديث يكون مجرد زعق وليد أيضا، ويدل التحديث في المقام الأول على الثقة في قدرة البشر على تغيير بيئتهم الطبيعية والاجتماعية من خلال التصرفات العقلانية. كما يوحي التحديث بتحرر البشر من قيود العالم الخارجي، وتحررهم أيضا من سيطرة الإله وإرادته والقدر على غرار ما فعل بروميثيوس»[(3)].

2- يجب أن يتسم «الشعب الصيني الحديث» بالكيان السيكولوجي المفتوح. ويختلف «الشعب الصيني الحديث» عن «الأفراد التقليديين» الذين يتمسكون بمغزى عقيدة «المركزية الذاتية العرقية» ويصرون على التعصب الأعمى للشعور القومي بالفوقية و«الحالة النفسية لإمبراطورية السماء». إن «الشعب الصيني الحديث» ينتهج أسلوبا إيجابيا ومفتوحا في معالجة تجارب الحياة، ويحافظ دائما على الشعور المتجدد لتغييرات العالم الخارجي، ويتعامل مع الثقافة الأجنبية بأسلوب مفتوح، ولديه «إحساس دولي» عميق و«وعي عالمي»، ويتمتع بالكفاءة والقدرة العقلية على الاستقبال الثنائي العالمي لكل مظاهر الحضارة المتقدمة، ولا توجد لديه عقبات سيكولوجية لدراسة واستيعاب التكنولوجيا والعلوم المتقدمة الأجنبية، والأفكار الثقافية الحديثة. بالإضافة إلى ذلك كله فالشعب الصيني الحديث سوف ينصهر في بوتقة الثقافة الصينية الحديثة.

ويتسم موقف «الشعب الصيني الحديث» بالانفتاح ليس على الثقافة المتقدمة الأجنبية فحسب، بل على الثقافة الصينية التقليدية أيضا، ويجتاز بنجاح الصدام والتعارض المتبادل بين النظام الشامل للثقافة التقليدية والتحديث، ولكن ليس كل عناصر الثقافة التقليدية لا تتماشى مع التحديث، وتتضمن عملية التحديث استيعاب الثقافة التقليدية وتحسينها وتعديلها، وإطلاق العنان للدور الوظيفي الكامل للتراث التقليدي رفيع المستوى. ولذلك يجب على «الشعب الصيني الحديث» أن يفهم الثقافة التقليدية

فهما عميقا، ويحقق الإفادة من إنجازات ثقافة السلف على أحسن وجه ممكن لبناء الحياة الحديثة وصنع المستقبل، ويعارض العصريون الإيمان بخرافات وخزعبلات الثقافة التقليدية وانتهاج أسلوب المحافظة والتصلب، ويطالبون بتكريس الجهود لاستيعاب الثروة القيمة للثقافة التقليدية. و«الإنسان العصري» أكثر إدراكا لقيم التراث الثقافي عن «الإنسان التقليدي»، وأكثر من يبادر بمنح قوة الحياة الجديدة والشكل الوجودي للثقافة التقليدية، وأشار إلكس إنكلز إلى أنه:

«إذا نظرنا من زاوية التطور التاريخي، نجد أن اتجاه التحديث في حد ذاته هو استمرار سليم وامتداد لحضارة البشرية التقليدية. إن اتجاه التحديث يبذل قصارى جهده لاستيعاب كل الثروة المادية والمعنوية التي أنتجها التاريخ البشري في الماضي من ناحية، ومن ناحية أخرى، يستخدم أيضا قوة الإبداع وكفاءة التغيير التي لم تعرفها التقاليد أبدا لدفع حضارة البشرية إلى قمة جديدة. وبالطبع من المؤكد أن عملية التحديث تجعل الناس يودعون بعض مظاهر الحياة التقليدية وعاداتها. ولكن استنادا إلى المغزى الجديد، فإن الإنسان العصري أكثر قدرة على الحماية الحقيقية للتقاليد وتقييمها والتمسك بها».

«إن الإنسان العصري يفهم التراث الفكري التقليدي دون غيره، ولا يؤمن بالخرافات والخزعبلات. ويجب على المعاصرين أن يجعلوا التراث التاريخي السابق في خدمة الحاضر، والتخلص من سلبياته والتمسك بإيجابياته، ولفظ أسلوب الجاهل الذي يعتقد أن أقوال وأفعال الأجداد والأموات والحكماء قاعدة ذهبية وحكمة ثمينة. ويأمل المعاصرون أن يكونوا أسياد الثقافة التقليدية ومتطوريها ومجدديها. ويرفض الإنسان العصري الركوع أسفل الفكر التقليدي مطأطأ الرأس ومغلق الأذن، كما يرفض أن يكون عبدا وسجينا ومتعصبا أعمى، وبكلمة أخرى، إن الإنسان العصري أكثر فهما لقيم التراث التاريخي من الإنسان التقليدي، وأكثر من يأخذ بزمام المبادرة لمنح التقاليد قوة الحياة الجديدة وشكلها الوجودي»[(4)].

وينشئ «الشعب الصيني الحديث» شبكة جديدة من معاني الثقافة الصينية الحديثة، ونظاما للقيم والاهتمام المطلق، ويحصل على ثروات القيم الجديدة وعقيدة المعاني والمفاهيم الثقافية، وبناء الفكر القومي الحديث

على هذا الأساس، وذلك من خلال الفكر الواسع للاستقبال الثنائي لكل إنجازات الحضارة التقليدية الصينية والأجنبية.

3- يتميز «الشعب الصيني الحديث» بالوعي الأساسي والإيجابي، وكانت العشيرة هي القاعدة عند الصينيين «التقليديين»، واتجاه المجتمع هدف لتحقيق الإنجازات. لذا أصاب الانحلال الوعي الأساسي والذاتي «للصينيين التقليديين». وعلى النقيض من ذلك، فإن جوهر تحديث البشر الصينيين هو إرساء دعائم الوعي الأساسي الإيجابي لديهم، وفي عملية التحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، يتغير مقياس سلوك الشعب من نمط السلوك المحدد إلى السلوك الاختياري، بمعنى أنه لم يعد يعتبر الشعب معيار السلوك المتوارث من جيل إلى جيل معيارا للتوجيه والإرشاد، بل يمارس الاختيار والتقييم المستقل على أساس قدرة التفكير العقلي الذاتي. إن الوعي الأساسي العام لأفراد المجتمع واتجاه الإنجازات الذاتية، جعل المجتمع الحديث يقيم نظاما يتسم بالنشاط والحيوية، ويطلق العنان لقدرات الأفراد الكامنة إلى درجة لم يسبق لها مثيل، ولذلك يعد هذا النوع من الوعي الأساسي والإيجابي بمنزلة الأساس السيكولوجي لدفع تطور الثقافة الاجتماعية إلى الأمام.

ويبرز الوعي الأساسي لـ «الشعب الصيني الحديث» بجلاء في «الوعي الذاتي» حيث يفضل التقييم الإيجابي لأوضاع الوجود الذاتي والقيم، ويواجه أحوال الحياة الحقيقية من خلال أسلوب الحياة الإيجابي، ويتميز «الشعب الصيني الحديث» بالاحترام الذاتي الشديد والشعور بالكفاءة. وكما قال ماركس إن الإنسان يجب عليه أن يدرك ذاته ويجعلها مقياسا لتقييم كل علاقات الحياة ويؤسس هذه العلاقات حسب جوهر ذاته، وينظم العالم في ضوء أسلوبه الحقيقي واحتياجات الطبيعة، وعلى هذا النحو «يستطيع الإنسان أن يحرز في حل الأحجية الحديثة» . إن الوعي الأساسي والإيجابي، والخصوصية الذاتية والقيم الفردية، والإيجابية والوعي الذاتي التام يمنح أنشطة حياة «الإنسان العصري» التشجيع الكبير، ولكن هدف الإنجازات للاتجاه الفردي لاينكر الاتجاه الجماعي. وبعد أن تعرضت وجهة النظر إلى القيم الجماعية في الثقافة الصينية التقليدية للتغيير من جراء حركة التحديث و«تبديل القيم»، تغلبت وجهة النظر تلك على جوانبها السلبية

التي تقمع التطور الذاتي للأفراد، واستطاعت أن تتحول إلى عناصر إيجابية في المجتمع الصيني الحديث، وتسهم في إقامة علاقات تعاون جديدة بين أفراد المجتمع، ولا يحيد الوعي الأساسي والإيجابي عن جماعية الثقافة الحديثة، بل دمج عنصر الجماعية في تركيب وجهة النظر إلى القيم الجديدة ومنحها مغزى جديدا، ويعد ذلك من الاختلافات بين «الشعب الصيني الحديث» و«الإنسان العصري» الغربي.

4- إن الإنسانية هي جوهر «الشعب الصيني الحديث» الذي يستخدم التطور الذاتي الكامل لتحقيق أهداف قيم الفكر الأخلاقي الجديد، وكانت العشيرة هي قاعدة الفكر الأخلاقي عند الصينيين «التقليديين» الذين أنشأوا معيارا كاملا للأخلاق على أساس علاقة رابطة الدم للعشيرة، وعلى العكس من ذلك، فإن الإنسانة هي جوهر الفكر الأخلاقي لدى «الإنسان العصري». ويتجسد هدف القيم في التطور الذاتي الشامل، وليس من السهل على الإنسان أن ينجز واجبات الأخلاق، ولكنه يقدم بصورة مستقلة هدف الأخلاق ويحققه ويرسي دعائم القيم الأخلاقية ويسعى وراءها. ويظفر التطور الذاتي الكامل وتحقيق القيم بالإيجابية والاحترام. ولا تقمع قواعد السلوك الاجتماعي ومقاييسه الموضوعية الذاتية والإبداع ولا تخنقهما، بل تساعد على الموضوعية الذاتية وإعطاء الدور الكامل للإبداع، وتسهم أيضا في التطور الذاتي الكامل في الجوانب المختلفة وازدهارها. ويتميز «الإنسان العصري» بالمفهوم الأخلاقي الموحد مع اتجاه القيم في المجتمع الحديث، والحالة النفسية الأخلاقية التي تتسم بالاستقرار والانسجام على أساس الحياة الجديدة، وينشىء على أسس واضحة «مقياس الأخلاق بمعناه الواسع» الذي يعتبر أكثر الجوانب الإيجابية في «تقييم البشر». ولذا يجب على «الإنسان العصري» أن يتحلى بالشخصية الذاتية الكاملة والسيكولوجية السليمة والطباع النبيلة والحماسة والإخلاص.

ويدحض الفكر الأخلاقي لـ «الشعب الصيني الحديث» الفكر الأخلاقي في الثقافة التقليدية الصينية ويتفوق عليه، ولكن هناك العديد من عناصر الثقافة الأخلاقية في الصين التقليدية التي «استمرت لفترة طويلة» وتشتمل على المضمون الإيجابي المحدد، ولعبت دورا كبيرا في تصوير الطبيعة القومية للصينيين. ولذلك لم تفند حركة التحديث تماما التراث الممتاز للثقافة

الأخلاقية التقليدية الصينية ونبذه، بل تخلصت من وظائفه وعناصره السلبية التي تعيق تطوير التحديث، وقامت بإصلاح جوانبه الإيجابية والسلبية لتسهم في تحديث الأشياء ودمجها في الثقافة الأخلاقية الصينية الحديث، وجعلها جزءا من الفكر الأخلاقي لـ «الشعب الصيني الحديث»، وهذا يعني أن «الشعب الصيني الحديث» مازال يتمسك ببعض المشاعر والأحاسيس والصفات الأخلاقية النبيلة للصينيين التقليديين، ويتمسك بالسلوك الأخلاقي القومي المميز.

5- يجب على «الشعب الصيني الحديث» أن يستخدم معارف العلوم الحديثة في تكوين أسلوب جديد للتفكير ومجال الرؤية الواسعة، ويفضل الصينيون التقليديون أسلوب الإدراك الحسي الكلي واتجاه التفكير الشامل، ويرتبط أسلوب الإدراك الحسي واتجاه التفكير بطريقة الإنتاج في الاقتصاد الزراعي التقليدي، ويفرض مجال أنشطة الناس قيودا على مجال رؤيتهم وتفكيرهم. ولكن يستخدم المجتمع الحديث المعارف الثقافية والعلمية رفيعة المستوى لتكون أساسا له، وفي المجتمع الحديث، تقوم الصناعة الحديثة والعلوم والتكنولوجيا بتوسيع مجالات أنشطة الشعب بصورة كبيرة وتعمق مجال رؤيته وتغير أسلوب تفكيره. ويتزود «الإنسان العصري» بالمعارف الثقافية والعلمية الحديثة، وافتقاره إلى تلك المعارف تجعله عاجزا عن أن يعيش حياة عادية في المجتمع الحديث. وتقدم العلوم الحديثة للناس نظم مفاهيم تقصي الحقائق والإدراك والشرح، ولا يدرك الناس العالم إدراكا حسيا حسب هيكل مفاهيم الثقافة التقليدية، بل من خلال آفاق الرؤية الواسعة للعلوم الحديثة، ويستخدمون المفاهيم التي تقدمها العلوم الحديثة لتحقيق الإدراك الحسي للكون وتعرفه، وفهم العلاقة بين الإنسان والكون وإدراكها، وتعزيز الشعور القوي والشامل والعميق»[5] في جانب التعرف والتعلم بالتجربة الشخصية من القدرة الأساسية للعالم، ولذلك يتميز «الشعب الصيني الحديث» بالعالمية بعيدة المدى والرؤية الثاقبة للأحوال السائدة في الوقت الحاضر، ويستطيع التفكير في الحياة الحقيقية الحالية من منظور الخلفيةالمرئية لمسيرة التاريخ العالمي.

وتغلب «الشعب الصيني الحديث» على مجال الرؤية الضيقة والرؤية قصيرة المدى للتقليديين، ويطور الأسلوب الفكري القيادي وينتهج الأسلوب

المفتوح المناسب لمتطلبات المستقبل، حتى يستطيع أن يستخدم الرؤية الثاقبة المستقبلية في تقصي الحقائق والمقارنة بينها والتمسك بها، وتحويل الفكر القيادي إلى قوة جديدة للحياة أو التنبؤ بها. كما تغلب الشعب الصيني الحديث على غموض التفكير التقليدي والحدسية ويطور أسلوب التفكير المنطقي العالمي، وحقق الشمولية والتعدية الجديدة في الأسلوب الفكري على أساس النظم الحديثة للأفكار. ولا يعد التفكير الشمولي الجديد عودة إلى التقاليد، بل يستعن بـ «الآفاق العالمية» الموحدة الجديدة التي أقامتها معارف العلوم الحديثة ونموذج التفكير، ويؤسس «تركيبا جديدا للأفكار» في ضوء هذه الشروط.

6- تتميز شخصية «الشعب الصيني الحديث» بالتطور الشامل والانسجام والصحة، وذلك بفضل الخصائص المذكورة آنفا، كما يتمتع بالكيان السيكولوجي المنسجم والمستقر، والوعي الأساسي الإيجابي والوعي الذاتي، ويستطيع أن يمارس بوعي الإختيار من تلقاء نفسه في جانب تنمية الشخصية وتطويرها، ولا يعتمد على نفوذ الآخرين، بل يسطر على حياته الذاتية بصورة واعية ومستقلة، ويتسم بإحساس المسؤولية الجلي إزاء حياته الذاتية، ويعتمد بصورة اكبر على قدراته ونظام القيم لاختبار طريق حياته الذاتية، والمثل العليا لشخصيته وصورته الذاتية، و«الشعب الصينين الحديث» هم أناس يمارسون اختبار الذات من خلال المبادرة الذاتية الإيجابية. إن «الإنسان العصري» يحقق الترابط بين المبادرة الذاتية والإستقلالية، وتتسم أفكاره بالإيجابية إزاء عالم حياته الذاتي وعالم الآخرين، ويطبق «الشعب الصيني الحديث» مبدأ «التوافق الذاتي»، ويجسد وجوده الذاتي وقوته الذاتية المتطورة، ويوطد نفسه بثبات في العالم الحقيقي، ولديه القدرة الملائمة للحياة الحقيقية، ولكنه ليس سلبيا تماما في المحافظة على علاقات الإبداع الوثيقة المطردة بين الحقيقة وذاته الحقيقية وهدفه وكفائته وإنجازاته، ولذلك يتميز «الإنسان العصري الصيني» بالهدف القوي والقدرة على الإبداع، ويعالج دائما كل الموضوعات من خلال أسلوب الإبداع.

وقصارى القول إن ملامح شخصية «الشعب الصيني الحديث» تتسم بالمبادرة الذاتية والإبداع، وهو يختلف عن «الأفراد التقليديين» الذين لديهم التسلط واتجاه التطور الانطوائي، بل يحصل على مغزى الحياة والتفوق

على الحياة الواقعية من خلال الوعي الأساسي والإيجابي وتطوير الانبساط[6].

إن ما قدمناه آنفا من وصف لملامح «الشعب الصيني الحديث» يحمل في طياته صفات الغموض والحدسية، ويعد مجرد تأكيد عام لتلك الصفات انطلاقا من اتجاه التطور، وإذا أردنا رسم نموذج كامل لـ «الشعب الصيني الحديث»، فإذا ذلك يتطلب الإفادة من طرق وتكنولوجيا العلوم الحديثة وإجراء عدد كبير من دراسات البرهين الوقعية، ومن ناحية أخرى إن «الشعب الصيني الحديث» مفهوم في طور التشكيل، ونوع من الشخصية في طور الإعداد، ولا ينتمي إلى العصر الذي نعيش فيه، بل أن الصينيون في المستقبل، واليوم أي تقييم من جانبنا للمستقبل يحمل في طياته خصائص التخمين الذاتي، ولذلك من المستحيل أن نصور ملامح «الشعب الصيني الحديث» وصفات شخصيته تصورا كاملا. ولكن نستطيع أن نقول في ثقة إنه يجب على «الشعب الصيني الحديث» أن يتمسك بكل الصفات رفيعة المستوى للصينيين التقليديين. وفي الوقت ذاته، يتحلى بملامح الشخصية التي تقدمها الثقافة الحديثة أيضا. ويحقق الانسجام بين مفهوم قيمه وأسلوب عمله وفكيره واتجاهه النفسي وغيرها من الجوانب الأخرى مع اتجاه تحديث الثقافة الصينية. إن شخصية الصينيين سليمة ومنسجمة وكاملة، ولذا يمكن أن نعتبرها هدفا لتطور الصينيين، ويظهر الصينيون قيم المثل العليا أن يكرس الصينيون أنفسهم للبحث عن المثل العليا للشخصية، وإذا اعترفنا بأن التحديث في الصين عملية لا يمكن أن تتدهور، وأن الثقافة الحديثة هي الاتجاه الرئيسي لتطور الثقافة الصينية، فإن «الشعب الصينين الحديث» سوف يكون «الهيكل الرئيسي للشخصية» أو «الطبيعة الاجتماعية» للصينيين في المستقبل.

إن الاختبار الأساسي للصينيين هو السير على درب «الشعب الصيني الحديث». وفي عملية السير على درب «الشعب الصيني الحديث» يعاد بناء الفكر الثقافي للصينيين من جديد، وإعادة تكوين نظام المعاني الثقافية وإعادة تصوير الروح القومية للصينيين، ومن ثم يمكن تكوين الشخصية العالمية الغنية المتنوعة المفعمة بالنشاط والحيوية للصينيين المعاصرين.

الهوامش

(1) كارل جوستاف يونغ، «اكتشاف أسرار الإنسان العصري»، دار نشر العلوم الإجتماعية، طبعة عام 1987، ص 188.

(2) دانييل بيل، «تناقض ثقافة الرأسمالية»، مكتبة سان ليانغ، طبعة عام 1989، ص 96.

(3) هينتتجتون «النظام السياسي في المجتمع المتغير»، دار نشر التراجم في شنغهاي، طبعة عام 1989، ص 108.

(4) إلكس إنكلترا، «تحديث الإنسان»، دار نشر سيتشوان الشعبية، طبعة عام 1985، ص 58-60.

(5) انظر «مختارات ماركس وإنجلز الكاملة»، المجلد 42، ص 126 «بالصينية»

(6) الانبساط Extroversion: انصراف الاهتمام إلى كل ما هو خارج الذات (المترجم).

32 التنبؤات والشروط: التقدم نحو القرن الحادي والعشرين

أن «الشعب الصيني الحديث» هو مستقبل الصين، وهو الصينيون في المستقبل أيضا، ولكن هذا المستقبل ليس بعدا جدا، ويسير الصينيون الآن على درب «الشعب الصيني الحديث». بالاضافة إلى أنهم قطعوا أكثر من نصف مسافة العملية الطويلة للإنتقال من «الأفراد التقليديين» إلى «الأفراد المعاصرين». وتضعف آثار «الأفراد التقليديين» تدريجيا في طبيعة ملامح «الإنتقاليين» في الوقت الحاضر، وتقوى صفات «الإنسان العصري» يوما بعد يوم. وفي الأبواب السابقة قدمنا عرضا مدعما بالبراهين على أنه حسب التصورات الحالية سوف تنيهي الصين من الإنتقال والتحول من المجتمع التقليدي إلي المجتمع الحديث في منتصف القرن الحادي والعشرين تقريبا، وتنجز مرحلة الإنتقال التاريخية الكبرى التي استغرقت أكثر من مائتي عام، وتؤسس المجتمع المتطور الحديث. إن تغيير البشر الصينيين وتغيير بيئتهم متشابهان بصفة عامة. ومن ثم يجب على الصينيين أن ينجزوا التحول والإنتقال من «الأفراد التقليديين» إلى «الأفراد المعاصرين» في منتصف القرن القادم،

حيث يودعون عصر «الأفراد الانتقاليين» ويتحولون إلى «الإنسان العصري». وبكلمة أخرى يجب على الصينيين آنذاك أن يكون لديهم اتجاه مزاج «الإنسان العصري» وطبيعته الخاصة، وذلك من خلال النظر إلى تركيب الشخصية الرئيسي للمجتمع أو النظر إلى الطبيعة الكاملة القومية، وأنجزت الأمة الصينية التحول والتجديد التاريخي وأصبحت قومية حديثة تستخدم الأجهزة الثقافية الحديثة والجديدة، ولديها مفاهيم القيم الحديثة والفكر الثقافي الحديث.

ولذلك السير على درب «الشعب الصيني الحديث» هو في حد ذاته التقدم نحو القرن الحادي والعشرين. وإذا قلنا إن القرن العشرين رسم الصورة النموذجية الكبرى للصينيين من جديد، فهو أيضا قرن خروج الصينيين من المجتمع التقليدي، وبالتالي سيكون القرن الحادي والعشرو، قرن دخول الصينيين في المجتمع الحديث، ويتسم القرن الحادي والعشرون بالأهمية الكبرى بالنسبة للصينيين.

يتقدم الصينيون نحو القرن الحادي والعشرين في الوقت الحاضر، ولا تمنح تطلعات القرن الحادي والعشرين التشجيع الكبير لحياة الصينيين فحسب، بل تجعلهم يحددون بوضوح أكثر هدف التطور. وفي الواقع، لقد اقترب الصينيون من البوابة الكبرى للقرن الجديد، والآن بينهم وبين نقطة تحول القرن (عام 2000)، عشر سنوات فقط، وتعد حقبة التسعينات مرحلة حاسمة جدا بالنسبة للعالم قاطبة، وكما أشار عالم المستقبليات الأمريكي ناسبيت J.Nassbitt إلى:

«أننا نواجه أهم عشر سنوات في تاريخ الحضارة، كما نواجه أيضاً الإبداع التكنولوجي الذي لا يمكن تصوره، والفرصة الإقتصادية التي لم يعرفها التاريخ من قبل، والإصلاح السياسي يلجم الآخرين بالدهشة ويتفوق عصر النهضة الثقافية على المألوف، وتختلف عشر السنوات هذه عن غيرها لأنها سوف تبلغ قمة القرن العشرين عام 2000.

ومنذ عدة قرون، يتميز عام 2000 بالمغزى الرمزي للأيام العظيمة ويمثل المستقبل، وكيف سنفهم ذلك، وسوف يأتي المستقبل بعد مرور عدة سنوات قصيرة.

إننا نخضع لسيطرة سنة 2000 التي تشبه المغناطيس القوي، وتؤثر في

البشرية وتقتحم حقبة التسعينات وتمنحها الأهمية الكبرى. إن سنة 2000 تثير مشاعرنا وإحساسنا الآن، تعجل بتغيير العالم، وتغزز إحساس العصر لدى الجماهير الغفيرة، بالإضافة إلى إرغامنا من جديد على فحص أنفسنا بدقة، ووجهة نظرنا إلى القيم وأسلوب أعمالنا[1].

إن حقبة التسعينات ستكون عصر التغييرات الكبرى على صعيد النطاق العالمي، وسوف تتكون تشكيلة جديدة للعالم بعد اجتيازه إعادة التنظيم والاضطراب الكبير للقرن العشرين[2].

وأفسحت الحرب الباردة محلها للإنفراج تدريجيا، وأصبح السلام والتنمية من الموضوعات الرئيسية العالمية، وتظفر المصالح المشتركة للبشرية والمشكلات الدولية بالرعاية والاهتمام واسع المدى من جانب الشعوب يوما بعد يوم، ويقوى دور العالم الثالث في الشؤون الدولية أكثر فأكثر. وربما يحعلنا ذلك نكافح من أجل تحقيق بيئة خارجية تسهم في بناء تحديث الصين، ومن ناحية أخرى، سوف تصبح منطقة شرق آسيا وجنوب شرق آسيا أسرع مناطق التنمية الاقتصادية في إطار الاتجاه الجديد لتنمية التكامل الاقتصادي العالمي، وإنشاء المنطقة الإقتصادية في محيط آسيا-الباسيفيك. ويعد ذلك فرصة نادرة وتحديا قويا بالنسبة لبناء التحديث في الصين. واغتنام هذه الفرصة ومواجهة هذا التحدي سوف يجعل بناء التحديث في الصين يصل إلى مستوى جديد، وسيجعل الصينيين يدخلون القرن الحادي والعشرين وروحهم المعنوية أكثر ارتفاعا. ولذلك تعد عشر السنوات الأخيرة من هذا القرن مرحلة حاسمة جدا في العملية التاريخية لبناء التحديث في الصين. وحسب التوقعات التي طرحتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني، سوف يحقق الصينيون الخطوة الثانية للهدف الإستراتيجي لبناء التحديث في الصين في تلك السنوات العشر، وتعزيز المزايا العامة للإقتصاد الوطني إلى مستوى جديد، وفي تلك السنوات العشر، تطلب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني تحقيق الآتي:

- بذل الجهود المضنية التي تهدف إلى زيادة الفائدة الاقتصادية، وتغيير أساس الهيكل الأقتصادي إلى الأفضل، ومضاعفة القيمة الإجمالية للناتج القومي الإجمالي عما كان عليه في الثمانينيات في أواخر القرن الحالي، وذلك طبقا لحساب الأسعار المستقرة. ويتطلب تحقيق هذا الهدف زيادة

معدل متوسط القيمة الإجمالية للناتج القومي الإجمالي بنحو 6٪ سنويا، وستكون سرعة هذه الزيادة مرتفعة نسبيا في النطاق العالمي.

- تغيير حياة الشعب من اللباس الدافي والطعام الكافي إلى الحياة الميسورة، وتكون ويسائل الحياة أكثر يسرا، ويتجه هيكل الاستهلاك إلى الترشيد، وتحسين أحوال الإسكان بصورة كبيرة، ودفع إغناء الحياة الثقافية إلى الأمام، ورفع مستوى الصحة باستمرار، واستكمال منشآت الخدمة الاجتماعية بصورة مستمرة.

- تطوير قضية التعليم، وتعزيز التقدم العلمي، وتحسين الإدارة الاقتصادية، وتعديل الهيكل الاقتصادي، وتقوية البناء الأساسي، وذلك من أجل إرساء أساس التكنولوجيا المادية للاقتصاد الوطني والتطور الاجتماعي المستمر في مطلع القرن الحادي والعشرين.

- تأسيس الاشتراكية الأولية المناسبة التي يكون أساسها نظام الملكية العامة، والتي تتميز بوجود خطة لتطوير الاقتصاد التجاري، وتحقيق الاندماج بين الخطة الاقتصادية وتعديل السوق، والنظام الاقتصادي والآلية الاقتصادية المتحركة.

- بلوغ البناء الحضاري للروح الاشتراكية مستوى جديدا، ودفع الديمقراطية الاشتراكية والنظام القانوني إلى الكمال[(3)].

وينطلق هدف التطور في حقبة التسعينيات الذي طرحته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني من تحليل قوة الصين وأحوالها في المرحلة الحالية والتقييم المرحلي لمسيرة التحديث. وأحرز الصينيون إنجازات ضخمة في الإصلاح والانفتاح وبناء التحديث في حقبة الثمانينيات وشهدت الحياة

الاقتصادية والاجتماعية في الأرياف والمدن والمناطق الساحلية والداخلية ازدهارا ونشاطا لم يعرفه التاريخ من قبل في تلك الحقبة. وتعززت قوة الصين الاقتصادية بصورة ملحوظة، وطرأت تغييرات عميقة على ملامح المجتمع. إن الإنجازات العظيمة في حقبة الثمانينيات وطدت دعائم ثقة الصينيين لبناء التحديث بقلب واحد وعزيمة واحدة، وشحذت قوة الإرادة والشجاعة لقهر الصعوبات، وأرست أساسا متينا نسبيا لتطوير المجتمع والاقتصاد في حقبة التسعينيات. ولذلك إذا توافرت الجهود المضنية المشتركة للصينيين جميعا، فإن هدف التطور المذكور آنفا يمكن تحقيقه في نهاية

القرن الحالي. وإذا حقق الصينيون هذا الهدف، فإن ذلك يعد تطورا كبيرا لقضية بناء تحديث الصين في القرن الحادي والعشرين، كما يعد بمنزلة التحول الشامل للمجتمع الصيني الحديث ويقدم الاحوال الملائمة للتحديث التي يمكن الاعتماد عليها إلى حد ما. وتتميز حقبة التسعينيات بمغزى التصميم من حيث استطاعة الصينيين دخول القرن الحادي والعشرين بصورة ميسرة.

ولكن بالنسبة للصينيين يعد تحقيق هدف التطور في حقبة التسعينيات تحقيقا كاملا أمرا صعبا، وإذا نظرنا إلى الظروف الذاتية أو الموضوعية، أو تناولنا الأحوال الداخلية أو الخارجية، فكلها مازالت تحتفظ بالعديد من الصعوبات والعقبات، والمشكلات والعراقيل الكثيرة التي يمكن توقعها أو لا يمكن التنبؤ بها. ولذلك تغص حقبة التسعينيات بكل الفرص، وتكتظ بكل أنواع التناقضات والأزمات والتحديات أيضا، وتعد اختبارا قاسيا للصينيين. وأهم شرط لقهر كل الصعوبات والعقبات والعراقيل المستقبلية، وتحقيق هدف التطور في حقبة التسعينيات هو دفع التعبئة الواسعة للمجتمع إلى الأمام، وتحقيق الإجماع بصورة أكبر لهدف التطور عند الصينيين جميعا، وتكاتفهم ليصبحوا وحدة شاملة تخوض غمار الكفاح الشاق. وفي الأصل يعد التاريخ قضية الشعب. وإذا لم يتوافر الإجماع الأكبر والمشاركة الواسعة للشعب كله، فإن أبناء الشعب يفتقرون إلى الكفاح المشترك والجهود المضنية والتضحية بالنفس، وبالتالي من المستحيل تحقيق أي هدف عظيم أو أي خطة طموحة.

ولذا، يعد تحقيق هدف التطور في حقبة التسعينيات، وتوطيد الأساس لبناء تحديث الصين في القرن القادم بمنزلة قضية للشعب الصيني كله، ومهمة يقدمها التاريخ للجيل الحالي من الصينيين الذين يقفون في منعطف هذا القرن وسوف يدخلون مع الصين القرن الحادي والعشرين. إذن، ما المزايا العامة للجيل الحالي من الصينيين، وهل يستطيع أن يتحمل المهمة التاريخية، وهل يتحلى بالشروط الأساسية والذاتية حتى تستطيع الصين الانتقال بسلاسة إلى القرن الحادي والعشرين أو لا وتكمن عقبات وعراقيل طريق مستقبل الصين في النواحي المادية والاقتصادية والسياسية. كما تكمن أيضا في الجانب السيكولوجي والثقافي، وفي الواقع وعلى الرغم من

أن عناصر التخلف والسلبية في الجانب السيكولوجي والثقافي غير مرئية ومستقرة، فإنها تؤثر تأثيرا خطيرا وتعرقل المسيرة الموضوعية لبناء تحديث الصينيين، وفي الأبواب السابقة تناولنا بالتحليل ملامح طبيعة «الأفراد الانتقاليين» لدى الشعب الصيني الحديث، ومن بينها الجانب الإيجابي الملائم لاتجاه تطوير التحديث، وكذلك حللنا الجانب السلبي لمخلفات الثقافة التقليدية غير المناسبة لتطوير التحديث، وظهر الجانب السلبي بصورة رئيسية في السيكولوجية الاجتماعية للتقاليد وعقيدة المعاني والمفاهيم الثقافية وأسلوب التفكير ومفهوم الأخلاق وخصائص الشخصية وغيرها من الخصائص المتنوعة الأخرى التي تبتعد عن أهداف قيم التحديث، وتعد بمنزلة العناصر السلبية التي تعيق المسيرة الإيجابية لبناء التحديث، ولذلك يجب على الصينيين زيادة الوعي بالأحوال السائدة في هذا القرن، والاستمرار بوعي في إنجاز مهمة التغيير من «الأفراد التقليديين» إلى «الأفراد المعاصرين» من تلقاء أنفسهم، والمضي قدما في التغلب على العناصر السيكولوجية الثقافية التي تلحق الأضرار بالتحديث، والتنويه بالعناصر السيكولوجية الثقافية التي تسهم في التحديث والتطوير، وإضعاف الطبيعة الخاصة «للتقليديين» الموجودة داخل «الأفراد الانتقاليين» باطراد، وتقوية الملامح الخاصة لى «الإنسان العصري»، ودفع تعزيز المزايا السيكولوجية الثقافية للأمة إلى الأمام، وبالتالي يتحمل الشعب الصيني المسؤولية والمهمة التاريخية حقا. وعلى كل حال، إن إنجاز هدف التطور في حقبة التسعينيات ينطلق من الأنشطة الإبداعية للجيل الحالي من الصينيين. ولكن الخصائص الشاملة وأحوال الإدراك الأساسي والفكر الإبداعي لدى «االصينيين» سوف يقرر درجة تحقيق هذا الهدف، كما سوف يقرر أيضا مستوى تعزيز التحديث في الصين.

إن حقبة التسعينيات تعد فترة حاسمة لمسيرة التحديث الصيني، ولذا يعد مستوى تحديث الصين أهم مشكلة حرجة في هذه الفترة الحاسمة.

ويعد تحديث البشر الصينيين بمنزلة تجديد لثقافة الأمة وإعادة رسم صورتها النموذجية، كما هو أيضا إصلاخ وإعادة بناء الفكر الثقافي وعقيدة المعاني والمفاهيم الثقافية ومفهوم الاخلاق وأسلوب التفكير وغيرها. إن التقدم نحو القرن الحادي والعشرين ليس مفهوما زمنيا ولا نقوم بقلب

التقويم حتى عام 2000، ونحسب أننا دخلنا القرن الحادي والعشرين، ويتميز كل قرن بالموضوع والرمز الخاصين به. ولايوجد سوى أن يتقبل الصينيون هذا الموضوع والرمز، وعندما يتم الانسجام والتوافق بين هذا الموضوع والرمز والفكر الثقافي للصينيين، يستطيع الصينيون القول إنهم دخلوا القرن الجديد. ولا يتوقف التقدم نحو القرن الحادي والعشرين على هدف تنمية الإقتصاد وتحقيق «مضاعفة» الناتج القومي الإجمالي، ونعتبر ذلك الدخول إلى القرن الحادي والعشرين. إن التحديث ليس حركة اقتصادية بحتة، بل يشتمل على التحول الشامل في الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وغيرها من الجوانب، ويحتاج التحديث إلى تحقيق الانسجام والتوافق بين تلك الجوانب المتباينة. ولذلك، لا تعد حقبة التسعينيات بالنسبة للصين فترة حاسمة للتطور الإقتصادي فحسب، بل إنها أيضا فترة تعزيز مستوى تحديث المجتمع كله إلى الأمام، وفترة حاسمة أيضا لإعادة بناء الثقافة الصينية الحديثة. وفي عملية تحديث الصين، تعتبر الثقافة الصينية التقليدية وحدة كاملة وتلعب دورا خطيرا للإعاقة، ويعد تحطيم تركيب هيكل الثقافة التقليدية شرطا لتقدم الصينيين نحو التحديث. ولكن هناك بعض عناصر الثقافة التقليدية التي يمكن أن تلعب دورا إيجابيا في عملية التحديث. ويكمن حل تناقض الثقافة التقليدية في تعديل قيم تلك الثقافة وتبديلها حتى تصبح جزءا من الثقافة الصينية الحديثة. وتنطوي إعادة بناء الثقافة الصينية الحديثة على ميراث الأشياء القيمة الإيجابية للثقافة التقليدية وتعديلها، بالإضافة إلى الاستيعاب الكامل للفكر الثقافي المتقدم للبشرية. وبالتالي يمكن تعزيز الروح القومية للصينيين وتقديم الرعاية المطلقة لمغزى القيم الثقافية الحديثة بهدف تكريس كل الجهود لتحقيق بناء تحديث الصينيين.

إن حقبة التسعينيات هي السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين، ولذلك يجب أن تكون تلك الحقبة عصر إعادة التقييم من جديد وإجراء تلخيص لتجارب التاريخ وتقلبات الفكر. وأيا كانت وجهة النظر التي نتحدث منها، يعد القرن العشرون كله «العصر الكبير» للشعب الصيني. وأحدث القرن العشرون تغييرات شاملة على ملامح المجتمع الصيني وأعاد رسم الصورة النموذجية الكبرى للصينيين وجعلهم يخرجون من المجتمع التقليدي

للقرون الوسطى، ويدخلون في التيار العالمي للتحديث. وأصبح التحديث موضوع الصين في القرن العشرين. ويمكن أن تحصل كل التحولات والاضطرابات وصدامات الثقافة الاجتماعية الصينية في القرن العشرين على التفسير ومغزى القيم في ضوء الموضوع الكبير للتحديث. ولذلك أهم جانب في تلخيص حقبة التسعينيات وتقييمها هو تقييم طريق التحديث الصيني ونموذج هدف التطور وإيجازهما واستكشاف نموذج تعزيز التحديث الملائم لظروف الصين ونموذج هدف التطور وإيجازهما، واستكشاف نموذج تعزيز التحديث الملائم لظروف الصين من خلال مثل ذلك التلخيص والتقييم. ويعد ذلك من الشروط المهمة للتقدم نحو ازدهار ورفاهية القرن الحادي والعشرين. ونعرف أن فكر الصينيين في عملية التغيير إلى التحديث التي استغرقت أكثر من مائة سنة قد تجاوز عملية السلبية وتحول إلى استرداد زمام المبادرة. وقامت عدة أجيال من الشعب الصيني بإجراء استكشافات مضنية وشاقة للغاية في سبيل البحث عن طريق التحديث في الصين، وتغلبت على العديد من النكسات والأخطاء التي يمكن أو لا يمكن تجنبها، ووصلت في النهاية إلى مستوى التنمية الحالي، وبلغت درجة الإدراك التي تشتمل على روح التحديث الأكثر ملاءمة لأحوال الصين، ووضع إستراتيجية لتطوير التحديث تعطي الأولوية للتطور المتناسق المستمر وتحقق التطور الشامل في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي وغيرها من الجوانب الأخرى، وذلك من خلال استعراض الأحداث التاريخية وتقلبات الفكر وتقييم تحولات التحديث في القرن العشرين وإيجازها . إن التحديث عملية تاريخية موضوعية يبادر البشر فيها بالمشاركة والإبداع التاريخي. ولذلك يستكشف الصينيون طريق التحديث ويعدلون نموذج هدفهم وإستراتيجية تطورهم من خلال جانبين هما : إمكان استعراض العملية التاريخية وتلخيصها، واستخلاص خبرة التاريخ وتطلعات القرن الحادي والعشرين. ولذا يتجنبون التعرج في الطريق بقدر المستطاع. وفي الحقيقة، إن إقامة بناء التحديث واكتشاف طريق التحديث يعدان عملية واحدة. وهذا الاكتشاف والاختيار لا يمكن تحقيقهما قبل الإنجاز الكامل للتحول إلى المجتمع الحديث في الصين، ويتقدم الصينيون نحو التحديث و«الشعب الصيني الحديث» في أثناء عملية استكشاف طريق التحديث واختياره.

وتتميز حقبة التسعينيات بالمغزى المهم والخاص في أثناء العملية الكبرى لتقدم الصينيين نحو التحديث و«الإنسان العصري». وحقبة التسعينيات هي مدخل المرور إلى القرن الحادي والعشرين، وبعد مرور تلك الحقبة، سيقف الصينيون عند نقطة الانطلاق للقرن الجديد، وقد استجابت أعماقهم إلى نداء القرن الجديد.

ويقول ناسبيت:

«في الأصل كان يوجد في قلب البشرية وأفكارها نوع من التزمت تجاه الحياة والسعي وراء المثل العليا للرفاهية والسلام العالمي، واليوم قد أدركنا ذلك كله بجلاء، وقد سلكت البشرية طريقا لمدة عشر سنوات، وواجهت التحدي العظيم حتى تتمتع بالبداية الجديدة في عام 2000.

وتعد حقبة التسعينيات عصرا غير عادي، وسوف تحدث الأوامر المحسوبة دويا 1992 ,1993 ,1994، .....، من فضلك استعد جيدا، أنت تقف في الصف الأمامي، وتواجه الآن السنوات العشر التي تعد أكبر مؤثر وأعظم تحد في تاريخ حضارة البشرية»(4).

الهوامش

(1) ناسبيت، آباتوني P. Abbotony «، الاتجاه الكبير عام 2000-الاتجاهات العاشرة الجديدة في التسعينيات»، د أر الشروق للنشر، عام 1990، ص 1.

(2) طرح ناسبيت وآباتوني عشرة اتجاهات للتطور في التسعينيات هي:

1- ازدهار الاقتصاد العالمي في التسعجنيات.

2- النهضة الأدبية والفنية.

3- ظهور السوق الحر الاشتراكي.

4- إضفاء الطابع القومي على الثقافة وأسلوب الحياة في العالم.

5- خصخصة دول الرفاهية.

6- بروز منطقة آسيا- الباسيفيك.

7- تتولى المرأة المناصب القيادية.

8- عصر علم البيولوجيا.

9- إحياء عقيدة العصر الألفي الثالث السعيد الذي سيملك فيه المسيح على الأرض.

10- تحقيق النجاح الذاتي.

وعلى الرغم من أن تنبؤاتهما تحمل في طياتها النطاق المحدود الذي لا يمكن تجنبه، ولذا يوجد بها نواقص كثيرة، فإن المعلومات وأفكار الدراسة التي قدمتها تلك التنبؤات تتمتع بالقيم التنويرية التي يسترشد بها الصينيون في التقدم نحو التاريخ العالمي في السنوات العشر المقبلة.

(3) انظر «برنامج السنوات العشر لتطوير المجتمع والاقتصاد الوطني واقتراح الخط» «الخمسية الثامنة» اللذين حددتهما اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني في 30 ديسمبر عام 1990».

(4) ناسبيت، آباتوني، «الاتحاد الكبير عام 2000-الاتجاهات العاشرة الجديدة في التسعينيات»، دار الشروق للنشر، طبعة عام 1990، ص 344.

33 سؤال: هل يستطيع الصينيون الخروج مق القرن العشرين؟

يتقدم الصينيون الآن نحو القرن الحادي والعشرين، وسيكون تطور القرن الحادي والعشرين على أساس القرن العشرين، ومن الناحية المنطقية، إن القرن الحادي والعشرين هو إستمرار لموضوع القرن العشرين وتعميقه. ولكن، تطور القرن الحادي والعشرين سوف يغير أحوال وأشكال أنشطة الصينيين تغييرا كاملا، ولذلك يمكن التمييز بين طبيعة القرن الحادي والعشرين والقرن العشرين. وكما أشار ماركس إلى أنه:

«يستفيد كل جيل من المعلومات ورؤوس الأموال والقوة الإنتاجية الموروثة من الاجيال السابقة، ولهذا السبب يستمر كل جيل في ممارسة أنشطة الجيل الأكبر والأقدم في ظل التغيير الشامل للأحوال من ناحية، ومن ناحية أخرى، يغير الأحوال القديمة أيضا من خلال التغيير الكامل للأنشطة»[1].

يعد القرن العشرون أهم قرن في تاريخ الصين حيث جعل الصينيين يحطمون هيكل الثقافة

التقليدية، وقاد الصينيين إلى الخروج من «القرون الوسطى» الطويلة جدا، والدخول في تيار التحديث العالمي. ولكن يعد كل قرن فترة زمنية تاريخية يحمل المحدودية التاريخية والملامح المحددة. وأعاد القرن العشرون رسم الصور النموذجية الكبرى للصينيين، وفي الوقت نفسه، منح الصينيين خصائصه المميزة ومحدوديته التاريخية. وعندما يدخل الصينيون في القرن الجديد، يواجهون المهمة التي تفوق القرن العشرين. وبكلمة أخرى، في حقبة التسعينيات يواجه الشعب الصيني الحديث المهمة التاريخية المزدوجة: المضي قدما في إنجاز تغيير الطبيعة القومية للصينيين في القرن العشرين وتحقيق تحديث أفراد الشعب من ناحية، ومن ناحية أخرى تخطي القرن العشرين والظروف المحددة فيه، وتحقيق الانتقال إلى القرن الحادي والعشرين، ولا يريد الصينيون الخروج من «القرون الوسطى» فحسب، بل يريدون الخروج من القرن العشرين أيضا. والخروج من القرن العشرين هو شرط الدخول في القرن الحادى والعشرين.

إذن، نطرح هذا السؤال: هل يستطيع الصينيون الخروج من القرن العشرين؟

يعد ذلك مشكلة رئيسية يواجهها الصينيون في حقبة التسعينيات.

الهوامش

(1) «مختارات ماركس وإنجلز» المجلد الأول، ص 51 أبالصينية،.

خاتمه

1- في عملية كتابة مسودة هذا الكتاب، حظيت بالتشجيع الحماسي والاهتمام والتوجيه والمساعدة من جانب السيد بنغ دينغ آن. وقد تشكلت بعض الفرضيات المهمة داخل متن الكتاب بصورة تدريجية في أثناء مناقشاتها مرات عديدة معه. كما أن هيكل الكتاب وطريقة معالجة موضوعاته راجعت بعض الآراء المهمة التي طرحها السيد بنغ دينغ آن أيضا. بالإضافة إلى أن السيد جاو تسي تشانغ، والسيد إي تشو إن يوي اهتما بتأليف هذا الكتاب اهتماما كبيرا وقدما الكثير من المساعدة المفيدة، كما قدم الأصدقاء لي إي قو، جو بين لينغ، جاو قوانغ هوي، صو لونغ شانغ وغيرهم التأييد المعنوي الكبير لتأليف هذا الكتاب. وفي جملة ذلك، أتقدم إليهم جميعا بأعمق شكر.

2- مازلت أخطو خطواتي الأولي في دراسة مسألة تحديث الصينيين. أو كما قلت في المقدمة، إن تلك الدراسة مجرد نهاية اكتشاف »واحد« . ويجب أن تدل النهاية على البداية الجديدة، ولذلك يمكن أن نعتبر هذا الكتاب جزءا من خطة دراسة »نظرية الصينيين« التي فكرت فيها مليا. كما أنه جزء من البداية الجديدة. وهناك بعض المسائل داخل الكتاب التي لم نناقشها بصورة كافية، وربما تكون بعض الفرضيات والأفكار غير ناضجة وليست كاملة وشاملة، بل حتى ربما تتضمن بعض الأخطاء المعينة والنظرة وحيدة الجانب، وإنني أرحب بالنقد

والآراء التي يطرحها القراء ترحيبا صادقا.

3- يعد هذا الكتاب، انطلاقا من سلسلة أفكاري البحثية في السنوات القليلة الماضية، أحد إنجازات المرحلة الثالثة في دراساتي لمسألة الشخصية. وقبل هذا الكتاب، نشرت عدة كتب منها: »نظرية الشخصية الغربية الحديثة« و«علم اختيار الشخصية« و«اليابانيون: الأحوال النفسية الثقافية قي التطور« وغيرها. ومازلت أرغب في استمرار الدراسة والاستكشاف في مجال الشخصية في المستقبل.

4- إن ممارسة أي دراسة واستكشاف أمر شاق وعسير جدا، ولكني حققت في مجال تلك الدراسة وأنشطة الاستكشاف المتعة الفكرية والسمو الروحي، واعتبر الأنشطة العملية داخل المجالات الفكرية بمنزلة صقل لاحوال شخصيتي الذاتية وإنقاذ لروحي وتطهيرها.

وو بن

في 15 مارس عام 1991

المؤلف في سطور:

وو بن

* متخرج قسم الفلسفة بجامعة نانكين، الصين الشعبية عام 1982.

* باحث بمركز أبحاث الفلسفة التابع لمعهد العلوم الاجتماعية في مقاطعة لياو لينج الواقعة في شمال غربي الصين.

* من أهم مؤلفاته: «نظرية الشخصية الغربية في العصر الحديث»، و«الأوضاع الثقافية للتطور عند اليابانيين» و«علم انتقاء الشخصية» وغيرها كثير.

المترجم في سطور:

د. عبد العزيز حمدي عبد العزيز

* من مواليد المنصورة، مصر عام 1959.

* خريج قسم اللغة الصينية بجامعة عين شمس عام 1981.

* مدرس بقسم اللغة الصينية جامعة عين شمس.

* اختصاصي بالصينولوجيا من دراسة اللغة والأدب والتاريخ والثقافة الصينية.

* له مقالات باللغة العربية عن الأدب الصيني الحديث والكلاسيكي، ودراسة عن الأدباء الصينيين، ودراسة عن الأمثال الصينية والعربية باللغتين الصينية والعربية.

* ترجم المسرحية الصينية (شروق الشمس) ونشرت في سلسلة (من



الحصيلة اللغوية

أهميتها

مصادرها

وسائل تنميتها

تأليف: د. أحمد المعتوق

المسرح العالمي) وزارة الإعلام بالكويت في مايو 1988، العدد 224.

* راجع الترجمة الصينية لكتاب (الإمارات العربية المتحدة-شعب عريق ودولة فتية) الصادر عن دار الثقافة والفنون في ديسمبر 1993-بكين، الصين الشعبية.

المراجع في سطور:

لي تشين تشونغ

* من مواليد 1937-الصين

* مدرس اللغة العربية وآدابها بجامعة اللغات والثقافات ببكين.

* ترجم أعمالاً عربية مهمة إلى اللغة الصينية منها: «الأدب العربي المعاصر في مصر» للدكتور شوقي ضيف، و«ثلاثية نجيب محفوظ» (السكرية).

* عضو أساسي في لجنة تأليف المعجم العربي-الصيني وكذلك المعجم الصيني-العربي، وغيرهما من المعاجم المتخصصة.

* له مؤلفات عدة أهمها: «جامعة القاهرة» و«تاريخ الفلسفة العربية».

* له عدد كبير من المقالات والبحوث حول الثقافة والأدب العربيين.

هذا الكتاب

هذا هو الجزء الثاني من كتاب «الصينيون المعاصرون»، الذي نود له أن يتبوأ مكانته اللائقة به في المكتبة العربية، من حيث إنه يمثل ـ ضمن محاولات قليلة أخرى حتى الآن ـ عملا رائدا في مجال الترجمة بين الحضارتين العربية والصينية.

ومن هنا يكتسب هذا الكتاب أهميته الكبرى، إذ ينقل إلينا التجربة الصينية ـ الناجحة ـ في تحديث المجتمع والدخول به إلى عالم الدول المتقدمة، وهي التجربة التي صاغت الصين منظومتها الخاصة من خلال التفاعل بين عناصر قطبين متعارضين: الثقافة التقليدية الكونفوشيوسية والثقافة الحديثة الغربية، وهو الأمر الذي نجد نظيرا له في عالمنا الثالث كله تقريبا، وشغل جل مفكريه تحت اسم «الأصالة والمعاصرة»، تلك القضية التي لم يزل النقاش يحتدم حولها دون أن يحسمه قول ينعقد عليه الاتفاق حتى الآن.

وينقل لنا هذا الكتاب بعمق أبعاد التجربة الصينية في التنمية والتحديث، وكيف أنها تنبثق من رؤية خاصة تختلف عن الرؤية الغربية، حيث تحافظ الصين على روح حضارتها القديمة الممتدة إلى الألف العاشر قبل الميلاد، وتركز، في الوقت نفسه، على تراثها وتقاليدها القديمة وتعاليم كونفوشيوس، وتختار نموذج التحديث الخاص بها الذي يتمحور على ظروفها الواقعية ومعرفة أحوالها التي تشمل التاريخ الصيني، والبيئة الجغرافية، وقوة الدولة وثرواتها الطبيعية، والثقافة التقليدية الصينية، والطبيعة السيكولوجية للصينيين، وخصائص السكان والعادات والتقاليد، ناهيك عن استيعاب العلوم الحديثة والتكنولوجيا الغربية للانطلاق نحو المستقبل وبناء دولة غنية وجيش قوي للانضمام إلى مصاف الدول الكبرى في العالم.

وأخيرا لعل ترجمة هذا الكتاب وغيره تكون بمنزلة جسر ثقافي بين الأمتين العربية والصينية بما يعود بالنفع عليهما معا في زمن، تجاوزت فيه ثقافات الشعوب حدودها الجغرافية، لتصير ميراثا متاحا للبشرية جمعاء.